T
44A

رحلة

طبي بك العباسي الى سوريا

من ٢ اغسطس الى ١٠ ايلول ١٨٠٧

+++

عن رحلة العباسي الى آسيا وافريقيا

ترجمة الرحلة مع المقدمة والحواشي

بقلم

حليم كعدان

رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت

للحصول على درجة استاذ علوم في

التاريخ العربي

بيروت في ٢ حزيران ١٩٥٢

التمهيد

لا بد لي من الاعتراف هنا ان هذه الدراسة الشاقة عن علي العماسي ما كانت لتستقيم لولا حسن التفات ذوي الفضل فالتفتي لي من التنويه بتوجيهات مرشد الرسالة الدكتور نقولا زيادة التي صوبت بضوئها معالم السبيل فامنت المزالق والشطط الوحدا يعود اليه الفضل فيما كان سوياً فيها ويهدو لي ان خير ما اتقدم به لشكره البرهنة على اني سرت في الخطا التي رسمها • فاذا اعترنا عامل الوقت في هذا المنحى ووعورة الطريق وامتدادها لم يبق لي الا الاعتذار عما يبدو هنا وهناك من مظاهر التقصير •

اما المستر ويلدر قيم مكتبة بانت في الجامعة الاميركية فقد كان عونا كبيرا على تذليل بعض الصعاب التي اعترت العمل في بحر هذا العام بسبب انتقال المكتبة الى بنايتها الجديدة • وهي صعاب كان مقدراً لها الحؤول دون الوصول الى نتيجة ما لولا حسن التفاته ولذا فاني امحضه خالص الشكر •

وكان للاب طانوس القيم على المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف للاباء اليسوعيين في بيروت فضل كبير في تيسير جميع المواد التي لم يتسن لي الحصول عليها في مكان آخر • اما استعداده الدائم لتقديم المساعدة فقد كان لي خير مشجع واسطوع له بعداد الشكر والامتنان • •

ثم لا بدّ لي من شكر الكبتن ولي برقدن الذي قضى معي قسما ثمينا من وقته في قراءة وتوضيح بعض المصادر الالمانية لجهلي تلك اللغة ولما في بعض مصادرها من مساس مباشر بالموضوع فكشف لي اثناء الدراسة

ولا اسعَ لطف الاستاذين زين في اعارته اياي مخطوطات القيمة من القديس جرجس والدكتور جبرائيل جبور والاستاذ ديبتري براملي والاستاذ انيس المقدسي فيما افضيا به الي من معلومات وارشادات قيمة •

المقـــــدمـــة

علي العباسي : مـــن هو ؟ ما هو؟

قيمـــة رحلتـــه

الخـــــلاصـــة

علي العباسي اسم كان له بعض الشهرة في مطلع القرن التاسع عشر. يستخلص من رحلته انه وصل الى طنجه قادما من قادس عند الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨٠٣ . فاتصل بعد فترة بسلطان مراكش الذي اكرم وفادته . ثم غادر مراكش بحرا الى طرابلس في تشرين الاول سنة ١٨٠٥ . فابحر منها الى قبرص في كانون الثاني سنة ١٨٠٦ حيث اقام شهرين . ثم توجه الى الاسكندرية التي وصلها في ايار من تلك السنة . وفي تشرين الاول توجه الى القاهرة فاقام فيها حتى كانون الاول ثم انتقل الى السويس ومنها اقلع الى جده بقصد الحج ووصل مكه في كانون الثاني سنة ١٨٠٧ . ثم عاد الى القاهرة في حزيران من السنة عينها . وفي تموز اتجه مع احدى القوافل الى سوريا فتنقل فيها من غزه الى الرملة الى القدس الى بيت لحم الى حبرون ثم القدس الرملة ويافا وعكا والناصرة ودمشق وحمص وحلب ثم توجه الى تركيا في اواخر تشرين سنة ١٨٠٧ فزار الاستانه ثم توجه الى بخارست في ١٠ كانون الاول سنة ١٨٠٧ وكان على حدود تركيا في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٠٧ حيث انتهت رحلته .(١)

---

(١) لخصه عن كتابه رحلة علي بك الى مراكش وطرابلس وقبرص ومصر والحجاز وسوريا وتركيا ما بين سنة ١٨٠٣ وسنة ١٨٠٧ . اعتمدت النسخة الانكليزية اذ لم اتوفق الى غيرها

وقد ترجمت علي العباسي دوائر المعارف الانكليزية والفرنسية والاسبانية/والاميركية (١) . ولم تذكره دائرة المعارف الايطالية . وقد جاء عنه في دائرة المعارف البريطانية (٢) طبعة سنة ١٩٤٤ (١٤) مايلي :

" علي المعروف بعلي بك (١٧٦٦ـ١٨١٨) وهو الاسم الذى اتخذه دومنغو باديا اى لابلانش (Domingo Badia Yaleblech) هو رحالة اسباني . وقد شرع باديا في رحلته سنة ١٨٠٣ مدعيا بانه من ذرية العباسيين . فزار مراكش وطرابلس ومصر والعربية وسوريا مستترا باسم علي العباسي والزي الاسلامي فسج الى مكه وهي آنذاك في قبضة الوهابيين . نشر باديا سنة ١٨١٤ في باريس بيانا عن رحلته بعنوان " رحلة علي بك في آسيا وافريقيا .. ثم عاد الى سوريا بعد سنوات قليلة منتحلا اسم علي عثمان ويقال انه في عودته تلك كان عميلا سياسيا للحكومة الفرنسية . وقد وصل الى حلب وبات هناك ، ولا يعتقد ان يكون قد عاش طويلا "

ورد في دائرة المعارف ذاتها في الطبعة الحادية عشرة فقرة تلي ما ذكر اعلاه ما يلي : " عند عودته الى اسبانيا سنة ١٨٠٧ اعلن انضمامه الى الحركة البونابارتية وشغل منصب محافظ سيغوفيا ثم قرطبه . وعندما طرد الفرنسيون الفرنسيون من اسبانيا اضطر باديا للجوء الى فرنسا .. " .

---

(١) فهمت من الدكتور فاسكار استاذ اللغة الاسبانية في الجامعة اللبنانية ان هناك فصلا مطولا عن العباسي في دائرة المعارف الاسبانية ولكني لم اوفق الى الاطلاع عليها

(٢) دائرة المعارف البريطانية (طبعة سنة ١٩٤٤ (١٤) مادة (Ali) .

وقد جاء في دائرة المعارف الامريكية (١) تحت مادة باديا
ما يلي : " رحالة اسباني ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي سنة ١٨١٨ • زار سنة ١٨٠٣
والسنوات الاربع التالية البلدان المحمدية على شاطئ البحر المتوسط وقد عرف طيلة
رحلته بكونه مسلما • تجول باسم علي العباسي • وتمثل دوره ببراعة مكنته
من التغرير بولاة المسلمين وعلمائهم • ونال في فترة ما الحظوة الفائقة في بلاط
مراكش (٢) ومن الامور الراهنة عنه الآن ان الحكومة الاسبانية استخدمته باغراء
ثلاثمائة جنيه كعميل سياسي لها ..." •

اما لاروس الجديد المصور Nouveau Larousse Illustré
الصادر بادارة كلود اوجه فقد زاد على ذلك ان علي بك تعلم العربية واختفى (٣)

وجاء في قاموس السير التاريخ العام لديزوبري وماشلا (٤) انه
ضابط اسباني وان جوزف بونابارت استعمله عندما اصبح ملكا على اسبانيا •

ويتفق هذا القاموس مع قاموس الاربس القرن العشرين بان العباسي
توفي في دمشق • بينما تذكر دائرة المعارف الانكليزية والامريكية بانه توفي وما سمو
في حلب •

---

(١) انسيكلوبيديا اميركانا مادة (Badia)

(٢) كان العباسي في مراكش منذ حزيران سنة ١٨٠٣ الى تشرين سنة ١٨٠٥ (الرحلة لباديا
جزء اول صفحة الترجمة الانكليزية .

(٣) راجع هذا القاموس في مادة (Ali Bey)

(٤) Dict. G.e de Biog.phie et d'Hist.e Mezobry et Bachelet, Paris 1869 مادة (Badia)

.../...

غير ان دائرة المعارف الاسلامية Encyclopedia of Islam تذكر انه الرحالة المشهور باسم بادیا ای لابلانش منتحل اسم علي بك بن عثمان بك العباسي ولا تزيد على ذلك سوى ايضاح المصدر وهو سيتسن ٤ الرحلة المجلد الثالث ص : ٣٧٣ • يتبين من هذا المصدر ان لعلي العباسي اسما جديدا • وهو "باترو نوص" • ويؤكد مستشار القنصلية الاسبانية في القاهرة السيد كريوس لسيتسن انه بالقنصل الاسباني السيد كمبس ٤ الاروبيان الوحيدان اللذان عرفا في القاهرة (١) ان علي العباسي كان اسبانيا • ويؤيد السيد كريوس انه عرف علي العباسي وهو في الجيش الاسباني قبل خروجه من اسبانيا • وانه اسمه باترونوص وانه استلم رسالة منه موقعة بهذا الاسم •

فهل كان علي العباسي دومنغو بادیا ای لابلانش ام باترو نوص •

ان تصريح كريوس لا يحمل على الشبهة • فما هو اذن سبب هذا التناقض بين دوائر المعارف المذكورة وتصريح كريوس ؟ •

من المؤسف ان تذكر دوائر المعارف مصادرها • وقد تكون استندت الى ما عرفه عن العباسي بالتواتر اى الى ما كان شائعا عن هذا الرحالة الغريب الاطوار • وفي مقدمة الترجمة الانكليزية (٢) ما يلي عن العباسي وعن سرية امره : " يشعر الناشرون انه لا يجوز لهم دفع الاسباب الشخصية التي حدت

---

(١) سيتسن ج • ٣ ص : ٣٧٣

(٢) بعدما غادر العباسي عوكا ارسل احد اشياعه مخطوطاته الى فرنسا وخوله نشر رحلته باللغة الفرنسية مصرحا اياه الا ينشرها الا بعد لأي• فنشرت الرحلة باللغة الفرنسية سنة ١٨١٤ • ثم ترجمت الى الانكليزية ونشرت بهذه اللغة سنة ١٨١٦ •

بالمؤلف الى كتابة رحلاته وطبعها باسم علي العباسي كما انهم لا يشعرون بانه يجوز لهم حتى ذكر هذه الاسباب .

" وحيثان هذه الاسباب خاصة بالمؤلف لذاته فليس من الضروري عرضها امام الجمهور . " (١)

فكيف اتصل بدوائر المعارف ان اسم الرجل دوبنغو باديا امر لا يتيسر لنا بحثه فيما لدينا من مواد . غير اني اميل الى الاخذ بالاسم الذي جاء به سيتسن ويدفعني الى ذلك دقة سيتسن في ابحاثه ثم كون الرحالة الالماني تدر القاهرة عندما كان العباسي فيها فيظهر من بحثه عن هذا الرجل في الصفحات ١٦٥ و١٨٥ و٣٧٣ انه كان يحصي على العباسي حركاته وسكناته ويعطي عنه ادق المعلومات التي سيأتي ذكرها في المكان المناسب من هذا البحث . ولو الاخص بانه كان يظن ولو على ضعف ان الرجل اسباني ويعتقد بانه عميل بريطاني بعثت به لندن الى الدرعية عاصمة الوهابيين . ثم لان كريوس كان جاء في تصريحه الى سيتسن (٢) .

فمن اين جاءت التسمية التي اشتهرت في دوائر المعارف ؟ .

الجواب على هذا اذا كان لا بدّ من الجواب لا يخرج عن دائرة الحدس وهو ان من التقى الشرقيين بانه علي العباسي لا يصعب عليه اشباههم

---

(١) العباسي ، مقدمة الترجمة الانكليزية ص : VII و VIII

(٢) رحلة سيتسن "٣" ١٦٥ ، ١٨٥ ، ٣٧٣ .

المستشرقين الفرنسيين باسم دومنيكو بادیا ايلابلتش لاسيما وقد عرف في اوربا على اثر نشر الرحلة سنة ١٨١٤ في باريس ، ان علي العباسي اوربي . وان شاتوبريان ظهر تركيا عندما التقى به في الاسكندرية . فحصه في كتابه الذى صدر قبل رحلة العباسي بستتين بما يلي : " تسنى لي في الاسكندرية ، ايضا ، التمتع بلذة من تلك اللذاذات الذاتية التي يحكم بها المرء لقرن والتي تعوض بغبن من العجب في سياحة من قبل . فهناك تركي ، شرى ، رحال وفلكي اسمه علي باشا العباسي ، ادعى الاطلاع على ما ذكر اسمي لديه فذهبت والتمس لزيارته وما ان رآني حتى هتف : " اهلا بعزيزي اتالا وعزيزي رينه " (١) فبدا لي علي باشا في هذه اللحظة وكأنه يصدر من سلالة صلاح الدين العظيم . وفضلا عن ذلك فانني على شيء من الاطلاع باشا هو التركي الذى فاق اتراك الدنيا علما وادبا . وفضلا عن جهله صيغة الجمع في الافرنسية ، فان اضطرب لهذه الهفوة الطفيفة (٢) " .

وعندما نعرف عن شهرة شاتوبريان الادبية في القرن التاسع عشر وحتما رافق العباسي من اشاعات باشا زار المقادس الاسلامية حتى مكة لا نعجب من السيرة الشاسعة التي فاز بها . ويبدو لنا طبيعيا ما ذكر في رسالة ده لبل ده سالس الى شركة النشر لوفغان وكهاني . فقد جاء فيها ما يلي :

---

(١) اتالا اسم فتاة ورد اسم فتى من ابطال روايات شاتوبريان .

(٢) اورد المرء لفة الفرنسي الشهير هذه العبارة باللاتينية وهي الاتية : Non ego paucis offendar maculis . وذلك في الصفحة ٣٧ من الجزء الثالث من رحلة شاتوبريان المعروفة باسم "اتينيرير دباري آ جاروزالم".

" علمت في معرض التراسل مع احد اعضاء مجلس اللوردات الانكليز الذى يشرفني بصداقته منذ سنوات عديدة انكم على اهبة نشر رحلات علي بك فهي ، كما اجزم ، ان اقول ، منتظرة بلهفة منذ جميع الذين لا يزالون يهتمون ، علما و ميلا ، بالدراسات الشرقية والاسلامية . وهي خدمة لا ريب فيها تسدونها الى جمهورية الاداب بكاملها بعد ان كادت تطيح بها الثورة الفرنسية"(١).

وهكذا يبدو لنا ان لذة الاطلاع على غريب العباسي لا بدّ صحبها رغبة التعرف الى صاحب العباسي . فهل يمكن ان نخرج من هذا بالقول انه حبّا بارزا ، هذه الرغبة وجريا على مبدأ الاسباب الشخصية العائلية المذكورة اعلاه القى العباسي او بعض المقربين اليه الى الجمهور باسم بادية ايلا بلقش . وهذا ، حدس كما ذكرنا يفتقر الى دراسة اوفى غير هيبة الآن (٢) .

اما كيف روباتروتس او دوبفور باديا قصة في البلدان الاسلامية فقد ذكرها العباسي تلميحا في موضعين من رحلته دون ان يتطرق الى التفاصيل التي تمكث من العثور عند سيتسن .

---

(١) ده لبل ده سالس عضو المؤسسة الملكية الفرنسية لاكاديمية الاداب (علي العباسي — الترجمة الانكليزية — المقدمة — ص : × ويبدو من تاريخ الرسالة انها كتبت في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨١٨ .

(٢) لم احصل بعد على اي من المصادر الاسبانية التي وعدني الدكتور فانكلار المذكور بالحصول عليها .

.../...

عندما وصلت السفينة بالعباسي الى مرفأ طنجة جرت بينه وبين قبطان المرفأ المكالمة الاتية :

" القبطان : من اين قدمت ؟

علي بك : من لندن عن طريق قادس

ق : الا تتكلم لغة المغاربة

ع : كـــلا

ق : من اى بلد انت ؟

ع : من حلب

ق : واين حلب ؟

ع : في الشام

ق : اى بلاد هي الشام؟

ع : هي فيالشرق ،قرب تركيا .

ق : اذن انت تركي ؟

ع : لست بتركي ، انما بلادى في طاعة البادشاه

ق : فهل انك مسلم ؟

ع : اجـــل

ق : الديك جواز سفر؟

ع : اجل، لدىّ جواز من قادس

ق : لماذا لا تحمل جوازامن لندن ؟

ع : لان والي قادس ، احتفظ بجواز لندن واعطاني هذا بدلا عنه .

ق : هاتـه "

.../...

ولا يطول بالعباسي الامر حتى يفوز بالاكرام البالغ ومقابلة السلطان وهداياه والحظوة العليا عنده (١) .

وفي المرة الثانية حصلت المكالمة التالية في مكه :

" الشريف غالب : اتتكلم العربية ؟

العباسي : أجل مولاى .

— والتركية

— كلا يا مولاى

— العربية وحدها ؟

— اى ، مولاى

— أتتكلم لغاتٍ مسيحية ؟

— بعضا منها .

— من اى بلد انت ؟

— من حلب

— اغادرتها صغيرا ؟

— اى، مولاى

— وأين قضيت هذه الفترة ؟

— فقصصت قصتي ..." (٢)

---

(١) رحلة العباسي ج "١" ص "٤"

(٢) رحلة العباسي ج "٢" ص "٥٥"

.../...

غير ان العباسي لا يورد قصته في الرحلة اما سيتسن الالماني فقد اورد قصته ربما كانت القصة الوحيدة التي وصلت اليها (١) " في المساء زرت القنصل الفرنسي السيد روفائيل ، بصحبة السيد هاك آوزل ... وكان (القنصل) قد جمع من هنا وهناك مجموعة بديعة من العاديات باعها باربعة الاف غرش احد العلماء المحدثين المدعو بحلي العباسي . وهذا الاخير عالم ثقة . كان ابوه باشوات سوريا ان لم يخطئ ظني . وقد هرب الولد بلبنه واموله الى اوربا . وتثقف الفتى في اسبانيا حيث قضى معظم وقته . وقد تنقل على بلاد فرجمع اقطار اوربا المشهورة ، وعلى الاخص في انكلترة وايطاليا وفرنسا . فنال بذلك قدرا فائقا من المعارف . وهو يتكلم معظم اللغات الاوربية . ولا بدّ من ان يكون على حسابه مبلغ وافر في بنك لندن . انه الان في رحلته الى مكة (٢) وهو موفق قريبا . آمل ان يسعدني الحظ بالالتقاء به ، فهو على ما يظهر ذو اطلاع واف في علم الهيئة " (٣) .

فاذا كانت هذه قصته فلا نعجب اذا رحّب به سلطان مراكش ابدا فلا يعود الى حضن الاسلام بعد لأي .

---

(١) سيتسن الرحلة ج "٣" ص "١٦٥" .

(٢) يظهر من مذكرات سيتسن ان تاريخ هذه السيرة وبالتالي الحديث شهر ٢٦ ايار ١٨٠٧ وفي هذا الوقت كما يتضح من مذكرات العباسي كان على بك في السويس ، بعد عودته من مكة . وقد عاد الى القاهرة في ١٤ حزيران (سيتسن "٣" ١٦٥ وعباسي "٢" ١٨٩) .

(٣) يبدو ان سيتسن كان على شيء من الاطلاع في علم الهيئة فلا يبعد ان يكون الشيخ عثمان الميقاتي الفلكي المصري والشيخ عبد الرحمن البحيري المؤقت والفلكي على حد تعبيره (سيتسن "٣" ١٦٥) .

.../...

وهناك قصة اخرى قصها العباسي في القدس مدعيا فيها انه ابن سلطان مراكش فادخلت الرهب في روع ابي غوش وقد لا يكون علي بك كاذبا بذلك لان مولاى عبد السلام اخا مولاى السلطان سليمان اطلق العباسي انه ينبغي ان يعتبر نفسه كابن له وللسلطان (١) .

٢) — ما هو العباسي ؟

ربما كان عالما عاميا جاء بجمع الاعشاب الشرقية اشباعا لذوق خاص او طلبة لرغبة العلماء المعاصرين ؟ .

ذكر ناشر رحلة العباسي الفرنسي ما يلي عنه في هذا العدد : "رغما عن هذه المصاعب فان مجموعات علي بك وافرة العدد ولو انها غير كافية لاشباع ميله الى التاريخ الطبيعي " اما المصاعب التي يلمح اليها الناشر الفرنسي في الحاشية فيوردها العباسي في المتن كما يلي : " وعليه فقد اضطررت للتضحية برغبتي الملحة ايضا لشعور المكلفين برفاقتي خلتا من قبضتي فرصة سانحة لجمع ثروة من الوف الاعشاب المنتشرة في الحقل . وقد اكتفيت باخذ بضعة منها على الماشي بطريقة حرصت فيها على عدم ايذاء شعور البله والجهل عندهم " .(٢)

---

(١) انظر البحث عن ابي غوش في حواشي الفصل ١٥ الحواشي : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٢٥ .

(٢) انظر العباسي ج "١" ص "١٠٨" من الترجمة الانكليزية

(٣) العباسي ١ ، ١٣١ من الترجمة الانكليزية

.../...

غير ان رحلة العباسي فيها فوق ذلك من مظاهر الذوق العلمي • فاوربا جاء بدرس العاديات الشرقية ، وقد كانت فترة نابليون (١٧٩٨ـ١٧٩٩) موقدة زنادها • وقد ذكرنا اعلاه ان العباسي اشترى من قنصل فرنسا في القاهرة مجموعة منها غنية •

الا ان بحث الحصون والقلاع في الثغور والعواصم الشرقية اوفر من المباحث التاريخية في رحلة العباسي • فاوربا كان صاحبنا جاسوسا جاء يكشف الارض •

اشتهر عن نابليون انه كثيرا ما ودّ ان فولني قرّبه • وهو بعد انتصاره السريع على مماليك مصر دخل في روعه ان احتلال سوريا ان هو الا نزهة حربية • فقد جاء في البيانات الرسمية ان عكا تفتح باربعين وعشرين ساعة فتعود الحملة الى القاهرة بعد اسبوع (١)

وقد عرفنا ان العباسي كان زعيما في الجيش الاسباني قبل تدوجه الى الشرق وانه كان على صلة وثقى بالبيت النابليوني • فربما جاء خبيرا عسكريا يدرس المواقع والحصون • ويبدو من الرحلة ان العباسي كان مولعا ببحث التحصينات التي رآها فهو يحدث عن حصون القدس وظهرها الخارجي المتين ووهنها في الواقع ويذكر سبب الوهن (٢) •

ويكاد لا ينسى مدينة او بلدة زارها • فيحدث عن حصون كل منها وعن اسوارها وحاميتها وقدرتها على المقاومة •

---

(١) تاريخ الجبرتي ، طبعة القاهرة سنة ١٨٨٠ ج "٣" ص "١٥" و "٥٢" •

(٢) العباسي ط ٤٠ ص الترجمة العربية

يخص دمشق ببحث خصها الحقيقي في حدائقها المحيطة بها(١)
ولا يفوته ان يذكر بافا وحصونها وحاميتها وحاكمها العسكري
المزاج والتكبر .

اما حصون عكا فقد خصها ببحث مسهب فظهرا ، وفنا لتصريحاته
نقاط الضعف والقوة فيها (٢) .

غير انه تعين لي امران لابدّ من الاشارة اليهما اولهما ان العباسي
كما ذكرنا اعلاه نقلا عن دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الحادية عشرة اعلن
بوناپرتيته وان كتابه لم ينشر في الافرنسية الا قرب سقوط نابليون سنة ١٨١٤ وفي
الانكليزية بعد سقوط نابليون بمان هناك حديثا في نشره بالانكليزية منذ اواخر سنة
١٨١١ (٣)

والامر الثاني ان العباسي القى الناشر الفرنسي باوراق استعمل
الناشر او غيره حرية في الحذف منها . ويتضح ذلك من حواشي الناشر الفرنسي (٤)

---

(١) كان تنبأ بذلك حسن مقاومة السوريين في الغوطة عندما ثاروا على الفرنسيين سنة
١٩٢٥ او من تشبث حسني الزعيم بالدفاع عن دمشق بعد تسليم الفيشيين
للحلفاء البريطانيين والفرنسيين سنة ١٩٤١ (راجع العباسي في القسم الاخير من
الفصل العشرين من القسم الثاني ص ٢٨١ من المتن من الترجمة العربية

(٢) راجع ص ٤٤ من المتن من الترجمة العربية .

(٣) راجع ص X من المقدمة الانكليزية .

(٤) العباسي ١ "٤" ٤٣ ، ٤٨٧ ، ١٦١ وراجع خاتمة الرحلة حيث يوضح الناشر
ذلك بما لا يترك مجالا للشك (الترجمة الانكليزية)

.../...

كما ان ذكر العباسي بالشخص الثالث احيانا او باسم علي بك ما يبرهن ان الناشر هو منظم الابحاث على الاقل ان لم يكن هو الذي وضعها باللغة الفرنسة (راجع راجع شاهوريان في لغة العباسي الفرنسية وقد ذكرناها اعلاه) .

وقد يستنتج مما تقدم ان العباسي اطلع السلطات الفرنسية على معلومات اوفى مما ورد في كتابه وان ما ورد فيه ليس بالقليل .

بحثت امر العباسي بمباحث عن الحصون مباحث الاجانب المقيمين حاليا في لبنان . وهو يحضر بحثا علميا عن احدى البلدان الشرقية فاشار الي ان ذكر الحصون عادة عند الرواد . فلا داعي لاشهار العباسي على هذا الصعيد جاسوسيا . ولا يخفى ما في هذا الرأي من وجاهة . غير ان علاقات العباسي اللاحقة واثر الغزوة النابليونية وطمع نابليون الشهير بجعل المتوسط بحرة فرنسية وصفة العباسي العسكرية ترجح الظن بان من غايات العباسي في الشرق تجسس الارض تمهدا لغزوة اجنبية .

ولا ضير في ان يستفيد العلم من رحلة تلك . فهو امر مشجع بالطريقة النابليونية في غزوة الشرق بالسيف والقلم ! وان الوجهة العلمية فضلا عن ذلك وسيلة للتقرب من السلاطين الشرقيين وهذا ما حدث فعلا للعباسي في مراكش مثلا ثم ان اسطرلاب العباسي وسيلة لتحديد الاماكن للفائدة العسكرية والعلمية معا . واذا عرفنا ان العباسي القى في باريس في جلسة الخريف سنة ١٨١٣ للمؤسسة الوطنية بيانا عن رحلته امام صفوفها العلمية والتاريخيـــة (١) وان احد اعضاء

---

(١) العباسي الترجمة الانكليزية المقدمة ص : X/I

المؤسسة الملكية الفلسفة لاكادمية الاداب اعجب ببيان العباسي الذي تحتوي على اعضاء المؤسسة فلا مجال لاستغرابنا لانه كان عليما بظهور في رحلته مولعا بالقضيات العلمية الجغرافية التي شغلت اذهان علماء الجغرافيا في مطلع القرن التاسع عشر . وهي التفتيش عن نهر النيل ومعرفة ما اذا كان هناك من بحيرة في قلب الصحارى الافريقية الكبرى (١)

وقد انهى العباسي الفصل المذكور اعلاه بما يلي : " ان البراهين السابقة الجأتني الى الاعتقاد بوجود هذا البحر وذلك قبل حضوري الى افريقيا . وقد بحثت هذا الرأي في باريس سنة ١٨٠٢ مع بعض اعضاء المؤسسة (٢) العلماء في لندن مع بعض اعضاء الجمعية الملكية . ثم وضعت مذكرة بهذا المعنى في قادس في الثلاثين من ايار سنة ١٨٠٣ واخرى في طرابلس (الغرب) في تشرين الثاني ١٨٠٥ "

فهذا ان شخصية العالم طغى على شخصية العميل السياسي او العسكري .

غير ان سيسن يذكر الحادثة التالية التي تقلل هذا الزعم نوعا . وهي ان العباسي كان يوما يتصدر في بيته في الاسكندرية حلقة من المشائخ فاستأذنهم وارتقى سطح الدار بحجة اضطراره الى بعض الارصاد الفلكية . فافاد من غفلتهم لاخذ منظر عام لمدينة الاسكندرية (٣) .

---

(١) العباسي المقدمة ص : × و/١ × و"١" ص١٤٣ عن الرحلة الى اطراف مراكش و"١" الفصل التاسع عشر بكامله عن الاطلس القديم وعن وجود بحر متوسط في قلب افريقيا . ت . الله .

(٢) المؤسسة "انستيتي دى فرانس" وهي مجموعة الاكاديميات الخمس التالية : الفرنسية والنقوش والاداب والعلوم الاخلاقية والسياسية والعلوم والفنون الجميلة . وقد اعيد تنظيمها سنة ١٧٩٥ (لاروس مادة Institut في القسم التاريخي) .

(٣) سيسن "٣" ٣٧٣ .

ثم ان كريوس وهو مستشار المفوضية الاسبانية في القاهرة سنة١٨٠٧ لم يقف على الرحالة الالماني عدم وثوقه بالعباسي وتصريحاته لتناقضها ولعدم وجود رفيق سفر له يضع النقاط على الحروف (١) • فالعباسي كان يلوذ بالوحدة الى درجة ادخلت الشك في روح مستشار القنصل المذكور •

وهنا نصل الى المشكلة الثالثة في بحثنا وهي لمصلحة من عمل العباسي اذا صح كونه عميلا ؟

كنا ذكرنا ان دائرة المعارف الاميركية تعتبر كون العباسي عميلا سياسيا امرا هنا وان ما جاء هنا من تصرفات العباسي ومعلوماته لا ينفي ذلك والامر الذي لا يدعو الى الغرابة هنا كون الشرق شبه مقفل على الغرب حتى القرن التاسع عشر • وكون الغرب شديد الرغبة في الاطلاع على احوال الشرق اما لغايات عسكرية او سياسية او تجارية او دينية او تعدينية (٢) فلا يبدو عجيبا اصطباغ علم الاستشراق بالصبغة السياسية فالعباسي وهو احد رواد المستشرقين ربما كان من اقرب المقربين بينهم الى الناحية السياسية •

ولكن لمصلحة من اشتغل العباسي : لمصلحة فرنسا ام لمصلحة اسبانيا ام لمصلحة انكلترة ؟

تبين لنا في مطلع هذه المقدمة ان دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الحادية عشرة ودائرة المعارف الاميركية ان بادئا عمل لمصلحة الفرنسيين بواسطة الحكومة الاسبانية او دون واسطتها • ولم نعرف ما اذا كان كلف ذلك منذ ١٨٠٣ عندما قدم الى مراكش او في السفرة الثانية فحسب • فالمصادر المتوفرة متضاربة الرأي او صامتة • وليس لدينا سوى تشكيك كريوس في صحة مزاعم العباسي وفي اداء

---

(١) سيتسن "٣" ٣٧٣

(٢) بوليتيكل اند سوشل هيستوري اوف مودرن يورب هازن (نيويورك ١٩٢٥) ص ٦٢

جاء مكة خصوصا لاخذ مقاييسها الجغرافية (١) فهل تم للعباسي ذلك ؟ قد يكون الجواب فيما يلي : " لقد عرضت لي على اثر رصد الشمس عند مرورها في خط الهاجرة مرارا وتكرارا ان خط العرض في مكة هو ٩° ٢٨′ ٢١° شمالا كما ان بضعة من رصود المسافات القمرية اعطت خط الطول التالي شرقي مرصد باريس : ٤٥° ٥٤′ ٣٧″ اما سطح البيت الذي اقمت فيه وعنه وجهت رصودي فهو في وسط المدينة تقريبا على مسافة نحو ٥٣٠ قدما شمالي الكعبة .

" وعلى اثر رصد عدد من السموت تبين لي ان درجة الميلان المغناطيسي هي ٥٢° ٤٣′ ٩° غربا " (٢) فيكون العباسي قد اشبع رغبته من هذه الوجهة ولا يمكننا الجزم كونه عميلا اسبانيا ام عالما افادت منه عدة دول فصولت مغامرته .

غير ان سيتسن يذكر (٣) انه خيل اليه ان العباسي عميل انكليزي ارسله لندن الى الدرعية عاصمة الوهابيين . فعلى اي شيء ينطبق حدسه ؟ لا يذكر سيتسن غير ذلك . الا اننا اذا عدنا الى رحلة العباسي نجد انه يفاخر في البحث عن علاقاته بالشريف غالب سلطان مكة لم يتمكن من الاقتراب من سعود سلطان الوهابيين عندما قصد هذا مكة في موسم الحج(٤) فهل هذا عذر يخفي به علاقاته

---

(١) سيتسن ج ٣ ص ٣٧٣

(٢) العباسي "٢" ٩٤ ويسبق هذه الصفحة ويليها صفحات عديدة اسهب العباسي بوصف مكة فيراجع . ت . الك .

(٣) سيتسن "٣" ٣٧٣

(٤) العباسي "٢" ٩٥ و ٦٩ . ت . الك .

مع لندن ام ان الوهابيين منعوه فضلا من الاقتراب الى سعود لان اباهذا الاخير عبد العزيز قتل غدرا (١)

ويظهر ان العباسي لم يجرؤ ايضا على الذهاب الى الدرعية او انه لا يريد ان يذكر انه ذهب فهو يقول ان " عاصمة الوهابيين ، وفقا لافادتهم قائمة عند اقدام الجبال الوافرة الارتفاع..." مما يعني انه لم يرها مع كونه يصف بالتدقيق طبيعة البلاد وصعوبة اقتحامها وصفات العاصمة فهي اى العاصمة كما يقول على بعد ١٣٠ فرسخا شرقي المدينة و١٠٠ فرسخ الى جنوب الجنوب الغربي من البصرة و١٦٠ فرسخا جنوبي شرقي القدس .

هذا فضلا عن بحثه السبب عن قوة الوهابيين وكيفية تجنيدهم والاموال الذين يأتون بعد سعود في القوة(٢) فهل هناك معلومات اضافية وجهت الى لندن دون دون ان تمر بالقنصل الفرنسي . وما معنى الاعتقاد بان للعباسي حسابا كبيرا في بنك لندن(٣) بل ما معنى اتصال العباسي بالشخصيات البريطانية المذكورين في مقدمة الترجمة الانكليزية؟ وقد ورد في هذه المقدمة ما يلي : " زار العباسي هذه البلاد "انكلترة" سنة١٨٠٢ بصديق كان مقدرا ان يرافقه الى افريقية وقد قدم العباسي آنذاك الى السر جوزفبانكس والمرحوم الدكتور ماسكيلين والمايجر رنّل والسيد مندوزا والسر ولم بلزوز والسيد مشاروز تارنر والى القنصل اشبهم والى غيرهم..." ولو تيسر لنا معرفة شيء عن المذكورين وما تيسر لنا الوصول الى ما يلقي ضوءا على علاقة العباسي بلندن

---

(١) العباسي ج "٢" ص ٦٩و١٣٥ ت.انه.

(٢) العباسي ج "٢" ص١٢٨—١٣٩ ت.انه.

(٣) سيمسن ج "٣" ص١٦٥

الا انه اذا صعب علينا الجزم بكون العباسي عميلا انكليزيا / واسبانيا ففي العلاقة لا يقل صعوبة عن اثباتها فهناك اتصالات واضحة وهناك اموال طائلة انفقها العباسي الذي جاء من لندن(١) مارا بقادس في اسبانيا .

اما كون العباسي عميلا فرنسيا فقد مرّ بحثه . الا ان الاستفهام الذي يجب هنا في كيفية تمكن العباسي من الاتصال بالفرنسيين النابوليونيين وبالانكليز معا والحال معلومة بينهما اثناء قيام الامبراطورية المنبثقة عن الثورة الفرنسية وكانت انكلترة حربا على كليهما . فهل تمّ ذلك بأعجوبة العلم؟.. ام ان العداء بين البلدين كان على شيء من التراخي بعد صلح آميان Amiens ١٨٠٢ ولو لفترة قصيرة . ام ان اعداء اسبانيا لفرنسا وتحالفها مع انكلترة على اثر فوز بونابارت كان له دخل في توضيح ما يبدو تناقضا .

قيمة الرحلة :

ما هي قيمة هذه الرحلة؟ :

ذكرنا ان العباسي قام باتصالات علمية قبل تدويمه الى الشرق . وان قاعدته كانت بحر الاطلسي والبحر المتوسط . غير ان العباسي في هذين البحرين لم يتوفق علميا رغما عن الجهود التي بذلها لان الامكانيات المادية في التوغل الى اواسط اواسط افريقيا كانت محدودة لديه . ومهما كان محاولته علميا فانها قد تكون فعلت في النفوس المستطلعة فكانت الرحلات التالية التي لا مجال حتى لتعدادها وهي معلومة لدى الجميع .

---

(١) العباسي ج ١ ص ٤ ت. انه.

اما ارصاد العباسي فقد كانت وافية وافرة وقد امتدت من فاس الى مكة الى جبل سمها في مختلف المدن التي عين مواقعها الجغرافية .

وقد العنا الى مجموعات العباسي النباتية .

اما فيما يتعلق بدراسته للاثار والعاديات في البلدان الاسلامية فقد اعترف العباسي عند بحثه انقاض الرستن ، بعجزه لعدم تيسر المواد اللازمة لديه (١) غير ان صاحب المقدمة في الترجمة الانكليزية يشيد بملاحظات العباسي عن عاديات تدمر التي مر بها من سبقه عبر الكرام(٢) . ثم ان هناك رؤية كانت للشرق في الاذهان الاوروبية مصدرها الامجاد التركية السالفة . فقد جاء العباسي يكشف القناع عن اسطورة الامجاد السابقة ذكر بصدد بحثه عن ، الخانات ، حديثا كرو مرارا عن يقينه بزوال الامجاد الاسلامية(٣) فيكون لهذا التصوير وللمعلومات الدقيقة التي اعطاها عن الحصون والحوامي في المدن الاسلامية وقع خاص في الدوائر العسكرية والسياسية والاوروبية حتى انه يخصي اسطول والي طرابلس في عدد سفنه وعدد المدافع فيها فهي احد عشر سفينة عليها ثمة وثلاثة مدافع ويذكر عددا مدافع كل سفينة(٤) وامثلة من هذا النوع كثيرة .

اما مبحث الوهابيين فيمكن اعتماده مصدرا تاريخيا في معظم نواحيه وتفاصيله . هذا فضلا من القيمة الجغرافية في مختلف مراحل الكتاب ، فيه يظهر لي انها تفوق قيمة كتابي سيجسون وفواني معاصريه من هذه الناحية لما ادخل فيها من التفاصيل العلمية .

---

(١) العباسي: الترجمة العربية ص ٩١ من المتن
(٢) العباسي المقدمة ص ١٨ "الترجمة الانكليزية"
(٣) العباسي الترجمة العربية: فصل ٤ ٨ من المتن
(٤) العباسي ج "١" ص ٢٣٦ ت. انكه.

ولعل بحثه عن مكة اوفى ما كتب في عهده ان لم يكن اول ما كتب وعلى الاخص في معلوماته عن المقاييس الحضرافية .

وما يدهش عند العباسي ذلك الفيض في المعلومات وفي تنويعها فهو علاوة على ما ذكر حاول محاولة فيلولوجية في بحث لغة البربر فقد احصى منها نحو ١٥٠ كلمة ودرس احوال هذا الشعب بشيء من الدقة(١).

اما فيما يتعلق في بحث سوريا فقد جاء بالمعلومات الوافرة من احوال الحصون والحاميات واذ لم يكن بحثه للحرم جديدا الا انه على كل حال لا يخلو من الطرافة لان كتب المؤرخين العربية لم تكن قد نقلت بعد الى اللغات الاوربية .

ولا مشاحة بان اسلام العباسي واطلاعه العربية كانا عونا له على التغلغل الى البيوت والعادات غير اني ارى ايضا ان اسلامه وتغلغله في الحياة الاسلامية اضفا عليه غزارة الفضول التي يحسن بها السائح الغريب ما لا يراه ابن البلد ومن هذه الناحية اكاد اشعر بخيبة في مبحث العباسي المستفيض عن الشام فهو اذ يذكر الانهر والخيل والحركة التجارية والصناعية والمذاهب والدخل والاجناس وفضل الشامي على الهندي وغير ذلك يكاد يراها بمنظار ابن البلد . ومع ما في ذلك من دقة وقيمة الا انني كنت اود لو تعمق في درس نفسية الاجناس المختلفة من البشر في مقاهي الشام. كما انه لم يشبع الفهم في بحث شكل الحكومة واضائها ومركزها والقضاء وحالته . ولكن لعل لديه عذرا من قصر الوقت . فلم يقم في الشام اكثر من اسبوع: من ٢٢ الى ٢٩ آب سنة ١٨٠٧ (٢)

---

(١) العباسي ج ١ ص ١٥٦ــ١٦٠ ت.ا.ه.

(٢) الفصل العشرين في المتن . ت.ع.

وقد لاحظت ان رحلة فولني ورحلة سيتسن ورحلة العباسي تكمل بعضها البعض وتلقي ضوءا ساطعا على الربع الاول من القرن التاسع عشر في الشرق العربي . ففي مقابلتها يستخلص الباحث فيضا من المعلومات . وهي دون شك تختلف عن رحلة لاظ ين الشعرية ورحلة شاتوبريان التي يسبغ عليها صاحبها رائع وائع شخصية ادبية اكثر منها علمية رحالية .

ولا يضير رحلة العباسي كثيرا ان اهملنا فيها الوجهة السياسية والوجهة العسكرية . فانها كما ذكرنا محتفظ بقيمة الرحلة الخاصة .

اما الصبغة التي يمتاز بها هذه الرحلة على غيرها فهي في تمكن العباسي من دخول المقادس الاسلامية واحترامها ووصفها وصفا دقيقا ان سبقه اليه العرب فمن الراجح ان المسيحيين الغربيين لم يسبقوا اليه . هذا فضلا عن كون اللغة العربية اغنت رحلته لم تكن قد نشت بعد من مخابئها وكان محكوما عليها البقاء في الزوايا نحو نصف قرن او يزيد .

وان اسفنا لشيء في هذه الرحلة الشاملة العظيمة الاطراف فمأسف لكون العباسي سكت سكوتا مطبقا عن المخطوطات العربية .

صحيح ان فوجيو جاء بعده يعطي الاوصاف والتفاصيل الواسعة عن الحرم الا ان العباسي يظل محتفظا بقيمة الاسبقية على الاقل .

عطرق العباسي الى بحث كلما تعجله عنه او يسبق به وليس هذا القول مبالغة ويؤخذ على العباسي انتقالاته الفجائية من موضوع الى موضوع . فهو اذ يحدث مثلا عن نوع غريب من الدراويش في حماه يفتقل فجأة الى بحث شقائق النعمان (١) وامثال هذه القفزات الفكرية عديدة .

---

(١) العباسي ج "٢" ص ١٢

وفضلا عن المآخذ المذكورة يصح اعتبار رحلة العباسي كتابا لا يزال الى اليوم قيما وقيمته اليوم تختلفعنها عند صدورها • ذلك ان الجبل الذى تلقاه نظرك اليه نظرات تملأها علامات الاستفهام عن الشرق وتحدوها رغبات ملحة وشخالفة المقاصد كما ذكرنا ولا بد من التنويه بان الضجة التي يمكن ان تكون قد رافقت الكتاب كما يتضح من مقدمة الناشر الانكليزى لا مجال لها اليوم فقد كان الشرق ومقاديره في مطلع القرن التاسع عشر ارضا بكرا للغربيين لفقدان المعلومات عنها ولضآلتها او لعدم انتشارها في النفوس عنها بعض الرحالين الرومنطيقيون الشعراء من امثال الامارتين وشاتوبريان ممن جاءوا يفتشون في الشرق عن مواضيع جديدة للشعر او الماما انارة في نفوس الاوربيين لجو بعض المغامرين الذين جاءوا الشرق يبحثون فيه عن مواقفهم الثائرة من امثال اللايدى هستر ستانهوب •

اما اليوم فلم يبق الكتاب غير صفة المصدر يصح للمقارنة والمقابلة والتدقيق لاسيما وان سلسلة الرحالين المغامرين لما تنقطع فهناك من ابوا عداء مكة المكرمة من امثال فارنامارسيتسن وبركهاردت وبارتن ومنهم من اسلموا او ادعوا الاسلام كوالن وفوار ماني او امثال سكلون بلغط واللايدى آن بلنط (٢) وشارلزهوتي وسادلير وكابارت وغيرهم (١) فقد توافرت اليوم المعلومات الجغرافية عن الشرق الى حدّ تم للغربيين للغربيين معرفة الارض العربية وما عليها وما تحتها الى اعماق بعيدة الاقدام •

وهذا لا يعني ابدا ان نغمط العباسي حقه فقد كان من الرواد الذين وضعوا حجر الاساس والفضل الواضعي الحجارة الاولى •

وقد رأى معظم من درسوا العباسي فيه عميلا سياسيا غير ان ذلك ايضا زال بزوال الاسباب الداعية المذكورة ولم يبق لنا الا ان نرى في رحلة العباسي لمحات

---

(١) راجع مقدمة دوغلاس كاروثرز " لرحلة فواريماي الى شمال نجد " طبعة لندن سنة ١٩٣٧

هنا وهناك عن الاوضاع الادارية والتجارية والصحية والاجتماعية يضع الركون اليها مصادر تاريخية بعد المقابلة والمقارنة بما اثار من ذكروا • ولعل اهم ما يمكن ان يسجل مادونه العباسي عن حالة الطرقات والسفر وحالة المرأة المسلمة في مختلف الوجهات والشؤون • ونظرة الرجل اليها وحالة العلم البدائية وضعف الثقافة في سوريا ثم بحث بعض العادات من رشق الحجارة على البيوت ليلا وما يرافقها من مختلف الادعاءات او رش المياه على الطرق للسابلة او حالة الخانات في ذلك العهد او غير ذلك من المظاهر الاجتماعية •

ويمكن الركون الى بحث حالة الدفاع في سوريا في ذلك العهد •

وعليه فان درس هذا القسم من الرحلة اهميته الخاصة واذا طابقنا مشهورات الرحاليين الاخرين المذكورين اعلاه فيمكننا تكوين فكرة واضحة ليس فقط عن مختلف مظاهر الحياة والتفكير في الشرق الادنى في ذلك العهد الذى بدأ فيه يتطور مصير الشرق في عواصم اوربا بل عن مختلف الاوضاع الاوربية والحركات الاستطلاعية التي اوصلتنا الى ما نحن عليه اليوم في هذا الشرق • ولذا فانني اعتقد جازما ان من واجب كل مهتم الاطلاع على هذا الكتاب او على امثاله ليكون له فكرة نيرة عن نواحي العمل لمصلحة هذه البلاد في المستقبل • وليس افضل من مطالعة هذا الماضي القريب لتبين معالم المستقبل القريب او البعيد •

٥) — الخلاصة :

(١) ان اجماع دوائر المعارف المذكورة في هذا البحث على ان دومنقو بادية اى لابلتش هو اسم العباسي الاصلي يدعو ان فيه تسرعا او ميلا الى الاخذ الاختصار على الاقل لان لهجة كريوس الجارية في ان اسمه الحقيقي هو باشو نوس تحتاج الى بحث الا اذا كان لديها مصادر اوضح •

.../...

(٢و٣) اميل الى الاعتقاد بان العباسي فوق صفته العلمية في رحلته عمل لمصلحة دولة اوروبية غير انني لا استطيع الجزم كما ورد في دائرة المعارف الاميركية انه كان عميلا فرنسيا فحسب • لاسيما وان دائرة المعارف البريطانية عدلت في طبعتها سنة ١٩٤٤ لهجتها الجازمة في الطبعه الحادية عشرة واكتفت بذكرها لفظة "ويقال انه كان عميلا سياسيا" •••

(٤) — ان قيمة الرحلة تختلف اليوم عنها في وقت صدورها فهي لم تعد طريفة في معلوماتها الغربية بل هي سجل يمكن العودة اليه لبعض الحاجات التاريخية عن حركة الاستطلاع الغربية او الاحداث والعادات العربية •

الفصل الخامس عشر(١)

في طريق اورشليم — غزة — يافا — الرملة — غادرة الشيخين — دخول اورشليم

+++

الاحد في ١٢ صفر:

اخذت القافلة بمحاذاة الشاطئ ، واتجاهها شرقيا ، عند الساعة الرابعة صباحا ، ثم حطت الرحال بعد ساعتين بين دخيل العريش (٢) على مسافة قصيرة من القرية .

العريش قصبة تشبه قصبات مراكش ، الا ان تلعتها ربما من وهن موقعها قد بناها الفرنسيون (٣) وزودها بالابراج المشرفة للدفاعية . فيذكرنا انها عشر مدفعا . يحيط بهذه القصبة عدد من البيوت . وهي كما طمت تضم مائتي نسمة . فيها بعض الابار واشجار النخيل وبساتين البقول .

كان جوي في حسن مستعرها يبشر بالظلم دون طلق .

بلغت درجة الحرارة في الشمس عند الثانية عشرة والنصف ٥٣° ٧ فهرنهيت(٥) مما يدل على ان الحرارة ارتفعت الى ثلثي درجة قبيل الظهر . وقد بلغت في الظل ظهرا ٥ ° ٤٣

يقدر عدد الاهلين في قضاء العريش بالفي نسمة .

الاثنين في ١٣ صفر:

استأنفنا سيرنا عند الثانية صباحا وما زلنا نجتاز شرقا ، وسرعان ما لاحت لنا قرية صالحة للزراعة وارضها مزروعة [بالشعير] عليها قطعان البقر وغيرها من الدواب ، وهي من القرى الرملية على العموم . بعد مسير ست ساعات توقفنا بالقرب من مزار يكرمون فيه احد الاولياء اسمه الشيخ زويد ، هنا بعض المياه وعدد من القرى — الديار —(٦) تكتنفها غرسات النخيل وقد خف لاستقبالنا بعض الاهلين يحملون البطيخ للبيع .

ثم تابعنا طريقنا في الاتجاه ذاته عند الحادية عشرة والنصف فانصرفنا عن الدرب واجتزنا في بعض الطلال الى الجنوب الشرقي . الارض (هنا) مزروعة وهي (خليط) من التربة الزراعية ومن الرمال وقد كان عليها بعض قطعان الماشية . لاحظت بعض الحقول التي تحدها بقايا [illegible] اتصل بي من البعد ان هذه جدار الجرار ، غير اني اظن ان ذلك من صنع البدو .

بعد ان درنا الى الشمال الشرقي ثم الى الشمال اتحدرنا الى السهل وضربنا خيامنا في خان يونس (٧) بعيد الخاصة مساء • تقدر المسافة عادة من الشيخ زويد الى خان يونس بأربع ساعات في خط مستقيم •

خان يونس بلدة تحيط بها الاسوار والحدائق في نقطة ممتازة على مسافة وجيزة من البحر وهي المكان الاول المأهول عند دخول سوريا (٨) من الجنوب •

الصلاة في ١٤ تموز :

انطلقت القافلة عند الرابعة صباحا باتجاه شمالي شرقي على العموم في قطاعات آفاق وارضها مزروعة • عند السابعة صرفنا وادي الباشا تحرف بوادي غزة ومنها اتجهنا بسلام من اجتياز الصحراء •

غـــزة (٩) بلدة عظيمة وهي مقعدة الاوقاف على رابية يحيط بها عدد كبير من الحدائق يقدر سكانها بخمسة آلاف • شوارعها ضيقة للغاية وبيوتها التي تجاور معظمها الحدائق خالية كلها تقريبا من النوافذ • يظهر ان السرايا او مركز الحاكم عظيمة وكذلك الحديقة التابعة لها • اما المحكمة وهي ايضا مسكن القاضي ، فهي صرح فسيح • تكثر في هذه الناحية الحجارة الكلسية او الرخام المخين الحبيبية ذو اللون الابيض البديع الذي بنيت به عمارات غزة الرئيسية •

في هذه البلدة عدة جوامع ، اكبرها كان كنيسة يونانية بهية المنظر قديمة . زاد الاتراك عليها بضعة ابنية غير انها اتت سقيمة الذوق لا تتساوق مع الباقي •

اسواق البلدة عامرة بموادها الغذائية بخسة الثمن • فيها عدد من الحوانيت للبضائع الاخرى غير انها لا تعطي فكرة ممتازة عن تجارة البلدة •

تؤخذ المياه من الابار وهي عذبة صافية • الخبز على العموم ردي غير انه من الممكن الحصول على الجيد منه • اما اللحم والفراخ والبقول والخضر فهي من النوع الممتاز •

.../...

هناك عدد كبير من البساتين غير انها كما بدا لي من النتاج الادنى والبغال على خلاف ذلك تفضلها في النوع وتتوسع عليها في العدد .

السكان خليط من العرب والاتراك . ويفضل مركزها على طرف الصحراء فانك تجد في غزة عربا من مختلف انحاء العربية من مصر وسوريا فمنهم الفلاحون ومنهم البدو الخ .... وهم يتمايزون بايزاتهم طبقا لتخالف جنسياتهم .

قليلا ما تيسر لي رؤية امرأة في غزة . فهن متحفظات اكثر منهن في مصر وفي العربية . ومع هذا فان الامراض الزهرية شائعة في الناحية . فقد اتاني الكثيرون يسألونني عن دواء لذلك الداء العاني .

يحكم البلدة آغا تركي قد سلطته حتى خان يونس وغيرها من الامكنة وهو يتبع آغا يافا الذي يتبع بدوره والي عكا . كان الحاكم آنئذ تركيا فارع القامة يدعى مصطفى آغا وهو حسن الخلق وقد بالغ في اكرامي . فاعطاني مسكنا مختارا وامر خدمه بان يتزودوني بجميع ما احتاج اوما يمكن ان اتشهّى . وكان يتحفني بثلاث وجبات كبرى كل يوم . كان تحت امرة هذا الآغا عدد من الجند الاتراك واكثر من الف مغربي .

الطقس حار في غزة وكثيرا ما لاحظت ان ميزان الحرارة يبلغ في الظل ٣٧ ٤٧ م في الظهيرة . ويبعد البحر نصف فرسخ عن البلدة . ويبعد القدس عنها مرحلة يومين طويلين يافا يوما ونصف اليوم .

توقفت عدة ايام في غزة لتتم شفاء جرحي وكان قد التأم عندما غادرت غزة في التاسع عشر من تموز عند الخامسة والنصف صباحا .

غادرتها دون القافلة وبعد الوف الصفحات بين الحدائق وحقول النباتين استغرقت ساعة ونصفا وجدت نفسي في الفلاة فاخذت وجهة شرقية بانحراف شمالي شرقي .

.../...

عند الثامنة صباحا توقفت لتناول الفطور في قرية بعد ان اجتزت جسرا صغيرا وانطلقت ثانية بعد نصف ساعة متوجها الى الشمال الشرقي تارة والشمال طورا . وفي العاشرة مررت بقرية (١) وبعد الواحدة والنصف توقفت في زرود (١٢) وهي قرية اكبر بقليل من السابقة جميع القرى على هذه الطريق قائمة على المرتفعات اما المساكن فهي منخفضة للغاية . يغطيها القش ويحيط بها المغروسات وحدائق البقول الممتازة .

ما اغرب ما كان هذا الضرب من الارتحال عندى . اذا طالما عودت قطع الفيافي ضعيفة القوائل الضخمة . أجل انني لأعجز عن التعبير عما شعرت به في ذلك اليوم ولم يرافقني غير ثلاثة من الخدم مع عبد وثلاثة من الابل وبغلين وحمار وعندى تركي واحد للحماية . كذا وجدتني اخيرا في الارض المزروعة . كنت اجتاز التوالي القرى والمزارع العامرة واسرح طرفي بحبور بين المزروعات المنتظمة . ٤٠ فيقع كل لحظة على بشر فرساما ومشاة كلهم تقريبا حسن الهندام . حتى شعرت كأنني في اوربا . ولكن بالله اى طعم مارجته بعض البهارج بتلك الاحاسيس اللذيذة . أجل ستبقى تلك الاحاسيس ملك يدى لانها فعلت في نفسي . عند العبور الى تلك المنطقة التي يتدارحول حدودها [شيخ] الملكية الخاصة ينقبض القلب ويصفر . فلا يسعني لي اجالسة الطرف او تقديم الخطا دون الاصطدام بحاجز كأنه يقول لي : " قف مكانك " لا تتعد هذه الحدود " . لا مشاحة ان المجتمع خير عظيم ولا شك في ان من نعم الانسان ان يعيش في ظل حكومة منتظمة تحقق بالمجموع الحكيم الى السلطة العامة التمتع باطمئنان بالملكية الخاصة . غير انه يبدو لي ان جمع ما نفيده في مجال الطمأنينة خسارة في مجال النشاط .

ان البر الذى اجتزته هذا النهار يتألف من تلال يغطيها شجر الزيتون ومزارع التبغ التي كانت براعمها في زهرة التفتح .

.../...

الاثنين في عشرين تموز :

انطلقت في الساعة الواحدة والنصف صباحا متجها نحو شمال الشمال الشرقي والشمال الشرقي بعد فترة وجيزة التقيت بقافلة محملة صابونا وتبغا وقهوجية من نابلس (١٣) الى القاهرة .

مررنا ببيسه (١٤) قبيل الخامسة . وهي قرية اضخم من القرى التي رأيتها في اليوم السابق . شاهدت فيها عددا وافرا من النساء بعضهن فائقات الجمال وجميعهن سافرات . فاستعلمت عما اذا كنّ من المسيحيات فاجبن بانهن مسلمات وبان القريات في هذه الناحية لا يغطين وجوههن .

ثم تابعت سيري من هناك فتوغلت في التلال المحرجة حيث توقفت ساعة ونصفا لتناول الفطور . بعد ذلك انحرفت الى الشمال الغربي ودخلت بلدة يافا عند العاشرة .

ان بلاد فلسطين او أرض الميعاد التي كنت اشاهدها من خان يونس الى يافا كلها جميلة . وهي تتألف من تلال صغيرة متدرجة ذات تربة غنية اشبه برواسب النيل . يغطيها نبات من اغنى واريس ما رأيت . غير ان الامطار محدودة في هذه الناحية حتى انك لا تلقى ضحا فيها . ان جميع المجاري التي اجتزتها كانت يابسة وليس لدى الاهالي من مياه للشرب غير تلك التي يجمعونها في فصل الشتاء . وليس لديهم من وسيلة للسقاية غير الامطار او مياه الابار . والاخيرة نادرة فعلا . ذلك كان سبب المجاعات المتواترة التي دونها التاريخ عن هذه الامكنة (٥) ان ارضا لا نهر فيها ولا عين يحمل المياه اليها من البلدان الاخرى وتعتمد في حاجتها الى المياه على ما يسقط من الامطار فتصبح تتعرض حتما الى المجاعة عندما تحبس هذه النعمة عنها او عندما تنزل بها لا بغي .

ومما يجدر ملاحظته ان جميع الامكنة المأهولة التي شاهدتها في بلاد العرب تقع في الاودية او المنخفضات . اما في فلسطين فالحالة على عكس ذلك فجميع البلدان والقرى قائمة على التلال او المرتفعات . وقد يكون مردّ هذا التباين الى قلة الامطار في البلاد العربية وغزارتها في فلسطين .

.../...

ان المسافر في سوريا يشاهد على مسافات معينة من طريقه بعض الاوعية او الاوانية المطلية ما ، بقربها قصب لاستعمال السابلة عندما يكونون عطاشى . هذه الاقاريض بنيت على اسس البر ، لان السبيل فيران البر لم يعد يعتني بالمحافظة عليها . الصيد وافر في فلسطين فالحجل كبير الاسراب ، سمين وثقيل حتى انك لا تحتاج من السلاح غير العصا للقبض عليه . ويلقى في الوقت ذاته عددا هائلا من السقليات والحيات والافاعي والعقارب وغيرها من الحشرات السامة . ولقد لسع احد خدمي في اصبعه واذ لم يتمكن من افادتي عن نوع الزحافة [اللاسعة] فلم اتمكن من استعمال الترياق المناسب . غير اني وجدت ان خالته تستدعي الاهتمام العاجل اذ ان الورم كان يتزايد بسرعة في يده فلجأت الى الترياق العام بوضع النار على الجرح .

ارجال الذباب من مختلف انواعه تكثر في هذه البلاد الى درجة كادت تجن منها الابل والبراذين والحمير . فكانت تتمرغ على الارض ، وبين العويج للتخلص منها

واذا أقول عن النمال ؟ ليتصور القارئ قرية لها فسيحة تمتد على الارض مسافة ثلاثة اميال فيمكنه ان يأخذ فكرة ما عما رأيته بالضبط . الطريق قرية للنمال يغطيها كلها بيض هذه الحيوانات الصغرى وبقاياها وعليها ترى رواح النمال تروح وتجيء في مختلف الاتجاهات سعيا وراء مشاغلها اليومية (١٧) .

وان أنس فلا أنس ذكر عسقلان (١٨) وهي احدى القرى المختلفة التي رأيتها في اليوم السابق على مسافة وجيزة من الطريق . وهي عسقط رأس هيرودس الشهير (١٩) .

واذ كنت على شيء من الانزعاج بسبب جرحي رأيت الاعصبان ارتاح الثلاثاء في الحادي والعشرين . غير انه سرعان ما ارتاح بالي من هذه الناحية لان القشرة انفصلت من تلقاء نفسها ووجدت ان جلدا جديدا تكامل تكوينه واذا عزمت على متابعة طريقي الى القدس في اليوم التالي اذ غنى ضياع هذا الوقت الطويل .

.../...

وليسه غادرت يافا يوم الاربعا "في الثاني والعشرين من تموز عند الساعة الثانية بعد الظهر متجها نحو الجنوب الشرقي وحتى الجنوب الشرقي . عند الثالثة مررت بقرية تدعى ناتوف (٢٠) وتجاوزت عددا من القرى غيرها يمنة ويسارا حتى وصلت الرملة عند الخامسة مسا" .

كنت على جوادي والخدم والدليل كانوا على بغالهم فاتضح لي ان سيرنا كان اسرع بكثير من سير القوافل لاننا كنا نقطع على ما اعتقد فرسخا في الساعة (٢١) .

كانت البلاد التي اجتزناها تتألف من تلال صغرى آخذ بعضها بأطراف البعض تغطيها اشجار الزيتون ومزارع التبغ وغيرها .

الرملة ويدعوها المسيحيون بالرامة (٢٢) هي بلدة تضم نحو ألفي اسرة اما جامعها الكبير فهو كنيسة رومية قديمة . عمارته غاربة في العلو بديعة الشكل ولا تزال في حالة حسنة .

بتّ ليلتي في جامع طويف طريف من ضريح ايوب باي المملوك الذي هرب من مصر عند وصول الفرنسيين اليها . وتتدلى هنا والضريح من المرمر الابيض الجميل طيه نقوش بارزة دون مستوى سطح المرمر . وهي مطلية بالذهب . المالاقا التركي الذي تقدم لزيارتي فقد ظهر انه رجل مختار .

واصلت سيري عند التاسعة من المسا "ذاته واذ كنت مارا بالمدينة صادفت حشدا من الرجال والنسا "مجتمعين في ضحه ضيقها الشاغل ولهب النيران يرقصون ويغنون على صوت آلات (الطرب) وقد ادهشني للغاية النسا "الجميلات في هذه المدينة المسلمة .

عند خروجي من البلدة توغلت بين الجبال حيث كان لا بدّ من تسلق الصخور الشاهقة التي لم يشق فيها درب بعد . وما ان بلغنا الاربع عند الثانية والنصف صباحا حتى لفنا سحاب من الغيم والضباب كان من شدة التعريشر امامنا الوهاد المحيطة باعالينا المهائلة فتعذر لنا عندئذ سيرنا وأوقفنا .

.../...

سرت فارتا بالتأثر ماخوذا بهذا المشهد البديع ، الدليل يتقدمني والخدم ورائي على مسافة وجيزة ففاجأنا شيخان (٢٣) اوقفا الدليل . وأوقع هذا الظهور الطاجي في نفسي أثرًا اعجز عن تحليله . اما الدليل الذي كان يعرفهما فقد بادر الى اعلامهما باننا مسلمون . فاجاب الشيخان "كلا ، بل هم نصارى" فردّ الدليل بحدّه : "انهم لمسلمون جميعا" فتقدم احد الشيخين على الآخر واسمك باسم حساني وقال : "انت نصراني" فصرخ الدليل والخدم : "هو مسلم من خيار المؤمنين" ولم ادر ما افعل لاعني لم اتفق على مولياهما وبدا لي ان سلوكهما فيه كثير من التطرف . فاردّ الشيخ الاول يقول : "والله انك لنصراني" فاجبت : "يا رجل اني مسلم باسم الشريف العباسي ، وها انني اعود حديثا من الحج في مكة ." عندئذ طلب اليّ بيان معتقدي فردّدته لارضائه . وطلبه تركانا وشأننا عواصل رحلتنا . ولكن ما هو الداعي الى تعنت هذا الشيخ باعتباري نصرانيا دون ان يرى لي وجها او يسمع صوتا ؟ كان ذلك ناجما عن ارتدائي البرنس الازرق (٢٤) وفي هذه البلاد يرتدي النصارى وحدهم هذا اللون . ومع هذا فما الداعي الى هذه المهاجمة في هذا المكان وفي هذا الظرف غير المناسب ؟ فالجواب على هذا هو ان النصارى واليهود الذاهبين الى القدس يدفعون في هذا المكان جزية مقدارها خمسة عشر قرشا عن كل فرد تعود الى سلطان الاستانة . وقد ضمن هذان الشيخان تلك الضريبة وبما ان هذا المكان الذي لا يبعد كثيرا عن القرية هو الممر الجبلي الوحيد الذي يضطر المسافرون لاجتيازه في طريقهم فهما يتربصان هنا دوما للنصارى واليهود ليحولوا دون تملص هؤلاء من دفع الضريبة . وبعد ان حللنا اللغز كان ذلك المشهد الهزلي قد فاجأ الشيخين مدعاة لحبورنا فيما بقي من الليل

وبلغنا عند الرابعة صباحا الى قرية العنب (٢٥) وهي قرية صغيرة على سفح الجبل تحيط بها الكروم التي لا تحصى. بعد استراحة نصف ساعة تابعنا سيرنا على سفح شديد الانحدار والمخاطر وعند وصولنا الى قعر الوادي اضطررنا تارة الى تسلق جبال اخرى اكثر ارتفاعا من الاولى وتظهر اورشليم من قمم هذه الجبال فدخلتها عند الساعة الا ربعا من صباح الخميس في الثالث والعشرين من تموز سنة ١٨٠٧

وقد قدمتنا وعورة الطريق من السير اكثر من ميلين في الساعة .

كان المسكن المعين لي مسجدا لاحد الاولياء اسمه "سيدي عبد القادر" وهو قائم بالقرب من الحرم او المعبد الاسلامي فذهبت تواً الى الفراش ونمت حتى الثالثة بعد الظهر وبعد ذلك قادني احدهم الى الهيكل (الحرم) .

الفصل السادس عشر

الحرم او المسجد الاسلامي مكان هيكل سليمان القديم - ساحة الاقصى - صخرة الله - محكمة داود - القبب - عرش سليمان - باقي مساجد الحرم

سأحاول فيما يلي اعطاء فكرة ما عن مسجد (١) المسلمين في القدس . وهو لم يوصف حتى الآن وصفا مفصلا (٢) وذلك نظرا لعدم تمكين المسلمين لهذه المهمة ثم لكون النصارى لا يسمح لهم بدخوله ! مع ان هذا النصح الضخم يقضي ان يثير فضول المتعلمين من يهود ونصارى ومسلمين .

غير انه لا بدّ من القول بوصفي خدمة للحقيقة . ان وفقي سمح لي بزيارة المسجد خمس مرات فحسب . وكانت هذه الزيارات على كل حال طويلة فافدت منها بطريقة تمكني من التأكيد بان اوصافي ورسومي صحيحة دون ان ادعي مع هذا الدقة الهندسية في جميع التفاصيل .

الحرم او الهيكل يدعى ايضا " البيت المقدس الشريف " او البيت المقدس الرئيسي في اورشليم هو مجموعة من" لفة من عدة ابنية اقيمت في صدور الاسلام المختلفة وهي تحمل البراهين الواضحة عن الذوق السيطر في مختلف العصور التي اقيمت فيها . ومع هذا فانها تو" لف وحدة تامة التناسق (٣) .

وهو ليس بالضبط جامعا واحدا بل مجموعة من المساجد اما التسمية العربية (بالحرم) فانها تعني بالتحقيق المعبد او المكان المكرس بالحضرة الالهية خاصة فحرم دخوله على النجسين وغير المؤمنين . لا تعترف الديانة الاسلامية بغير مسجدين مسجد مكه ومسجد القدس ، وكلاهما يعرف بالحرم . وكلاهما يحرم الشرع دخوله على النصارى واليهود وعلى اى شخص اخر ان لم يكن مسلما . تدعى المساجد بالعربية الجوامع او المكنسة الاجتماع . وهي اماكن محترمة ولا شك ، الا انها غير مكرسة بالحضرة الالهية خاصة . ولا يحرم دخول غير المؤمنين اليها في العصور الحالية غير ان الشعب لا يرضى عن رؤية الاجانب فيها . كما انه لا يجوز لهم" دخولها الا بموجب امر من السلطة العامة . فالنصارى في الاستانة

يدخلون جامع القدس صرفيا وغيره من الجوامع بفرمان تعطيهم اياه الحكومة غير انه لا يجرؤ اى وال من ولاة المسلمين على اعطاء اذن لغير المؤمنين بتخطي اراضي مكة او مسجد القدس . ان اذنا من هذا النوع يعتبر انتهاكا شنيعا لحرمة المسجدين فلا يصدع له الشعب ويمسي غير المؤمن ضحية تحميه الجريمة (٤) .

يقع لف هذا الصرح الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة القدس . ويقوم على المكان الذى كان يشغله قديما هيكل سليمان !

ويقيس هيكل اليهود القديم وفقا للرواية الاسلامية ٧٥٠ ذراعا اسطوليا في طوله و٤٥٠ في عرضه . او ما يعادل ١٥٦٣ قدما و٣ قراريط طولا (المقياس المترى و٤٣٨ قدما و٣ قراريط عرضا . يتألف المعبد الجديد من فسحة دار واسعة مساحة داخلية يبلغ طولها ١٣٦٩ قدما وعرضها ٨٤٥ قدما (٥) .

يمكن دخول الحرم من تسعة ابواب هذه اسماؤها ومواقعها :

باب المغاربة
" السلسلة
" القطانين — الى الغرب
" الحديد
" المطهرة
" الغوانمة — الى الزاوية الشمالية الغربية
" الحطة
" الاسباط (٦) — الى الشمال

لكل من بابي السلسلة والقطانين قنطرتان :

والجهتان الشرقية والجنوبية خاليتان من الابواب وهما مقفلتان بجدار الحديقة الذى يقوم خارجا على شفير مهاوى قدرون (٧) من الشرق وعلى طرف الهاوية التي تفصل جبل صهيون الى الجنوب (٨) .

يتألف القسم الرئيسي من الحرم من مجموعتي من العمارات الفخمة اللتين يمكن اعتبارهما جامعين مستقلين باعتبار مؤسسيهما المتقابلين الا انهما يؤلفان معا وحدة متماسكة متماسكة . يدعى احدهما الاقصى والاخر الصخرة .

الاقصـــــــى (٩) :

يتألف الاقصى من سبعة صحون قائمة على ركائز واعمدة وتقوم فوق الصحن الوسطي قبة بديعة . ثم يتفرع صحنان آخران يمنة ويسارا على زاوية قائمة مع جسم الصحن الرئيسي .

امام هذا الجسم الرئيسي رواق واجهته سبع قناطر وخلفه قنطرة واحدة قائمة على ركائز مرتفعة . في القنطرة الوسطيه التي تقابل وسط الصحن اعمدة مضعفة لا صلة بالركائز .

يبلغ طول الصحن الوسطي الكبير في الاقصى /١٦٢/ قدما وعرضه /٣٢/ وهو يمتد من كل جهة على سبع قناطر متقدمة الرأس قليلا قائمة على ركائز اسطوانية في شكل اعمدة تتقصها القطب المهاويـــه . تيجان الركائز مزخرفة باشكال ورق العبات دون ان تنتمي الى نمط خاص . الركيزة الرابعة الى يمين الداخل مختلفة الشكل زائدة الكثافة . وهي تدعى ركيزة سيدى عمر . يبلغ قطر الركائز الاسطوانية القدمين والنصف وطولها الستة عشر قدما مع الاساس والتيجان غير المنظمة والركيزة المشار اليها الخالية من التاج يبلغ قطرها على الستة الاقدام والنصف وهي تستوى في طول الركائز الباقيـة . وتعلو الجدران ثلاثة عشر قدما عن قمة القناطر وهي تشتمل على طبقتين من النوافذ في كل منهما احدى وعشرون نافذة . يمكن رؤية الطبقة العلوية من الخارج لان الصحن الوسطي اعلى من الصحون الستة الجانبية يمكن مشاهدة الطبقة السفلية من داخل الصحن الدعيا . السقف خشبي غير معقود .

الصحون الستة الجانبية مركزة على قناطر مساوية لقناطر الصحن الوسطي وهي قائمة على ركائز مربعة . يغطي الصحنين المجاورين للصحن الوسطي (سقف) خشبي مستريعلو قليلا عن الصحون الاربعة الطرفية ويغطي هذه الصحون الاخيرة سقوف معقودة مربعة ارمقوسة

اما الصحون الثلاثة الواقعة الى يسار الداخل فيلفها سور يبلغ طوه نحو سبعة اقدام . وهي المكان المخصص للنساء .

القبة قائمة على قناطر اربع كبيرة مستندة على اربع ركائز مربعة تزيد في حجم جوانبها المختلفه اعمدة بديعة من الرخام الاسمر . القبة كروية الشكل ولها طبقتان من النوافذ تزينها الزخارف العربية وتشي الذهب البهج قطرها يساوي قطر الصحن الوسطي

بين القبة وجدار الصحن الطرفي فسحه تتسع نحو سبعة اقدام وقد ركز عليها المنبر لخطبة الجمعة .

في الجدار عند نهاية الصحن المحراب وهو حنية يقوم فيها الامام لقيادة الصلاة تزينها واجهة رصعت بقطع مختلفه من المرمر الجميل واهم ما يلفت النظر فيها ستة اعمدة صغيرة من المرمر الاحمر والاخضر تزين المدخل تستند الصحون الجانبية المجاورة للقبة على اعمدة من المرمر الاسمر البديع من نوع الاعمدة التي ترتكز عليها القناطر الوسطيه . ويتألف الفرع الذي يفتح الى اليسار على زاوية قائمة مع قصر الصحن الوسطي من قبو بسيط منخفض يقال ان الخليفه عمر كان يصلي هنا . اما الفرع الذي يفتح الى اليمين فهو قد سماثل فيه صحنان . قد يبلغ طول قبو الخليفه عمر ٧٢ قدما ويبدو الاخر مساويا له في الطول الا انه كان مقفلا بحاجز خشبي ولذلك لم ادخله .

مكان المنشدين تحت القبة الى اليمين امام المنبر . وهو من الخشب يقوم على عدد من الركائز الصغيرة المزوجة من مختلف انواع المرمر .

الى جانب المنبر منصة تزين مدخلها المعالج الخشبية وتدعى مقام المسبح وهي لحفظ الالية المقدسة ويخرج منها الامام باحتفال مهيب لاقامة صلاة الجمعة .

في الصحن الاخير الى اليسار قرب صحن الخليفة صهريج اوصفية مزدان بالمرمر تدعى باب الرحمة .

في القسم الخارجي الى يسار الاقصى بيوت زوية البغا" تمتد الى الصوح وتستعمل مساكن الخدم الحرم .

امام باب الاقصى الرئيسي مباشرة /٢٨٤/ قدما يتوسطه حوض من المرمر له ناقورة تشبه الصدفة كانت الما" تدفق منها فيما مضى . في اخر المدرج بديع يصعدون عليه الى الصخرة وهي الصوح الاخير المعتبر في الحرم .

الصخـــــرة (٩)

الصخرة مسجد يمكن اعتباره في تساوي الاقصى قسما من الوحدة عينها وتسميته مستفادة من الصخرة القائمة في وسط الصوح والتي تحتل بالاكرام الفائق .

(مسجد) الصخرة قائم على هضبة اوسطح هوائي الاضلاع يبلغ طوله نحو ٤٦٠ قدما من الشمال الى الجنوب وعرضه /٣٣٦/ قدما من الشرق الى الغرب . وهو يحلو ستة عشر قدما عن مستوى الحرم العام . يصعدون اليه على ثماني ادراج ، اثنان منها في الناحية القبلية واثنان في الناحية الشمالية . واحد في الشرق وثلاثة الى الغرب . يرتفع صوح الصخرة الضخم عند متوسط هذه الفسحه البديعه التبليط . وهو مسجد مثمن الشكل تبلغ جوانبه الخارجية واحدا وستين قدما .

يمكن دخول الصخرة من اربعة ابواب هي الاتية :

باب القبلة — جنوبا

باب الغرب — غربا

باب الجنة — شمالا

باب داود — شرقا

.../...

لباب القبلة رواق بديع للغاية يقوم على ثماني وكائز من المرمر كورنثية النمط .
وتعلو الابواب الاخرى زخارف خشبية نفيسة متداخلة بدون أعمدة . ترتفع من وسط الصرح قبة كبيرة فخمة فيها طبقتان من النوافذ الكبرى التي يمكن رؤيتها من الخارج . وهي تستند على اربع وكائز كبرى واثني عشر عموداً فخما مصفوفة بشكل دائرة .

يحيط بالدائرة الوسطى صحنان متداخلان متعامدان يفصل ما بينهما ثماني وكائز وستة عشر عمودا تستوى في ارتفاعها وحجمها مع الاعمدة الوسطيه وهي من المرمر الاسمر الزاهي اما السقوف فهي مستوية مغطاة بمجوهرات وزخارف هي آية في الذوق مغالطها الفاريز من المرمر والذهب وغيرهما . عجان الاعمدة مغطى انماط هندسية مطلية بالذهب الكثيف . وقواعد الاعمدة التي تتألف منها الدائرة الوسطيه من النمط الاتيكي (Attic bases) اما الاعمدة الاخرى القائمة بين الصحون المتممة فهي مغطوسة عند اسفلها وعاطلة حتى من العصبه او الافريز الذى لا بد للعامود من الارتكاز عليه . وهي تستند على كعب من المرمر الابيض بدل القاعدة ويظهر ان الاعمدة هي من النمط الكورنثي في نسب مقاييسها . ويعلو بعضها ستة عشر قدما .

يبلغ قطر القبه نحو /٤٧/ قدما وطولها /٩٣/ ومجموع قطرها ٥٠٪ ١٥٩ قدما .

يرتفع سطح الدائرة الوسطيه ثلاثة أقدام عن مستوى الصحون المحيطة وبقربها حاجز حديدى فخم طلي بعضه بالذهب . تحتوى هذه الدائرة الوسطيه الصخرة المقدسة المعروفة بصخرة الله . وهي الهدف الرئيسي لهذا الصرح الفخم وهي من وجهة عامة هدف الحرم او معبد القدس .

يبرز حجر الصخرة (كذا) عن الارض بقطر معدّل له ٣٣ قدما في شكل يشبه قليلا الكرة . سطحه مجعّد خشن لم يسوّ على حالته الاصلية عند الجنب الشمالي ، تجويف يروى انه من عمل النصارى الذين بغوا اختطاف تلك القطعة من الصخرة فظل مكانها فارغا ثم توارت القطعة المقتطعة عن اعين الكفار . وقد عثر عليها المؤمنون فيما بعد مخلوقة قطعتين هما في الوقت الحاضر في امكنة اخرى من الحرم يأتي ذكرهما فيما بعد .

.../...

يعتقد المسلم ان صخرة الله هي بقعة الارض حيث صلاة البشر احب ما تكون الى العزة الالهية بالاضافة الى الكعبة وهي بيت الله في مكه . وبفضل هذا فان جميع الانبياء منذ خلق العالم حتى زمن النبي محمد قد قصدوا هذا المكان للصلاة . ولا يزال الانبياء والملائك الى هذا اليوم يؤمونه فرقا غير منظورة ليقيموا صلواتهم على الصخرة وذلك بقطع النظر عن الحجوم العادي العود لف من سبعين الفا من الملائكة الذين يحيطون بها دورا بيغيّرون كل يوم .

في الليلة التي اسرى بها الملاك جبريل بالنبي محمد من مكه الى القدس في طرفة عين فوق اطباق الهوا على الفرس المسرجة بالبراق والتي تحمل راس الحسناء وجيدها فضلا عن التاج والاجنحة . دخل النبي بعد ان ترك البراق على باب المعبد يؤدي الصلاة على الصخرة مع باقي الانبياء والملائكة . فحيوه باحترام وتنحوا له عن صدر المكان .

وفي اللحظة التي اطى فيها النبي الصخرة فرشت هذه بحملها المقدس فانضغطت وذبت كالشمع لينا فانطبعت على جبين جانبها الجنوبي الغربي اثر قدمه المقدسة وفي الوقت الحاضر فان هذا الاثر مغطى بما يشبه القفص من الاسلاك المعدنية المطلية بالذهب . وقد جعلت بشكل يحجب الاثر بسبب الظلمة الداخلية غير انه يمكن لمسه باليد من ثقب عمل لذلك . بعد فحص الاثر يشرع المؤمنون بالتبرك في امرار اليد على صفحة الوجه وعلى الذقن . داخل الصخرة كهف يهبط درجين اليه بدرج في الجهة الجنوبية الشرقية . وهو يكاد يكون مربعا ضلعه نحو الثمانية عشر قدما . ويبلغ علوه عند الوسط ثمانية اقدام . سقفه عقد طبيعي غير متناسب المقاييس وفي الجهة اليمنى من اسفل الدرج لوحة مرمرية كتب عليها " مقام سليمان " والى اليسار لوحة مماثلة تحمل اسم " مقام داود " والى الناحية الجنوبية الغربية من الصخرة حفية او تجويف يدعى " مقام ابراهيم " وفي الجهة الشمالية الغربية درجة مجوفة مستديرة تشبه طابعتها وتدعى " مقام جبريل " وهناك ما يشبه الخوان الحجري في الزاوية الشمالية الشرقية ويدعى " مقام الخضر او " مركز الياس " .

وفي اعلى الصخرة عند الوسط تماما فجوة تكاد تكون اسطوانية تمتد على مدى كثافة الصخرة . ويبلغ قطر هذه الفجوة الثلاثة الاقدام وهي تدعى " مقام النبي " .

يحيط بالصخرة على طول حافتها الخارجي • وعلى طول خمسة او ستة اقدام فوق الصخرة عمدت على الاعمدة والركائز اربكسة من المرمر المخطط بالاخضر والاحمر • وقد تبين لي من داخل القبو على الاخص ان الصخرة هي من المرمر الابيض الضارب الى الحمرة وفي ارض القبو نحو الشمال قطعة من ابدع المرمر الاخضر المجزع يبلغ سطحها نحو ١٥ قيراطا مربعا تشد ها الى الارض اربعة او خمسة مسامير مطلية بالذهب ، ويقال انها باب الجنة وفي الرخامة بضعة ثقوب اخرى مما يدل على انها كانت مسمرة بعدد اكبر من المسامير ، مما حمل على الظن بان ابليس اقتلعها عندما حاول دخول الفردوس ، فرده عن ذلك ما استحصى عليه من المسامير الباقية •

في الصخرة مغير للمشددين قائم على عدد من الاعمدة الصغيرة •

شاهدت هناك مصحفا يبلغ طول صفحاته اربعة اقدام وعرضها قدمين ونصفا • ويروى ان هذا المصحف كان للخليفة عمر ، غير اني رأيت مصحفا مثله في جامع الازهر الكبير في القاهرة • وآخر في مكة • ويعزى الى جميعها المصدر عينه • اما خارج الصخرة فانه مبلط بعدة انواع من المرمر حتى منتصف ارتفاعها والباقي مغطى بفسيفساء صغيرة او مربعات ذات الوان مختلفة في غاية الطرافة • في النوافذ الواح زجاجية بديعة الالوان مزينة بالزخارف العربية ، وفي كل جانب من جوانب الثمن خمس نوافذ كبرى •

الصخرة مصلى افراد المذهب الحنفي الذي يتبعه الاتراك • اما مذهبا المالكية والحنابلة فلهما امكنة اخرى معينة سنطلع اليها فيما بعد •

على بعد ثلاثة او اربع خطوات شرقا خارج سور الصخرة وامام باب داود محراب بديع للغاية • يعلو هذا المحراب سقف احد عشر الزوايا قائم على احد عشر عامودا قديما من الحجر الكلسي الأبيض على حمرة • وهو من الحجارة المنحوتة • في وسط المحراب قبة صغيرة فخمة قائمة على ستة اعمدة في وضع دائري يتعادل مع الوضع السابق تماما • وارى ان هذه الاعمدة هي من اعمدة الصخرة من بقايا هيكل سليمان القديم (١٠) وفي المحراب حفية للصلاة بين عامودين وهي مكان ذو كرامة خاصة لانه كما يقال موقع محكمة داود القديمة •

الى الشمال الغربي من الصخرة وعلى بعد ثلاث اواربع خطوات منها محراب آخر صغير جدا لنحو من ستة اصبع تعلوه قبة تدعى قبة جبريل . والى الغرب قبة اكبر منها قائمة على ثمانية اعمدة تدعى قبة المعراج اوقبة النبي . والى الشمال الغربي من هذه الاخيرة قبة به . وهي عبارة عن حجرة مربعة صغيرة تحتضن احدى الفلقتين اللتين انقطعتهما النصارى من الصخرة فتواريا عن ابصارهم . وهناك قبة اخرى صغيرة على مسافة وجيزة من شمال قبة جبريل . وهي مركزة على ستة اعمدة وتدعى قبة الارواح . ثم هناك قبة اخرى الى الشمال الغربي من احدى الزوايا المواجهة للدرج . وهي سداسية الاعمدة وتدعى قبة الخضر او الياس .

عند الزاوية الجنوبية الغربية من قمة الصخرة المرتفعة مستودع نحو من ثلاث اوارب غرف يحفظ فيه الزيت لمصابيح الحرم .

بين هذا المستودع ودرج الصخرة الرئيسي الصاعد من الاقصى يقوم المنبر او منصة الخطيب ايام الاضحى . ولهذا الاثر اهمية خاصة بسبب وفرة الاعمدة القديمة الصغيرة التي تزينه .

بين المنبر والدرج الرئيسي حنيه يحتلها الامام لقيادة الصلاة ايام الاضحى وبين المنبر والمستودع سقيفة مركزة على عمودين صغيرين تدعى مقام عيسى .

الى الجانب الغربي من قمة الصخرة مخدعان يعتقد فيهما الفقيهان المطيقان في علم الشرع مجالس الاستشارة العامة .

الى الناحية الشمالية خمس مخادع صغيرة يتقدم كلا منها واجهة ذات ثلاث قناطر صغرى . وهي مسكن التلامذة القراء يقضون فيها حياة زاهدة التقشف مشغلين دوما بالقراءة والتأمل .

.../...

بيوت الخلاء الى الجانب الشرقي وفي ما بقي من الغصة ترى الاطراف العليا لعدد من الصهاريج .

سبق ولاحظت ان هناك فتحة سلالم تؤدي الى غصة الصخرة . فالقسم الاعلى من كل من السلمين الجنوبيين تتوجه واجهة مستقلة ذات اربع قناطر قائمة على ركائز وأعمدة اما واجهة السلم الشرقي فانها تستند على خمس قناطر . وتتبع كلا من السلمين الشماليين ثلاث قناطر . وتتبع اربع قناطر كلا من السلمين الغربيين اما السلم الثالث في هذه الجهة وهو القريب من مستودع الزيت فانه خال من الزين .

يعتقدون أن الواجهة ذات الاربع القناطر التي تتبع الدرج الرئيسي المؤدي الى القدس هي المكان الذي وكزفيه الميزان الابدي غير المنظور به توزن اعمال البشر من صالحة او طالحة يوم الدين كما يعتقدون .

يحيط بغصة الصخرة كلها سور صغير .

هناك بعض المخادع الصغيرة الملصقة بخارج الغصة من الناحيتين الشمالية والغربية . يسكن هذه المخادع العمال المكلفون بخدمة المسجد .

باقي ابنية المسجد

في الجانب الشرقي من الساحة وعلى بعد الحقت بوسط السور الذي يلف المدينة . يبلغ طول الروضة نحو ٢١ قدما طولا و١٤ قدما عرضا . ويغطي ارضها عدد من الاكسية المتطلقة الالوان . ويروى ان عرش سليمان اقيم في هذا المكان .

خارج جدار الروضة الجنوبي بوابة من المرمر تحمل اسم باب الرحمة .

.../...

في غاية السور الشرقي الى جنوبي عرش سليمان درج ضيق لاصق بالجدار يؤدي الى شبه نافذة مقبوة قطبي طولها . وفي هذا المكان قطعة عمود مائلة على جانبها وهي تعد جزئيا فوق مهوى وادي قدرون العميق قبالة جبل الطور او جبل الزيتون . يظن ان هذا هو موقع السراط او الجسر الذي لا يرى . وهو احد بكثير من نصل السيف يجتاز المؤمنون بسرعة البرق عند دخول الفردوس . اما الكفار الذين يحاولون اجتيازه فانهم يسقطون في اعماق هوة الجحيم التي لا قعر لها . وهي تحت الجسر . وفي هذا المكان واجهة صغرى قائمة اوبالاحرى فانها حنية مخصصة بالصلاة .

والزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم الكبرى يحتلها جامع مؤلف من طبقتين من القناطر في كل منها سبع قناطر مستندة على ركائز مربعة . وفي هذا الموقع كان اتباع المذهب الحنبلي يصلون .

على مسافة قصيرة من صخرة الصخرة شمالا مسجد صغير تغطيه قبة وهو يضم الفلكة القائمة التي اقتطعها العصاري من الصخرة .

موقع السرايا خارج المسجد الى الجهة الشمالية . وهي مركز حاكم القدس وهي ملاصقة لجدار المسجد وفيها عوافد تطل على فسحة الدار الكبرى .

وهناك جامع ذو صحن واحد الى الطبقة الغربية من هذه الدار وقرب الزاوية الشمالية الغربية . وهو مصلى المغاربة او مصلى الغرب . ويتألف من قبة واحد مستدق الرأس . يبلغ قوسه عشرة اقدام وطوله ثلاثين على وجه التقريب .

يمتد الى الجنوب خط طويل من القناطر القائمة على القواعد العريضة وهناك بعض المساكن والاروقة فوق القناطر . وقد كانت دار القدس تشغلها اما الان فانها مهجورة تماما .

.../...

وهناك جامع آخر تحت هذه الارقعة يتألف من اثنية مربعة او مستديرة تحيط بركنين كبيرتين في الوسط . وهو اليوم مصلى الحنابلة . وكان الامام والمؤذن وحيدين في ساعات الصلاة اليومية لانه انشأ في القدس لم يوجد احد من اتباع المذهب الحنبلي فيها .

في معبد داخل الجامع ضريح ولي يدعى " سيدي محمد الخليلي " ويحتفظ بالاكرام الزائد . واذا تقدمنا نحو الجهة الغربية من فسحة الدار نصل الى منزل مقفل بالقفال فيه درج يؤدي الى نقد تحت الارض سطحه خمسة عشر قدما مربعا تقريبا . في هذا المكان ترجل النبي من البراق عند وصوله من مكة في ليلة واحدة . وهناك حلقة حديد مثبتة في الجدار يربط النبي بها فرسه السماوية قبل ان يدخل المسجد ليصلي مع الملائكة والانبياء .

هذا المكان الذي اسس تحت الارض كان في السابق بابا من ابواب المسجد لان القسم الاعلى من البوابة الشمالية لا يزال ماثلا للعيان . والشق الاعلى من هذا القسم حجرة وحيد يبلغ طوله العشرين قدما . ويظن البعض ان سقف القبو حجر واحد . الا اني تمكنت من تبين مفاصل الحجارة بوضوح .

المحكمة خارج الحرم مقابل الساحة وهي قائمة بين جامع المذهب الحنبلي وثقة البراق .

الى الطرف الجنوبي من جهة الساحة الغربية جامع متواز مع الاقصى ومساو له في الطول غير انه مؤلف من صحن واحد وبناء قليل الارتفاع وهو اشبه بمخزن مستطيل . هذا يصلي اتباع المذهب المالكي . ورغما من كون الصخرة مصلى الحنفيين والاقصى مصلى الشافعيين وامكنة اخرى اسلفنا ذكرها للمذهبين الاخيرين الا ان القسم الاكبر من اتباع مختلف المذاهب يصلون في الاقصى حيث تقام الخطبة وصلوات الجمعة .

.../...

في الفسحة الثالثة ما بين الجهة الغربية من دار الصخرة والاقصى بعض المصطبات العريضة التي تصعد من القدمين الى الثالثة عن سطح الدار وهي مبلطة بالرخام البديع وتلقى عليها الخطب ولكل منها حنية للامام الذي يقود الصلاة .

عند الزاوية الغربية الجنوبية من فسحة الصخرة الكبرى مصطبة مرتفعة قليلا عن قبة موسى .

وهناك عدد من الصهاريج في الساحة بين المصلات . تطاوعت الزمن على حفرها العربية من اصدة وقرب . تحفظ مياه المطر في هذه الصهاريج ليوزعها السقاة على الجمهور .

ومما يوجد فيه ان تحت الاقصى فراغ كبير يمكن الانحدار اليه بدرج قريب من الباب الرئيسي .

وفوق الحرم اربعة ابراج اومآذن . ففي زاوية الساحة الجنوبية الغربية مأذنة وعند متوسط الجهة الجنوبية مأذنة اخرى . وعند الزاوية الشمالية الغربية ثالثة . والرابعة الى زاوية الساحة عند الشمال الشرقي .

الفصل السابع عشر

زيارة المسجد — التوجه الى ضريح داود وغيره من الاضرحة — التوجه الى جبل الزيتون — الى ضريح ابرهيم في حبرون — الى حقل الصبح في بيت لحم — الى ضريح العـــــذرا — الى الجلجلة وضلع الصبح — كنيس اليهود — وصف اورشليم

+ + +

اول ما يصل الحاج المسلم الى القدس يبدأ بزيارة المسجد او الحرم الذي وصفناه آنفا • ثم يتوجه الى الاماكن المقدسة الاخرى وفقا للترتيب التالي :

عندما يدخل الحاج الى المسجد يوجه الى الصرح المعروف بعرش سليمان مارا بالساحة هذا يطوصلاة ويجوز امام الواجهة المعروفة بباب الرحمه يتصدق على اثرها بقليل من الدراهم لشخص ينتظر هناك • وهي صدقة مخصصة بشيخ الحرم •

ومنها يتوجه الحاج الى المكان المدعو بالسراط فيتسلق الدرج يطوصلاة امام واجهة صغرى ثم يشرح له عن واقع الجسر العجيب عند ذلك يوزع دفعة اخرى من الصدقات •

بعد ان يجتاز الساحة يدخل الاقصى من الباب الجانبي يطوصلاة قرب القبة الرئيسية واخرى في جامع الصرح المعروف بسيدنا عمر وقائمة امام الواجهة المدعوة كالسابقه بباب الرحمة •

ثم يتوجه الى الصخرة مارا بالنفق فيتسلق الدرج وعند وصوله الى القناطر حيث موقع الميزان " اي ميزان الكون غير المنظور على نمط جسر السراط " يعيد ثانية صلاة وجيزة • ثم يدخل الصخرة بعد قيامه ببعض الفروض الاولية ويردد صلاة قربها مبتهلا للنبي يطهر نفسه بنطس اثر تقدمه المقدسة • عندئذ يتحدر الى تحت الصخرة وحيث يتقدم بصلاة امام الاماكن التي تحمل اسماء سليمان وداود وابرهيم وجبريل والياس • وبعد مغادرة

الصخرة يتوجه للصلاة امام كل من من الفتحات المعروفة بحكمة داود وقبر النبي يوسف به والروح والياس • وهكذا تنتهي زيارة المسجد • ولا بدّ من التصدق بطريقة خاصة في معظم هذه الاماكن •

لا شيء اروع من اجتياز هذه الدار في مختلف الاتجاهات عند التوجه الى المحطات العديدة من عرش سليمان الى السراط الى الاقصى • فلا سبيل مطروقا هناك والدار في هذه الجهة مغطاة تماما بالحصير والاعشاب الشائكة العشابكة • وكذا تصبح هذه الحركة الفنية ضربا من القصاص لان الحجيج مضطرون للسير حفاة •

بعد ان رويت جميع هذه الطقوس حقها ولقيت بجميع الصدقات المتوجبة للمسجد يوم وصولي اورشليم بالضبط ، وجهت في اليوم الثاني الجمعة الى ضريح داود •

قادت الطريقة من باب داود باتجاه جنوبي شرقي وقد قطعنا على مسافة "توازا" (١) (Toise) بدا "بيد وكانه كنيسة رومية قديمة ، عند دخولنا اليها انحطفنا يسارا ووصلنا الى الضريح مارين برواق في الطابق الارضي يحيق به عدد من الابواب والحواجز الحديدية • والاخر عبارة عن بعض مخطيه الاكسية الحريرية المنوعة الالوان ، الغنية الزخرف • وهو يشغل كامل الجدار الطولي من الرواق الذي يبلغ عرضه ثلاثة عشر قدما •

ولما انتهيت من الصلاة عند ضريح داود ، وجهت شرقا بمحاذاة الجهة الخارجية من اسوار المدينة • واصعدت على مرتفع شديد فوصلت الى الموضع الوحيد في هذا المكان وهو الذي يدعوه النصارى قبة صهيا (٢) يعتقد المسلمون ان ما "هذا النبع يوتى به بعجيبة الهبة من بئر زمزم في مكة • لا انكر ان سقف حلقي على خشونته احسن بالفرق الملحوظ بين الماءين • فهذا ابدا لي شديد البرودة وما "مكة سخينا الاول حلو وعذب والاخر اجاج • وطبه فالعجيبة هي فوق متناول الحس • ثم صرت الوادي ، وادي قدرون وبعد ان اجتزت بعض التلال الشرقية توجهت لزيارة المعابد واضرحة بعض الاولياء والانبياء من الدرجة الاولى والدرجة الثانية •

.../...

بان لي من قمة احدى التلال المذكورة على مسافة ثلاثة او اربعة فراسخ في خط مستقيم قسم من بحيرة لوط التي يدعوها العصاري بحيرة الزفت (٣) Asphaltites او البحر الميت . وقد حجبت بواسطة منظاري من بين مرفأين صغيرين وجبال الجهة الشرقية التي ظننتي وراءها البحيرة . ولاحظت الامواج تتكسر على الشاطئ . اما حركة بعض السفن فيها فقد اظنتني بان البحر لم يكن مما كنا يظهر من الاسم . والمنطقة المحيطة بالبحيرة جهنمية كلها .

عند وصولي الى قمة جبل الطور الذي يدعوه العصاري جبل الزيتون ويزعمون ان / ٧٢٤٠٠٠ / نبي دفنوا فيه ، وجدت كنيسة مسيحية فيها لوحة من الرخام عليها اثر قدم المسيح . ويقال انها انطبعت عليها عند صعوده الى السماء بعد قيامته .

من هذا الجبل القائم الى شرقي القدس يمكن القاء نظرة من علٍ على المدينة فتظهر واضحة الى درجة تكاد تمكنك من احصاء البيوت .

انحدرت من الجبل وعندما وصلت الى قعر وادي قدرون مررت بالقرب من قبر مريم (٤) وبعد ان تسلقت تلة عدت الى المدينة من الباب المعروف بباب مريم .

وفي اليوم التالي وهو السبت الواقع في ٢٥ تموز خرجت من القدس عند شروق الشمس ، لزيارة قبور ابرهيم ويمر بنا الطريق بين الجبال في اتجاه جنوبي وجنوبي الجنوب الغربي .

لما وصلت عند السابعة والربع قرب بيت ال حام (كذا) (٥) التقيت في الطريق نفرا من الرعاة متوجهين الى القدس ليشكوا رعاة الخليل أو حبرون الذين كانوا قد نهبوهم بعض مواشي . كان بصحبتهم جملان استولوا عليهما من الصالحين عفوا . فرويت قيد الرعاة القضية الذين كانوا معي من اشراف القدس الاجلاء . وقد عبر عن شعوره بفيض من العبارات الشديدة اللهجة ، فتحدثت امامي على الفور خصام رعاة ابرهيم مع رعاة لوط (٦)

وغير ذلك
ثم حرب الملوك الخمسة (٧) فهم لا يزالون يحتفظون الى اليوم بالخلق ذاته والاساليب والعادات عينها حتى بالزي الذي يشتمل على قميص من الصوف الابيض المشبع حمرة يضمون الى الخاصرة بمنطقه او حزام من الجلد و(العباءة) السوداء الملقاة على المنكبين و (الكوفية) البيضاء التي تلف الرأس .

بعد الاستراحة من الرحلة تابعت سيري نحو الجنوب تاركا بيت لحم الى اليسار وبيت جالا الى اليمين (٨) . ولم تمض دقائق معدودة حتى وقعت عيني على اروع مشهد لحدث جوي يمكن ان يخطر على بال (٩) .

الشمس الى يساري تعلو نحو ثلاثين درجة عن الافق . وهي شديدة اللمعان لان الجو كان في غاية الصفاء . والقمر الى يميني على وشك اجتياز ربعه الثالث وعلى موازاة الشمس تقريبا لامع واضح بقدر ما يتيسر له في مثل هذا الظرف . في هذه اللحظة رأيت شهابا في الجو يبعد وبشكل كوكب يزيد في حجمه عن حجم الزهرة او المشتري ضعفين او ثلاثة اضعاف . وهو في شدة لمعانه اوغرهما اشراقا في اعظم مظاهرسنائهما وقد سار نحو الشرق ذيلا هيئت طوله مقدار درجتين . فلم املك من الهتاف " كيف هادا كيف هادا " اما الذين كانوا امامي فقد اخذتهم الدهشة وصرخوا " من الله ، من الله " عند ذلك تقدم الشهاب نحو الغرب طوحا بذنبه يرفق في اتجاهه الفي على ارتفاع نحو ثلاثين درجة اي على ارتفاع الشمس والقمر تقريبا . وقد اجتمعت في الذنب الذي انشعب بعد قليل الى عدد من الاشعة مختلف الوان قوس قزح في ابهى سنائه وبعد ان قطع الشهاب في انتشاره الهادئ قريبا نحو ست درجات اختفى في نصف دقيقة بدون انفجار او ارعاد او اي حدث مروع . فالقيت بنفسي الى الارض وسجدت امام الخالق . وجدت جماعتي كذوي

ثم تابعت السير نحو الجنوب فارقا في بحران من التأمل مما رأيت . فمر بخاطري نجم الرحلة ونجم المجوس . ولم اكن اظن ان لهذين النادر والاصابع العديدة من السحر البيت لا بدّ من ان تجعل مثل هذه الظواهر الجوية وافرة في هذه الناحية . فضلت الى بعثي صومعة على اسم الياس وقد مت قليلا فوصلت قصبة جميلة نصف مهجورة . قرب

هذه القصبة بئر عذبة المياه مع صهريج يبلغ طوله خمسين خطوة وعرضه ثلاثين وعلى مسافة وجيزة تحته مستودعان اصغر حجما منه .

ولا زلت صاعدا هابطا في الجبال ، مارا بعدد من الآبار ذات المياه المعتبرة لولا اننا نرحم بالهوام حتى وصلت ظهرا الى الخليل او حبرون حيث نزلت في فندق هناك .

الخليل ، بلدة تعد نحو ٤٠٠٠ / اسرة عربية . وهي قائمة على سفح جبل وفيها قلعة حصينة وهي وافرة الاغذية عديدة الحوانيت . يحكمها عربي من اهل البلاد يحمل لقب الحاكم او شيخ البلد .

ان اضرحة ابرهيم واسرته ضمن مسجد كان فيها مضى كنيسة رومية . يصعد اليها على درج كبير بديع يؤدي الى رواق طويل . قبل دخول الرواق لا بد من المرور بفسحة دار صغيرة الى يسارها داخلة من القناطر المستندة على الركائز المربعة . يشتمل مدخل المسجد على مخدعين يضم ليعقوبها ضريح ابرهيم وليسرهما ضريح ساره . وفي صلب هذه الكنيسة القوطية النمط حجرة صغرى قائمة الى اليمين بين ركنين كبيرتين . في هذه الحجرة ضريح اسحق وفي حجرة اخرى الى اليسار ضريح زوجته . في هذه الكنيسة التي حولت جامعا محراب الا انه خطيب الجمعة ومحراب آخر للمؤذنين او المنشدين .

هناك مدخل آخر الى الناحية المقابلة من الدار . في هذا المدخل ايضا مخدع من كل ناحية . في الايسر ضريح يعقوب وفي الايمن ضريح امرأته (١٠) .

عند نهاية القناطر الى اليمين باب يؤدي الى رواق طويل لا يزال يستعمل مسجدا عنه انتقلت الى مخدع اخر فيه ضريح يوسف الذي مات في مصر فحمل الاسرائيليون رفاته الى هذا المكان . جميع اضرحة الآباء يغطيها السجاد الثمين من الحرير الاخضر المرشى بالذهب عوشية فخمة . واضرحة نسائهم من الاحمر المرشى بالطريقة عينها . يرسل سلاطين

الاستاذ هذا السجاد ويجدده من وقت الى آخر . فاحصيت عددها على ضوء البرهم الواحدة فوق الاخرى . اما المشاريع التي تضم الاضرحة فهي ايضا مغطاة بالسجاد الثمين . تحرس مداخلها البوابات الحديدية والابواب الخشبية المصفحة بالفضة . مزاليجها واقفالها هي من الفضة ايضا .

يمكن احصاء اكثر من مئة شخص في خدمة المسجد وبهذا يسهل تصور كمية الصدقات التي يفوز بها .

ان اللوحات المشار اليها (في مجلد الرسوم) يمكن ان تعطي فكرة عن هذا الصرح . وهي بدون مقاييس لانه تعذر علي اخذ قياس اي قسم منها . غير ان حجم الاضرحة يمكن ان يستعمل مقياسا على وجه التقريب . وارى ان النسبة بين المخطط العام والمخطوط الجانبية مقبولة نوعا .

بعد ان اكملت زيارتي للاضرحة ، عدت الى القدس في اليوم التالي ، وكان الاحد في السادس والعشرين من تموز ، بعيد اضاءة النهار . وعلى مسافة وجيزة من الخليل اجتزت صومعة عن اليمين مخصصة بالنبي يونس (١١)

توقفت لتناول الفطور قرب بئر ما ، عذب بجوار القصبة المذكورة آنفا . وواصلت السير بعد ذلك نحو بيت لحم فوصلتها عند العاشرة والنصف صباحا . وبعد استراحة لحظة توجهت الى دير المسيحيين حيث يكرمون عيد عيسى .

يشبه هذا الدير القلعة نظرا لمتانته وبناة اسواره . ان الباب الوحيد الذي يدخلون منه قليل العلو الى درجة توجب على الجسم للتمكن من الدخول . تضم هذه البناية نحو عشرين راهبا . والاوروبيون بينهم من اتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية اما الباقون فمن اليونان والارمن ويكاد يكون جميع سكان بيت لحم ممن يدينون بالمسيحية . وبقي ان اذكر ان هذه البلدة تائمة فوق جبل تغطيه اشجار الزيتون بغابه وهي تضم /٥٠٠/ اسرة .

.../...

ان اهالي هذه البلدة يسيئون الظن بالمسلمين . وقد داخلهم الشك من امرنا عند ما رأونا قادمين بالخيل والسلاح فاسرع بعضهم الى باب الدير الذى كان مقفلا . الا انهم عندما اطمأنوا الى صرفاتنا السلمية شرعوا يقرعون الباب من تلقاء نفوسهم . ففتح ولكن بعد مشاورات عديدة بصوت مرتفع تلتقه همسات من الداخل .

دخلت الى ساحة صغيرة مظلمة وجدت فيها بضعة اشخاص متحركين صامتين شاكي السلاح يدل مظهرهم على انهم من الحرس .

كنت اريدت ان امر على المقادس المسيحية مرورا عابرا دون ان اذكرها لانها كثيرا ما وصفت من قبل . غير اني سأعطي هنا فكرة عنها قد تشبع فضول من لم يقم بزيارتها غيرها .

غادرت المدخل ودلجت قاعة فخمة يرتكز سقفها على اربعين عمودا مرمريا طول الواحد منها خمسة عشر قدما قواعدها وتيجانها من النمط الكورنثي . غير انه يخيل الي ان بدن العامود في نسبه من النمط الدوري .

في هذه القاعة باب الى اليسار يؤدي الى جناح الرهبان الثانيين وباب آخر الى اليمين يؤدي الى جناح الاربعين وثالث في الصدر يؤدي الى جناح الروم .

بعد فترة انتظار فتح راهب روسي الباب ودلجت قاعة ثانية . في نهاية هذه القاعة درج الى اليسار ينزل بنا الى شكل مغارة هي المكان المقدس الذى ولد فيه يسوع المسيح .

عند وصولي الى المغارة لحظت في الجدار الى اليمين حفرة تحت كوة اكد لي دليلي الراهب انها الفتحة التي ولد فيها المسيح . وقد شاهدت الى اليسار حوضا من المرمر يقال انه المذود الذى القت فيه العذراء ابنها . امام هذا المذود مذبح عليه رسم بديع يمثل سجود الملوك المجوس الذين قدموا الى هذا المكان عينه كما يقال

.../...

لتقديم الاكرام الى المولود الجديد • يزين العذراء ويوضح الولادة الزخارف الفضه وعدد عديد من المصابيح البلورية والفضية • شاهدت امام العذراء مصباحا فضيا بشكل قلب وهو يضم قلباحد الاتقياء واسمه (انطونيو كاميلو دي شالس على ما اعتقد) محفور عليه باحرف لاتينية بديعه مع تاريخ السنة ١٧٠٠ • وهناك وقفية لحفظ المصباح هذا • المغارة على شكل متوازي الاضلاع •

عند خروجي من المغارة قادني الراهب الروسي الى كنيسته القائمة فوقها • ليس في هذه الكنيسة ما يستحق الذكر غير ثريّة بلورية فضمه ذات اربع سعف •

هنأت الروسي على الامتياز الذي تحظى به طائفته دون الكاثوليك والارمن في كونها القيمة على كنز كذا ثمين هو مكان ولادة المسيح • فاجابني " انك ترى بادئا نحن القدماء " اما الاخرون ..(١٢) " وهنا توقف وانهى التعبير عن فكرة بشارة ازدراء • وبهذه الطريقة يسيطر الاختلاف حتى بين هذه الجماعات التي ينبغي ان تشدّهم الى بعضهم البعض جميع الاعتبارات الطبيعية والمعنوية •

بعد ان شكرت رجل الدين على لطفه تركت بين يديه براهين امتناني ثم غادرت الدير وتابعت طريقي نحو القدس • وقد وصلتها عند الثانية عشرة والنصف من اليوم ذاته •

في اليوم التالي وكان الاثنين في السابع العشرين من الجاري ذهبت لزيارة ضريح العذراء مريم ام المسيح •

في قعر وادي قدرون تقريبا يمكن الانحدار الى مغارة على درج لطيف الشكل عند منتصفه الى اليمين ضريحا يواكيم وحنة • وفي تجويفة اخرى الى اليسار ضريح يوسف رجل مريم •

وفي الغسل الذي كنيسة روضة الى اليمين . في قدس اقداسها ضريح العذراء . على كل ضريح مذبح حافل من الحلى . سمحت من الكنيسة اصواتا موزونة لجوقة من الرهبان يرتلون بيدها الكاهن ، رافلا بالحلة المقدسة ، يقوم بفروض الذبيحة عند المذبح .

عندما غادرت المعبد سألت الراهب الروسي الذي رافقني ما اذا كان بينهم بعض الرهبان اللاتين او الاوروبيين . فاجاب الروسي طافحا بالغيرة المقدسة : " لقد كان عندنا بعض منهم في الماضي الا انهم طردوا ، فالاوروبيون لا يصلحون . " فاسفت ذهولا من هذا الجواب العطوف يغضني به هذا الرجل الطاهر . ثم توجهت لزيارة عدد كبير من الاولياء ممن يحتلون في درجة الاكرام .

بعد الظهر توجهت الى قبر المسيح الا ان باب الدير الذي لا يفتح الا في ايام معينة كان مقفلا حسب العادة . يقفله الاعراب من الخارج والرهبان من الداخل .

تحدثت بين قضبان الحديد في الباب مع احد الرهبان الاسبان من مواليد اوكادا اسمه رامیرازدیاز . وهو ذو مزاج مرح . وبعد تبادل الفكاهات طلب الي الاتصال بالمدبّر العام الذي كان اسبانيا ايضا . وذلك بقصد الحصول على الاذن بفتح الباب .

ذهبنا الى المدبّر العام الذي كان يقيم في دير آخر . فكان مريضا ، الا ان دائه استقبلنا بعزيد اللطف وقد قطع مجرى حديثنا قدوم القاضي وحاكم المدينة فاسفت بعد ان حصلت على الاذن بالدخول الى قبر المسيح في اليوم التالي .

وعليه فقد توجهت الى المكان صباح الثلاثاء في ٢٨ تموز عند شروق الشمس .

هناك قبالة اورشليم في طرف كنيسة قوطية كبرى . في وسط الدائرة حجرة صغيرة يكرّم فيها المسيحيون قبر يسوع المسيح .

... /...

لا بدّ من نزول بعض الدرجات للوصول الى هذه الحجرة الصغيرة • والغوص الى اليمين في مخدع صغير طوله نحو ستة اقدام ونصف عرضه نحو الاربعة •

هذا الاخير هو عبارة عن حوض طوله نحو ستة اقدام وعرضه سبعة وعشرون قيراطا • تبين لي انه من المرمر الابيض الشرب حمرة ، ويبدو ان الغطاء المؤلف من حجرين • وقد رفع الفانوس بشكل يتألف منه شبه مذبح يقيم عليه الرهبان الذبيحة المقدسة • والحجرة التي تضم القبر صغيرة وهي ادنى من مستوى الكنيسة وخالية من اي منفذ لتجديد الهواء ، فضلا عن وفرة المصابيح المضاءة عند ما تفتح الحجرة • والحرارة فيها خانقة والفانوس بسيط وخال من الزخرف الا ان الحجرة وافرة الزين •

يصلي المسلمون في جميع الكنائس المكرسة لذكرى يسوع المسيح والعذراء ما عدا هذا القبر الذي لايعترفون به • هم يعتقدون ان المسيح لم يستبل صعد حياً الى السماء تاركا شبه هيئته ليهوذا الذي حكم عليه بالموت مكانه • فان يهوذا هو الذي صلب بالتالي فان جسده هو الذي قد يكون في هذا القبر وليس جسد يسوع المسيح ولهذا السبب فان المسلمين لا يقومون باي مظهر تعبدي في هذا الاثر بل يسخرون بالنصارى الذين يأتون لتكريمه •

مفتاح البناء الذي يضم قبر المسيح بحراسة الرهبان اللاتين الا انه لا يحق لهم فتحه دون ان يصحبهم راهب روسي يبقى الى جانب القبر طالما الحجرة مفتوحة •

ان الدائرة التي تقوم فيها كالبالة القبر مركزه على اعمدة خشنه المظهر خالية من النسب الهندسية • على السطح الاول رواق مزدوج الاعمدة • تجانبها من النمط الكورنثي او من انماط مختلطة • اعلى القبة+ مفتوح يكوّن فجوة قطرها ثلاثة عشر قدما • وهذا هو المكان الوحيد الذي يدخل منه النور الى الصرح •

+ احترقت هذه القبة على اثر دسيسة الارمن الذين حاولوا الاستيلاء على المعبد بهذه الوسيلة (حاشية الناشر) •

كنيسة اللاتين الى يمين الدائرة عند الدخول وكنيسة الارمن الى اليسار وكنيسة السريان وراءها . وللقبط ايضا كنائسهم الصغيرة وهي لاصقة بحجرة القبر . وفي القسم الوسطي او الرئيسي من صلب المعبد كنيسة الاروام . وللاحباش ايضا كنيستهم وقيل انها ستضمحل لانه لم يبق من رهبانهم غير اثنين .

كان الارمن في مدة من الزمن متحدين مع اللاتين غير انهم انفصلوا عنهم على اثر خلاف نشأ بينهما (١٣) ويبدو ان الاروام شديدو المفاخرة بنوع الافضلية التي لهم على بقية الطوائف اما بسبب العزلة التي يحظونها في الصرح وهي بالفعل في المقدمة او بسبب فخامة جوقتهم الموسيقية او قدس اقداسهم او بفضل ملاكهم الكهنوتي المعتبر وهو يضم ثلاثة اساقفة او اخيرا لوفرة طائفتهم الوطنية .

ان رهبان الطوائف المختلفة غير متفاهمين على العموم لان كلا منهم يحسب طائفته مستقيمة الرأي وما عداها على ضلال . وقد اتصل بي على وجه التأكيد ان مجموع الرهبان من مختلف الطوائف قليلا ما يربو على الاربعين .

وقد كان الرهبان اللاتين آنذاك في حالة ضنك مدقع لانقطاع الاموال عنهم من اوربا في السنوات الثلاث الاخيرة بسبب الحرب (١٤) .

فالقوا الامرين من قاضي القدس القديم الذي على اثر عزل الحكومة اياه شرع في حركة عصيان في بناء ضريح داود حيث جمع الهدوا خذ يهدد المدينة .

اما الباب الوحيد الذي يمكن الولوج منه الى الصرح فهو فسحة ذات اربعة جوانب يحيط بها حاجز صغير . يروي الكاثوليك ان جسد المسيح حفظ هناك قبل ان يوضع في القبر .

.../...

بالقرب من قدس اقداس كنيسة الروم درج يؤدي الى كابالسة صغيرة . عند اعلى الدرج الى اليسار هيكل مكوّن من الصخر الاساسي .

داخل الصخر ثقب قطره من اربعة الى خمسة قراريط يؤكد ان انه المكان الذي ثبّت فيه الصليب . وعلى بعد ثلاثة اقدام شق طولي في الصخر اكد الراهب لي انه انفتح اصلا عند موت يسوع المسيح وان هذه الفجوة تنتهي في الجحيم .

على بعد ثلاثة اوراح خطوات الى اليمين هيكل امامه فسحة مرتفعة متروكة على انها المكان الذي صلب فيه المسيح . وهكذا فان جبل الجلجلة الذي كان فيما مضى خارج المدينة اصبح اليوم وسط المدينة الحديثة تقريبا .

الى جانب المقام الذي يضم قبر المسيح بنا يسكنه نفر من الرهبان و(الدراويش) المسلمين . في هذا البناء نوافذ تطل على المقام مما يضايق احيانا الرهبان المسيحيين . بعد زيارتي القصيرة الى المقام توجهت الى كنيس اليهود . سكان هذا الشعب لم يتألف هيكل اولاد يعقوب الحالي ، هيكل ورشة سليمان ونسله ( ) من بناية بائسة او بالاحرى من تكتة مكونة من ثلاث اوراح تقريبا يعلوها سقفها باليد وفسحة دار اضيق منها يغطيها سقيع العنكبوت والاقذار . رأيت هنا بعض اليهود يتلون صلاتهم في مختلف زوايا هذه الزريبة . وكل شيء كان على درجة من البؤس والكآبة مما عجّل في انسحابي .

ولم اكن لانزعج او اتضايق في مكان ما فتأتي في القدس . اذ كنت الحاج الوحيد آنذاك فيها . فقد احدق بي سدنة المسجد ولم يكن لديهم اي عمل آخر . وقد قصر القيمون على شؤون المعبد واسرة سيدي عبد القادر

جلّ همهم على مرافقتي الى كل مكان • واسرة سيدي عبد القادر هم من اشراف القدس الفاتني الاعتبار • وقد نزلت عندهم • وكانت الحديقة البديعة التابعة لمنزلي تسمح على الدوا الدوام بهواء • الاشخاص بواسطة اقنيتهم الذين كانوا الصق بي من ظلي حتى اتمكن بتيسر لي اكثر من لحظات وجيزة من الراحة وكان لهذه الظروف اثرها في منعي من التوسع في ملاحظاتي عن القدس لو تصدت ذلك • غير انه بالنظر لكون هذه الحديقة وصفت مرارا عديدة فسأقتصر هنا على بعض الملاحظات الخاصة •

تعرف اورشليم عند المسلمين باسم القدس او القدس الشريف ، وهي تقع وفقا للخرائط الفرنسية (١٥) على ٣٤° ٤٦' ٣١° من خطوط العرض الشمالية و٣٣° من خطوط الطول شرقي مرصد باريس • ولم اتمكن من القيام بالرصود الفلكية لانني تركت ادواتي في مصر (٣٠) •

شكل القدس مضرّج الا انه اقل تعرجا من شكل مكة • واذا ما استثنينا التلعة الناتئة في طرف الحديقة الغربي فان السور يتخذ قريبا شكلا مربعا •

بما ان الحديقة مبنية قبالي المنبسط الاعلى لاحد الجبال على انحدار خفيف نحو الجنوب الشرقي فهي محاطة بوهاد عميقة تحاوطها الاسوار في الجهات الجنوبية الشرقية والشرقية الغربية • وهي على استواء جزئي شطر الجنوب يؤدي الى ضريح داود • وعلى المستوى الفسيح نحو الشمال قمة التل التي تمر عليه طريق يافا في اعلى الجبل •

شوارع القدس على شيء من التنظيم والاستقامة وهي حسنة التنظيف ، وبعضها ارصفة • غير انها ضيقة مظلمة وتحاوطها الانحدار • منازلها على العموم من طبقتين او ثلاث ، قليلة النوافذ صغيرة الابواب للغاية. واجهات المنازل خالية في البساطة مبنية بالحجر العادي وخالية من الزخرف • فيخيل لمن يمر في الشارع انه في دهليز او سرداب سجن كبير • وبالاختصار فانها حال صادق لاوصاف اوربا (١٦)

فشتان ما بينها وبين شوارع مكه البديعة في بنيها العديدة وفي مرحبها • وما كنت ارتقب ابدا هذا الانحطاط في مدينة سكنها الفساق ملك العهود العتاولة غير انه

(Facta est quasi vidua, domina gentium) (١٧)

ان الابنية على العموم حسنة التنظيم وحجرها رطبي بديع غير ان جميع ابوابها باطاق غير صغيرة الحجم للغاية ، حتى انه لا بدّ للداخل من ثني الجسم تقريبا يكاد يكون تاما • امام بعض البيوت حدائق صغيرة • ولا بدّ من الملاحظة بانه ليس في هذه المدينة خلاء فسيح ولذا فان القدس مع ما هي عليه من ضيق المساحة بالنسبة الى مكه فانها وفقا لما اتصل بي تعد معروفتين الخمسه وذلك فضلا عن سكان الضواحي (١٨) •

لم اشهد في القدس ساعة واحدة بالمعنى المفهوم • والحوانيت والاسواق هي في الشوارع العامة كما هي الحال في مكه • العواد الغذائية وافرة وبخسه الثمن فيمكن الحصول على صفدذ بخسه من الافراخ بقرش اسباني • والخبز العادي ضرب من الارغفة الخشنة النوع غير انه من الميسر الحصول على الكثير منها وهناك وفرة في الخضر الجيدة والبقول والاثمار مع ان موسمها يتأخر عادة • اللحم معتاز • اما من جهة الماء فالاهالي يضطرون لشرب مياه المطر المحفوظة في مستودعات الحرم او في بعض البيوت الخاصة • اذ الصهريج الكائن عند قصر واد ى قدرون فانه يستعمل لاروا الحواشي وى الاراضي • وقد يلجأ الاهلون اليه لسد حاجاتهم المنزلية عندما يشح المطر او تنضب المستودعات •

ان هذه العاصمة تقع على وجه التقريب قطبية وسطيه بين الحريسة ومصر وسوريا • بل هي قطبه فالقي الحرب من هذه البلدان الثلاثة الذين يؤمون القدس للتجارة والمقايضة • واهم انواع التجارة الفلسطينية تصدير الزيت • غير ان الارز وهو مادة غذائية رئيسية لا يمكن زراعته في البلاد بسبب شح الماء فلا غنى عن استيراده من مصر القمح الذى يذهب بارباح تصدير الزيت •

.../...

الاوزان والمقاييس والعملة هي ذاتها المعروفة في تركيا • فالقرش الاسباني يساوي اربعة قروش تركية ونصفا او ١٨٠ بارة (١٩) •

الخيل قليلة وارسانها من النوع المنحط • غير ان هناك عددا من البغال التي رغما عن صغر حجمها تؤدي مختلف الخدمات • الحمير صغيرة الحجم مثل حمير العربية ويصرفون انها لا تضاهيها اما الابل فانها قليلة •

وهناك تباين كبير في الازياء • فكل يلبس على هواه سواء كان اوروبيا او تركيا غير ان الطبقة الشعبية الذين ترتدي عادة الجبة الطويلة او قميصا ابيض واسود او من القماش الاسمر العريض المخطوط وفقا لزي العربية • الموسرون منهم او سدنة الحرم وامثالهم يلبسون الزي التركي ويعتمون القاووق او العمامة العالية • اما النساء فانهن يلففن انفسهن بعباءة او خمار فضفاض ابيض •

والصناعة على بدائيتها افضل منها في مكة • وقد شاهدت بعض الاشغال المعدنية • فيصنعون نوعا من الاخفاء الصفراء الظريفة • ويكثر استعمال اموال الحياكة غير انه جدير بالملاحظة انني لم ارتفالا او مختاحا واحدا من الحديد (٢٠) •

وفيما يتعلق بالعلوم فانها في القدس مفقودة تماما كما هي الحال في مكة وقد كان فيها فيما مضى المدارس الكبرى التابعة للحرم • غير انها تكاد تكون اثرا بعد عين • ويوجد اليوم بعض المدارس الصغرى حيث يتعلم الاولاد من مختلف الطوائف الكتابة والقراءة واصول الدين لكل منهم • يسيطر الجهل المدقع حتى بين افراد الطبقات العليا الذين يعتدون لاول وهلة كانهم على شيء من حسن الفطنة •

وفي القدس يتكلمون العربية على العموم • غير ان التركية كثيرة الشيوع والعربية المحكية هنا تختلف بعض الاختلاف عنها في البلاد العربية وذلك من جهة النطق الذي تشارك فيه اللهجة التركية مشاركة واسعة •

.../...

يؤكد العموم ان في القدس سبعة الاف مسلم . الفان منهم ممن يتقدرون على حمل السلاح . فيها اكثر من عشرين الف مسيحي من مختلف المذاهب الطوائف والروم المتحدون (الكاثوليك) والروم المنشقون (الاورثوذكس) والروبان او اللاتين الكاثوليك والارمن الخ .. غير ان عدد اليهود ضئيل .

ان هذه المجموعة من البشر تتوزع بعضها البعض بالاعتناق والكفر . وكل مذهب ثابت الاعتقاد بامتلاكه النور السماوي الحق دون غيره وبانه صاحب الحق بالفردوس دون سواه . فيرسل انباعه الى جهنم بكل طيبة خاطر ما بقي من لبنا البشر ممن لا يعتقدون بعقائدهم .

يعتبر المسيحيون واليهود بالازرق علامة فارقة . غير ان هناك قراضئيلا ممن يخالفون في هذا اللون . فالقرويون والرعاة يعتمرون بالابيض او المخطط مثل المسلمين دون اي فارق . ويتميز المسيحيات غير متحجبات كما في اوربا .

لاحظت نفرا ضئيلا من النسا الجميلات والنسا هذا ذوات طلعة صفراوية كثيرة الشبوع في الشرق . لون بشرتهن الفاتح او بياض جامد اشبه بالجص او الورق نادرا ما كان يصدق ان الحظ احداهن بلون جميل . وهن بدون الشاشة البيضا حول وجوههن ما يكسبهن مظهر الجثث السائرة . خدودهن منتفخة واعينهن دقيقة وكثيرا ما تكون شفتهن السفلى اغلظ من العليا واكثر بروزا . عيونهن منتفخة غير انها فاقدة الحيوية وتختلف اختلافا بينا عنها عند النسا العربيات التي تعرق نادرا . وهن هذا ذلك بلا كياسة وعلى العموم (تتعرهن) الكآبة . كذا نسا اورشليم ، انها لصورة بائسة عنهن الا انها غاية في الصدق . اما زينتهن فقد تيسر لي ان ارى عند الخمار القفقاض الابيض الذي يلففن من الراس الى القدم ولا اعلم شيئا عما يشتمل عليه باقي لباسهن . غير ان الاولاد اصح اجساما واجمل منهم في العربية وعمر .

.../...

لا اعلم اذا ما كان لليهود اكثر من كنيس واحد . غير اني متأكد ان للنصارى بضعة كنائس ورهبانيات . فللاثنين ديران يدعى احدهما دير الصليب والثاني دير مار يوحنا علاوة على دير الجلجلة والقبر(الاقدس) .

ان المسلمين في القدس يكرمون وفات عدد كبير من الاولياء اوقبورهم . وفي هذا ضرب من التجارة الرابحة لكثير اما عن طريق ادارة اوقاف كل ضريح او عن طريق جمع الصدقات التي لا بدّ منها عند كل زيارة .

تسود بين اهالي القدس وفرة من العلاقات الاجتماعية في مشاغلهم وملاهيهم رغما عن كونهم من مختلف الجنسيات والملل الذين يحتقرون في انفسهم بعضهم البعض بسبب اختلاف المشرب) وذلك لان النصارى هم الاكثرية هنا . فيخالط اتباع المسيح اتباع محمد دون فارق وينتج عن هذه المخالطة قدر من التحرر اوسع في القدس منه في اي بلد اخر تحت ديار الاسلام . وقد شاهدت عدة من اجلاء المسلمين ممن لم يروا ضيرا في التحديق بوجه المرأة حتى في الرقوف والتحدث اليها امام الجمهور مما يشكل فضيحة في اي مكان محمدي آخر .

حاكمية القدس منوطة باحد العواطفين وهو يحمل لقب شيخ البلد او الحاكم (٢١) — اما الحاكم الحالي فقد حدثنا ليخلف سميه الموظف حاليا . وقد تكون ذلك من الطول بمحل هذا .

القاضي او الحاكم الشرعي تركي تركيه الاستانة ويجدد له كل سنة شأن جميع القضاة في السلطنة العثمانية (٢٢) .

وهذا من ذكرنا فهناك حاكم القلعة وشيخ الحرم والمفتي او رئيس الشريعة ولكل وظائفه المتعلقة به .

واذا استثنينا نفرا من الجنود الاتراك فليس في القدس من حامية غير الاهالي المسلمين الذين يجندون عند الحاجة حامل سلاح كما ذكر سابقا . .

.../...

تحيط بالمدينة الاسوار الشاهقة التي تعلوها المعاقل ذات الابراج الهائلة ، حسبما البيان ممكن بالحجر الوطني . غير انها لا تصمد امام المدافع نظرا لنقص كثافتها .

هناك ستة ابواب وهي + (٢٣) .

باب النبي داود	}	الى الجنوب
باب المغاربة	}	
باب الست مريم	}	الى الشرق
باب الزاوية	}	
" العامود	}	الى الشمال
" الخليل	}	

يخلو السور الغربي من الابواب المؤدية الى الخارج لان القلعة لاصقة به .

تحيق الوهاد بدائرة القدس كما اسلفت . وحيث لا يوجد هذا الخندق الطبيعي فقد استعاضوا عنه بالاخاديد المحفورة عند اسفل السور .

ان الغريب الذي يهتدي الى هذا الموقع يخيل اليه للوهلة الاولى بانه موقع لا يؤخذ . فهو محاط بالوهاد والاسوار المتناطة العالية .

يتوجه عدد وافر من قطع المدفعية ، تلعبه بديعة البيان حيث تحيط به الخنادق .

+ لا بد من الاشارة بان اسماء هذه الابواب هي الاسماء التي سماها بها العرب اما النصارى فيدعونها خلاف ذلك (حاشية الناشر) .

ويجهز تجهيزا وافيا بوسائل الدفاع ، يضم عددا من الاهالي الذين يعدونهم يجندون عددا كبيرا من المدافعين . غير انه عندما يمعن النظر في مركزه فان الوهم الاول لا يخطأ حتى يتبدّد ويتقن بانه نقطة لا يمكنها مواجهة حصار عنيف وذلك بسبب طبيعة الارض . فليس فيه ما يردّ العدو عن الاقتراب . ومن جهة ثانية فجبل الطور او جبل الزيتون يسيطر عليه وهو على مرمى المدفع منه .

ان الوضع الذي يتميز به القدس خال من الحياة النباتية ويتكون من الصخور البازلتية التي تزداد حلقة الاتصال بالصخور السوداء في معظم الجبال المجاورة .

مناخ القدس بارد بالرغم من قربها من المنطقة الحارة . وذلك بسبب موقعها على مرتفع بالغ العلوّ عن سطح البحر . وما كان ميزان الحرارة اثناء اقامتي فيها في شهر تموز يرتفع فوق ٥° ٢٣° عند الظهر خارجا . وقد لاحظت انه كان على ٣° ١٧° صباحا . كانت الريح دوما غربية والجو معتدلا . وقد اكد لي بعضهم ان كمية وافرة من الثلج سقطت في الشتاء . وان الامطار على العموم غزيرة .

لم الحظ كثيرا من الشيوخ في القدس . غير انهم على كل حال اكثر منهم في مكة .

يلاحظ الزوار ان السفوح التي يتساقط فيها الثلج بكثرة تعمر بوفرة حمل الزيتون . وقد لاحظت ان الرياح تهب بسرعة فوق الاعتيادية .

.../...

الفصل الثامن عشر

العودة الى يافا — المرور بحكا ووصف البلد — جبل الكرمل —
الرحيل الى الناصرة — معلومات عن رهبان الارض المقدسة

+ + +

غادرت القدس من باب العامود عائدا الى يافا يوم الاربعاء في ٢٩ تموز سنة ١٨٠٧ عند التاسعة صباحا . وكنت قد اجتزت هذه الطريق عند ذهابي الى اورشليم غير ان الوقت كان ليلا فلم اتمكن من وصفها بدقة .

وصلت الى الوادي عند العاشرة بعد اعدادي عن التلال المتطاولة . فوجدت فيها عيناً شحيح الماء وجسرا ذا قنطرتين .

جاوزت قرية المليحة الواقعة على رابية بعد مسافة ٤ وجيزة عن يمين الطريق وقد اجتزنا ايضا بالقرب من هيكل قديم بديع .

بعد اجتيازي عددا من القرى الاخرى مررت بالقرب من بيت العقلي (١)
قبيل الحادية عشرة . ثم شرعت في الهبوط والتصعيد حتى وصلت عند الظهر الى قرية العنب . في هذه القرية كنيسة قديمة بديعة ذات قبة صغيرة وهي مهجورة في الوقت الحاضر وقد تحولت اطلالا .

تابعت سيري صعدا حتى وصلت عند العاشرة (كذا) [والصواب الثانية] الى قمة الجبال عند مكان يدعى نسارس (٢) حيث القيت من قبل بالشيخين ! فيهما مارضان دولبالنصارى واليهود لجمع الضرائب المفروضة عليهم .

وكان قد اتصل بالشيخين ابني ابن سلطان مراكش ، فأمرك القارى" الحكم على هدى اوهاكهم لمعاملتهم اياى كصيحي • وكادا يرتقبان قدومي خجلين وجلين ليعتذرا لي بتذلل • فقبلا يدى وقدمي ورأسي باكين بطريقة متواصلة • وبعد الاستطاع من الخدمرارا وتكرارا توسلا الي" بان اتنازل فاتوجل لمشاركتهم وقعة فاخرة كادا قد اعدادا بجانب مبلغ ما "بديع ففعلت •

وطمت من هذين الشخصين الطيبي القلب ان على طريق القدس ثلاثة مخافر لجمع الجزية • وهي تتألف ، ان لم اخطي" ، من ثلاثين بارة يو"ديها اليهودي الوطني ومن ستة قروش يو"ديها اليهودي الاجنبي ومن خمسين بارة من النصراني الوطني ومن قرشين من الاجنبي •

يمكن تبين البحر من اعالي هذه الجبال •

بعد ان استودعت الشيخين برفق عدت الى سلوى بين الجبال عند القائلة الا الربح وبعد تقدم بطيء ، دام ثلاث ساعات وجدت نفسي في مسبح حقيف الاحمد اريدعى ابوقوش (٣) حيث عثرت على قرية من الاكواخ • وكان الاهلون آنذاك يدرسون القمح عند القائلة والربح توقفت بعض الدقائق قرب بئر من الابار الاربعة التي تحمل اسم " بيار ليب " (٤) وكانت مياهها خضرا "قذرة •

عند الرابعة اجتازت قرية الطيرون (٥) القائمة على رابية • وقد انحدرت عنها الى السهل وبعد مرورى قرب قرية قباب (٦) (Kabarbeh) القائمة على تلة صغرى ، وصلت الربطة عند السادسة والربع •

الجبال التي اجتزتها صخرية وتكاد الحياة النباتية تكون معدومة عليها من القدس حتى رابية قرية العنب التي تغطيها الكروم • وتتبع العين على اشجار الزيتون والاشجار الحرجية الباسقة ابتدا "من هذه القرية حتى " ابوقوش" وقد لاحظت في السهل حقول

المحطة التي تم فتحها وتزويدات الفحم والقهوة او محطة القهوة .

نزلت في جامع الوطة كما فعلت من قبل . فزارني الاغا التركي حاكم المدينة . كما زارني شريف الطفيلة (٧) (Tafilet) المدعو مولاى محمد وهو قريب مولاى سليمان . وقد اعلن لي ان الشريف مولاى حسن وهو احد ابناء سليمان الذى ابحرت معه السنة الماضية من طرابلس الى فيرس كان قد توجه الى القدس حيث توفى والده اى مولاى محمد اذ كان يقطن الرملة فقد ورث حريم الفقيد وثروته .

قمت صباح اليوم التالي الخميس في الثلاثين من الشهر عند السادسة الا ربعا وتركت بعد ساعة قرية الفار (٨) عن يسارى واجتزت (٩) (Mazoun) (مزون)

عند الثامنة الا ربعا ووصلت يافا قبيل التاسعة .

يافا (١٠) بلدة صغيرة يحيط بها تحصينات على شيء من الاتقان وهي قائمة على رابية ويمكنها ان تقاوم مقاومة منظمة . ففي الزاوية الجنوبية حصن كبير وضعة ابراج متوجة جميعها بقطع المدفعية لحماية السور غير ان هذا السور قليل الكثافة .

في الحامية عدد كبير من الجيوش التركية والمغربية والخدمة العسكرية اليوم تحظى بالعناية الكافية وذلك لان الحاكم جندى ممتاز .

لا يطلع المرفأ الا لاستيعاب السفن الشاطئية الصغرى التي تبحر نحو سوريا اما السفن الكبرى فانها ترسو اخارج المرفأ وانها تلقى مرساة واحدة لتبقى على استعداد دائم لرفع السلك عند اول عاصفة ريح لان الشاطئ مخوّف وخطر جدا .

ابحرت بعد المغيب من يوم وصولي في مركب اقلع بنا عند التاسعة مساء رغما عن كون الريح والتيار غير موآتيين . ولقينا العرساة في اليوم التالي الجمعة في ٣١ تموز ٤ عند الثالثة بعد الظهر في مرفأ عكا (١١) فنزلت الى البر توًا .

.../...

"سان جان دا كر" يدعوها المسلمون عكا ، هي بلدة صغيرة . وقد نالت بعض الشهرة في ايام الصليبيين بسبب مرفأها وموقعها الجغرافي . واعادت لهذا الثغر ، ولايسة الجزار في مقاومتها الشديدة لهجمات الفرنسيين الامر الذي حقق رأي العسكريين العالي في هذه النقطة .

وقد زيدت التحصينات اخيرا زيادة عظمى عند الحصار الاخير (١٢) لم يكن فيها سابقا غير القلعة او قصر الجزار على ضفة وجيزة من السور لجهة البر والمغارس الخارجية وقد زيد على هذه خط جديد من الاسوار العظيمة الكافلة ، على الخط الاوربي ، وهي تحيط بالخطوط القديمة . والحصون الحديثة البعيدة تصيرة المرمى وبما يعوزها عرض لغيران العدو لان زواياها الخلفية او الجانبية فضلا عن الحواجب شديدة الانفراج . يحمي الاسوار خندق جيد وخندق وجدار مبطن بحزق مراجيم للاول وثقب صغير متعدد او شبحة امامية . ولدينا تجربة على هذا النوع من السور عما ينتج عنه بعض الاضرار بالثقب اذا ما اطلقت النيران من المغاوير . وعاوة على هذا الخطأ في التحصينات الدفاعية من البلد فان خط التحصينات الجديدة لا يزال ناقصا . فليس هناك معرات مخططة ولا غيرها من التحصينات الخارجية ولم ينجز ، من التحصينات الجديدة الشرقية غير النصف . اما التحصينات الشمالية فقد اكتفي باعادتها الى حالتها السابقة . والبحر يحمي الجهتين الغربية والجنوبية .

المرفأ ضيق للغاية وما فيه قليل فيوان هناك مجالا واسعا لرسو السفن في جوار الطريق العمومية الرحيفا . ويمكنه ايواء الاساطيل العظيمة الا انه لسوء الحظ معرض لجميع الارياح .

في عكا جامع بناه الجزار ويضاهي الى درجة انه يشبه المقاهي او المعاهد اكثر منه المساجد .

تحيط بالدار القناطر او الاروقة ذات القبب الصغيرة المركزة على الاعمدة وهي عبارة عن حديقة بهية المنظر في وسطها فسقية مرخمة للغاية تأتيها المياه من احد الصهاريج

والجامع مقابل الحديقة وهو مربع الشكل امامه رواقـ من القناطر القائمة على الاعمدة • داخله مزدان بالاعمدة يتكئ عليها رواق يدار حول الجوانب الداخلية حتى القسم الامامي الداخلي الذى يقوم فيه المحراب ومنبر الخطابة • ويرتفع في الوسط قبة بديعة الشكل •

البقاع مملوء بالعبر والزخارف العربية البديعة • والاعمدة من ابدع العمد واندر غير انه خال من مظاهر العظمة وليس فيه ما يملأ العين بروعة الهيكل القديم • هنالك بعض الغزلان في الحديقة وهي تقفز وتقفز هنا وهنالك بحرية كاملة •

المياه شحيحة في المدينة وبالنتيجة فحدائق الخضر قليلة تستجلب الخضر والبقول والاثمار من يافا وباقي الاماكن المجاورة •

كانت مياه عكا في الماضي ممتازة وكانت تصلها بواسطة قناة من نبع يبعد عن المدينة مسافة فرسخ ونصف • غير ان الفرنسيين في حملتهم الاخيرة على مصر اقاموا على هذا المكان واطفوا القناة ولم تفكر الحكومة التركية بعد ذلك باعادتها الى ما كانت عليه • وبالتالي فقد اضطر السكان بعد ذلك الى الشرب من مياه الابار وهي مشبعة بملح السليفيوم (وقليلة كالرصاص •

من مجمل ما رأيته وسمعته عن الجزار باشا (١٣) يتبين لي ان الطبيعة وهبته فكرا اميرا • غير انه كان مملوكا خالي الذهن من اى ثقافة عدا ثقافة السلاح يقاد انقيادا اعمى لعاطفته التي كانت تجمح به نحو الخير تارة ونحو الشر اخرى فلا تسمح له بالبقاء عند الحد الوسط •

والجامع مقابل الحديقة وهو مربع الشكل امامه رواقـ من القناطر القائمة على الاعمدة • داخله مزدان بالاعمدة يتكئ عليها رواق يدار حول الجوانب الداخلية حتى القسم الامامي الداخلي الذى يقوم فيه المحراب والمنبر الخطابة • ويرتفع في الوسط قبة بديعة الشكل •

البناء محلى بالصور والزخارف العربية البديعة • والاعمدة من أبدع الصور وأندرها غير انه خال من مظاهر العظمة وليس فيه ما يملأ العين بروعة الهيكل القديم • هنالك بعض الغزلان في الحديقة وهي تقفز وتنظر هنا وهنالك بحرية كاملة •

المياه شحيحة في الحديقة وبالنتيجة فحدائق الخضر قليلة تستجلب الخضر والبقول والاثمار من يافا وباقي الاماكن المجاورة •

كانت مياه عكا في الماضي محتكرة وكانت تصلها بواسطة قناة من نبع يبعد عن المدينة مسافة فرسخ ونصف • غير ان الفرنسويين في حملتهم الاخيرة على مصر ثاروا على هذا المكان واتلفوا القناة ولم تفكر الحكومة التركية بعد ذلك باعادتها الى ما كانت عليه • وبالتالي فقد اضطر السكان بعد ذلك الى الشرب من مياه الابار وهي مشبعة بملح السليكيوم (وقليلة كالرصاص •

من مجمل ما رأيته وسمعته عن الجزار باشا (١٣) يتبين لي ان الطبيعة وهبته فكرا اميرا • غير انه كان مملوكا خالي الذهن من اى ثقافة هذا ثقافة السلاح يقتاد انقيادا تاما لعاطفته التي كانت تجمع به نحو الخير تارة ونحو الشر اخرى فلا تسمح له بالبقاء عند الحق الوسط •

فقد بدا لي رجعوا لهيبا من البرية وانزوا عتزال (وهو)

اما الوالي الحالي فقد كان من معاليك الجزار واسمه سليمان (١٤) عذب الحديث جميل الخلق وحسن الشمائل • ويسرد الاول يهودي (١٥) على شيء عظيم من الجدارة كما يسرد و

دير الكمارك يهودي ايضا استنف الاسلام واستهدف لحادث شعوذة غريب • لاحظ نفر من مخطف الاشخاص قبل وصولي بايام قليل ان وابلا من الحصى كان يتساقط في كثير من الليالي على سطح بيت الدير ولم يتسنّ لاحد ان يتبين مصدرها • فاقيم بعض الحرس على السطح وحول البيت غير ان الحصى ظلت تسقط كالمعتاد •

كنت مقيما في البيت المجاور لبيت الدير • فسألت عن ذلك بعض الجنود المكلفين بالحراسة فاريني عددا من الحصى فتبين لي انها من النوع الطبشوري المحلّي • فادركت بسهولة انها حيلة تلعب عليه لانه كان ملوطا بخفي • ورا • الباب الموصد • وفي الليلة التالية جا • في احد الحرس بحجر زنته نحو ثلاث بوندات • واطلعني انه سقط على ظهره بشدة مستعرا فتأكد لي ان الجنود كانوا شركا • الظاهرة العجيبة المتعلقة • فكلمتهم بجد واقطع بعدئذ سيل الحصى عن ملهذ محمد الجديد •

يضم الاوروبيون في عكا بحريّة زائدة ودرجة عظيمة من التقدير ان من جهة الحكومة او من جهة الشعب • والاخير خليط من الاعراق والعرب •

تقع المدينة الى الطرف الشمالي من جون كبير وتتجه جنوبا • كان البحر لا يطاق اثنا • اقامتي فيها • يظهر جبل الكرمل في طرف الجون الجنوبي وهو قليل الارتفاع ويمتد باتجاه شرقي غربي نحو البحر •

يحتل دير الروم نفسه الغربية المجاورة للبحر • هذا الدير على اسم مار الياس • وهناك دير كاثوليكي كبير على مسافة وجيزة نحو الشرق على اسم القديسة ذاته . عند منتصف الطريق تحت الدير اليوناني جامع على اسم النبي عيله • يدعى الخضر هنا (١٦) •

الى الشمال الشرقي من الديرين تقع قرية حيفا وكان رسو السفن الكبرى قريب منها

بالنظر لرغبتي بالتوجه الى الناصرة الخميس في ٦ آب فقد ازعجت امامي الصعوبة الخاصة على امل ان الحق بها برفقة بعض الاخوان بعد ساعتين • فيراني عندما ازعجت على السير شعرت بتشنج واضطراب وزاد في خطورة الحال ان صندوقة الادوية كانت تسبقني مع باقي الاعتعة • فيراني اذ كنت اصطحب دوما بعض الحقنات (١٧) اسرعت بتناول حبة ساعدتني على التخلص من كمية وافرة من الصفراء • ثم اخذت مسهلا واخيرا تناولت بعض الحقنات وعلى الاثر شعرت براحة استمرت طيلة الليل • وقد انتابني هذا العارض للمرة الثالثة في برهة ٣٨ يوما • الاولى كنت في القاهرة والثانية في القدس • تركت عكا برفقة بعض الاخوان في السابع من آب عند السادسة صباحا وقد اتجهت شرقا في عرض السهل •

بعد ساعتين توقفنا في المنطقة الجبلية وسرعان ما رأينا انفسنا في غابة باسقة الاشجار قائمة بين الجبال • وكانت القرى والاكواخ مع حقولها ومواشيها تتنوع شكل الطريق • لم يتيسر الماء الا في الابار •

واذ كنت لا ازال اشعر بالضعف اخذنا نسير البهيمي ونتوقف بعد كل ساعتين

عند المحطة الاولى انعطفت بنا الطريق نحو شرق الجنوب الشرقي •

وقبيل وصولنا الى الناصرة مررنا بالقرب من مزار قائم على رابية يقال انه بيت والدي العذراء مريم (١٨) • ولم نصل الى الناصرة حتى الرابعة بعد الظهر • وقد امتدت بنا الطريق عشر ساعات بسبب المحطات العديدة التي اضطررت لها • تقطع هذه المسافة عادة من عكا الى الناصرة في مدة ست ساعات •

توجهت الى دير الرهبان الفرنسيسكان رأسا لانزل هناك • وهو مبني مكان البيت الذي زاره فيه الملاك جبريل مريم العذراء •

.../...

قاصرة الجليل (١٩) بلدة مفتوحة غير محصنة وهي قائمة على سفح رابية تتجه نحو الشرق • ويبدو ان عدد سكانها تعادل اسرة •

يمكن تقدير المسلمين فيها بخمس التسعة من الارقام التي حصلت عليها وظلهم عدد المسيحيين • وليس في مظهر البيوت ما (يستحق) الملاحظة فهي مبنية على سفح الجبل • وفي حالة هذه فان الاهلين يستفيدون من هذا الوضع فيحفرون (قبل البناء) ويقوم كل بيت بهذه الطريقة على طبقة تحت الارض •

عدد الذكور ٤ بين النصارى يفوق بكثير عدد باقي الطوائف • غير ان الوئام التام يسود بين جميع الافراد من مختلف المحل •

تخرج المسلمات سافرات • اما الاعياد والالعاب والملاهي فانها مشاعة للجنسين ولافراد مختلف المحل •

اللحوم والخضر والاثمار هي من الصنف الجيد •

يصنعون هنا خبزا ممتازا وعلى الاخص في الاديرة حيث الماء ايضا ممتازة • وهي تأتي من نبع في طرف الحديقة الشمالي الشرقي • والدير ايضا صهاريج بديعة لما المطر وحديقة صغيرة •

يتمتع الرهبان بقدر من الحرية مساو لما في اى بلد اوربي • فهم يحملون على الاسرار المقدسة الى المرضى • وهم محترمون جدا من افراد باقي الديانات • ولا بد من التصريح وفقا للمعلومات التي استقيتها ٤ بان السلوك هو لدى الرهبان عالي حقا ٤ وجدير تماما بالاكرام الفائق الذي يتمتعون به •

الدير صرح بديع وفسيح حسن التوزيع ويتين الى درجة يمكن استعماله مركزا عسكريا ممتازا . وسط الكنيسة الفاتنة والطريفة معا ، درج من المرمر كبير وفخم يؤدي الى المغارة التي تم فيها سرّ التجسد العظيم . والى الجانبين درجان ضيقان يصعدان الى المذبح الكبير المركز على الصخرة . هذا الصخريو لمذهد القبر . جوقة الرهبان تحتل المكان الخلفي وبذا تصبح الكنيسة على ثلاثة مستويات . مستوى المغارة وهو الادنى ومستوى صلب الكنيسة وهو الوسطي ومستوى المذبح الكبير وهو الاعلى . وهناك ايضا مستوى رابع فوق مستوى الجوقة وهو اشبه بمنبر وضع عليه ارغن ممتاز يصعدون اليه بدرج من مكان الجوقة . جميع هذه المستويات قائمة على الصخر . وفي المغارة منزل مربع فخم القرميد في وسطه مذبح مظلل من المرمر الابيض البديع قائم على اربعة اعمدة صغرى ووراءه مذبح اخر . وهناك درج ضيق منحوت في الصخريو الى مغارة ثانية يقال انها كانت مطبخ بيت العذراء . نظرا لوجود وقيدة او مدخنة في احدى الزوايا . ويمكن الصعود الى الدير بدرج اخر شبيه بالاول .

تتألف هذه الرهبنة من ثلاثة عشر راهبا تسعة منهم ومن جملتهم الرئيس اسبان .

يقرّ المسلمون بعذرية مريم وتجسد المسيح العجيب بروح الله بواسطة الملك جبريل . وهذا المكان المقدس بذلك السر العظيم يفوز باحترام المسلمين الذين كثيرا ما يؤمونه للصلاة . وقد شاهدت بعيني يوما عددا من القرويين المحمديين قادمين باحتفال تراتيلهم الدينية ليقدموا ولدا الى العذراء وليقصوا شعره في العيد لاول مرة .

على مسافة نصف فرسخ الى جنوبي الجنوب الشرقي من المدينة ، مكان يدعى النبوة وهو حقا جبال الناصرة الى وادي استرلون (٢٠) (Estrelon) وقد رأيت هنا جبلا كانه قد عاد يا من قمته الى قعر الوادي . ويشير القليد (٢١) .

.../...

الى ان اليهود قادوا المسيح الى هذا الموقع ليلقوه الى الاهوية الا انه توارى عن ابصارهم • يذهب الرهبان الى هذه الاهوية في بعض المناسبات لاقامة الذبيحة احيانا ، اذ هناك مذبح منحوت في الصخر تحت القمة بقليل • تتوجه اليه الرهبانية بكامل هيئتها يرافقهم الاهلون مرة كل عام لاقامة قداس احتفالي • ولهذا فقد حفر معرفي وسط الاهوية •

وادي استرلون (كذا) (Estrelon) فسيح يشتمل على عدة قرى • في هذا المكان وقعت معركة الناصرة المشهورة • (٢١) •

اعلنت الاخبار الواردة من القدس ان الحفتي القديم الذي كان قد انسحب الى ضيع داود تمكن من جميع البدو ودخل المدينة • وذكر ايضا انه حاصر القلعة التي لجأ اليها المفتي الجديد والحاكم وانه هاجم في الوقت ذاته دير المخلص او البقعة المقدسة انتقاما لنفسه من الرهبان وحبا بفرض الجزية عليهم •

يكفي بالاستناد الى ادق المعلومات اعطاء الارقام الاتية عن الرهبان اللاتين في الارض المقدسة • وكان آنذاك عددهم في الاديرة المختلفة كما يلي (٢٢) •

٤٠ في دير المخلص في القدس وبينهم ٢٥ من الاسبان
١١ في القبر الاقدس وبينهم ثمانية من الاسبان
١٠ في دير القديس يوحنا وجميعهم اسبان.
٣ في الرملة او الرامه (كذا) كلهم من الاسبان
١٠ في بيت لحم سبعة منهم من الاسبان •
٤ في يافا كلهم من الاسبان
٤ في عكا واحد منهم اسباني
١٢ في الناصرة تسعة منهم من الاسبان
٦ في دمشق كلهم من الاسبان
٩ في حلب كلهم من الطليان
٣ في طرابلس والعويسه واللاذقية كلهم من الطليان

٥ في الاردن من اصل قبرص كلهم من الاسبان .
٣ في ليكوسيا من اصل قبرص كلهم من الاسبان .

المجموع ١٢٤ راهبا بينهم تسعة وسبعون اسبانيا .
يظهر من اللائحة اعلاه ان غلبة الرهبان عقوبيا في الديار المقدسة هم من اصل اسباني .

في صيدا ديرللرهبان الفرنسيين الا انه لم يكن فيه احد آنذاك . (٢٣)

وهناك اربعة منازل دينية عدا ما ذكرت في الشوق ولكنهم خارج دائرة الاراضي المقدسة (٢٤) . وهم دير اسطفول يضم اربعة رهبان من الاسبان ودير القاهرة وفيه ثمانية من الطليان وهناك واحد في الاسكندرية يقطنه اثنان من اهل البلد . ودير رشيد وفيه طلياني واحد ومجموعهم خمسة عشر راهبا اربعة منهم اسبان .

عقيد الرهبان في الارض المقدسة يدعى "الجزيل الاحترام " والقابه هي الاتية : " القاصد الرسولي " (٢٥)" وحافظ الارض المقدسة وحارس جبل صهيون والقبر الاقدس " يعطي الرتبة الكنسية ويدعم بالاكرام الاسقفي واعتبارات الاساقفة دون ان يكون اسقفا.يشغل هذا المركز دائما طلياني وهو يبدّل كل ثلاث سنوات . وكان يدعم بهذا اللقب عندما كنت هناك احد الفابرانيين اسمه بونافنتورا دي تولا .

رئيس الرهبان الثاني يطلق عليه لقب النائب ويشغي ان يكون فرنسيا دوما وها ذلك فهناك مجلس اداري يتألف من اربعة اعضاء . فرنسي واسباني والماني وايطالي .

فالمبالغ التي تصل من اسبانيا يعنى بامرها المدبّر العام . يعاون المدبّر العام وكيل عام . ينبغي ان يكون الاثنان اسبانيين . اما المبالغ التي ترد من البلدان الاخرى فيعنى بامرها المجلس .

٥ في الاردن كامن اعمال قبرص كلهم من الاسبان .
٣ في تركيا من اعمال قبرص كلهم من الاسبان .

المجموع ١٢٤ راهبا بينهم تسعة وسبعون اسبانيا .
يظهر من اللائحة اعلاه ان غلبة الرهبان تركيا في الديار المقدسة هم من اصل اسباني .

في صيدا دير للرهبان الفرنسيين الا انه لم يكن فيه احد آنذاك . (٢٣)

وهناك اربعة منازل دينية عدا ما ذكرت في الشرق ولكنهم خارج دائرة الارض المقدسة (٢٤) . وهم دير اسطفانوس يضم اربعة رهبان من الاسبان ودير القاهرة وفيه ثمانية من الطليان وهناك واحد في الاسكندرية يقطنه اثنان من اهل البلد . ودير رشيد وفيه طلياني واحد ومجموعهم خمسة عشر راهبا اربعة منهم اسبان .

عقيد الرهبان في الارض المقدسة يدعى "الجنيل الاحترام " والقابه هي الاتية : " القاصد الرسولي " (٢٥)" وحافظ الارض المقدسة وحارس جبل صهيون والقبر الاقدس " يعطي الرتبة الكنسية ويهتم بالاكرام الاسقفي واعتبارات الاساقفة دون ان يكون اسقفا.يشغل هذا المركز دائما طلياني وهو يبدّل كل ثلاث سنوات . وكان يهتم بهذا المنصب عندما كنت هناك احد الفرنسيين اسمه بونافنتورا دي نولا .

رئيس الرهبان الثاني يطلق عليه لقب الطائب ويجب ان يكون فرنسيا دوما وهنا ذلك فهناك مجلس اداري يتألف من اربعة اعضاء . فرنسي واسباني والماني وايطالي .

فالمبالغ التي تصل من اسبانيا يعنى بامرها المدبّر العام . يعاون المدبّر العام وكيل عام . ويجب ان يكون الاثنان اسبانيين . اما المبالغ التي ترد من البلدان الاخرى فيعنى بامرها المجلس .

ينبغي ان تدفع وفقا للنظام الاساسي نصف نفقات الاديرة والكنائس في الارض المقدسة من المساعدات الاسبانية والنصف الاخر من المساعدات التي تؤديها بقية الدول وكانت آنذاك تدفع جميع النفقات من الاعتمادات الاسبانية بسبب انقطاع بقية الدول عن ارسال مساعداتها • وكان الاسبان قد دفعوا من خزينتهم علاوة على ما يترتب عليهم اكثر من مليون غرش • وكان السوء الحظ ان مرّت ثلاث سنوات دون ان تصل اية دفعة من اسبانيا ولذا فان المدبّر العام وجد نفسه في مأزق حرج ، زادته حراجة انفصالات الاعراك وعنفهم •

تقدم الاديار شهريا لوائح حساباتها الى المدبّر العام بعد ان يقرها افراد الرهبنة جميعا ويوقعوا عليها • وهو يقدم لائحته الى المجلس كل اربعة اشهر • وبهذا النمط يسود النظام التام وخلوص النية في اداتهم العالية •

يتمتع الرهبان بحسن المعاملة والمأكل والملبس • اما تنظيمهم فهو ممتاز وتصرف امورهم بفطنة وحكمة • ويراقب مسراهم بدقّة • وبسبب ما تقدم فان المسلمين ينظرون اليهم نظرة التقدير • غير ان الاروام وباقي المسيحيين المشرقيين يكرهونهم لان هؤلاء يهدفون الى التمرد بملكية الاماكن المقدسة ولذا فهم لا يفتكون عن الدس عليهم •

يرسل الرهبان الاسبان الى الارض المقدسة لمدة ست سنوات والطليان لمدة ثلاث •

اما الضرائب المعينة التي يدفعونها سنويا الى الحكومة التركية وفقا لاتفاقيات القائمة فهي كما يلي : (٢٦) •

الى والي الشام	٧٥٠٠٠ غرش
اليه عن دير دمشق	١٥٠٠٠ "
الى والي عكا	١٠٥٠٠٠ "
المجموع	١٨٥٠٠٠ غرش

وهم مجبرون ايضا على دفع الضرائب غير العادية من ترضيات الحكام الى الاشخاصيات الخاصة وغيرها . فقد ابتز منهم طغاة القدس وحده اربعين الف غرش في مدى ثماني سنوات .

على ادبار الارض المقدسة ان يقدموا الرهبان لخدمة القبر الاقدس ٥ . ولذا فان رجال الدين يغيرون كل ستة اشهر وهي المدة التي يتوجب على كل راهب ان يقضيها في دير القبر الاقدس . غير ان بينهم من يمكنون هناك بضع سنوات من اندفاع تقوى . اما حبر الناصرة فقد عاش هناك ست سنوات .

ولا بدّ لي من الاقرار بان هذا الدير على ما فيه من غمرة الكآبة وضيق النفس يظل مقبولا لولا جوار الرهبان (الدراويش) الصلعين الذين عشرف نوافذهم على المعبد والدير . وهؤلاء بفضل ما تعودوا الحصول عليه من حلوان وهدايا الرهبان المسيحيين ولكونهم في اشتباه دائم لزيادة الكميات المخصصة لهم لا يهملون اية وسيلة توصلهم الى غايتهم وكلما احتاج الرهبان الصعود الى السطح بقصد اصلاحه فعليهم الاستئذان من جيرانهم حتى ان اولادهم يحصون الرهبان وبالاختصار فلا يتورعون عن اي نوع من الاهانات لاجبار الرهبان على دفع ثمن حدوء بالهم . ثم انه يقصد ازعاجهم في طور ديرهم اقحمت اروقة الدير وكنيسة القبر بالعيارب التي تفيض عند سقوط المطر على البهاء الذي قد اصف عهدهم وهذا ما يبقي في الاعكسة التي يصعب جريان الهواء فيها وطويسة دائمة خطرة .

ان معظم الالبسة التي يرتديها الرهبان تأتيهم من اسبانيا وايطاليا . تصنع اغفالهم في البلاد بالجلد الذي يستورد من اسبانيا . وبالاختصار يمكن ان يقال ان عصارى الدائغين الذين قلبوا العالم فيما مضى للحصول على الاعكسة المقدسة اعطوا تلك الاعكة في الظرف الحاضر حتى انه لولا اسبانيا لما وجدت اي مؤسسة لديهم عهما صغر شأنها في كل البلاد المقدسة .

.../...

وهم مجبورون ايضا على دفع الضرائب غير العادية من ترضيات الحكام الى الاقصابات الخاصة وغيرها . فقد ابتز منهم مغتي القدس وحده اربعين الف قرش في مدى ثماني سنوات .

على ادبار الارض المقدسة ان يقدموا الرهبان الخدمة القبر الاقدس ٥ . ولذا فان رجال الدين يخيرون كل ستة اشهر وهي المدة التي يتوجب على كل راهب ان يقضيها في دير القبر الاقدس . غير ان بينهم من يمكنون هناك بضع سنوات من اندفاع تقوى . اما حبر الناصرة فقد عاش هناك ست سنوات .

ولا بدّ لي من الاقرار بان هذا الدير على ما فيه من غمرة الكآبة وضيق النفس يظل مقبولا لولا جوار الرهبان (الدراويش) الصلعين الذين تشرف نوافذهم على المعبد والدير . وهولاء ، بفضل ما تعودوا الحصول عليه من حلوان وهدايا الرهبان المسيحيين ولكونهم في في اشتها ، دائم لزيادة الكميات المخصصة لهم لا يهملون اية وسيلة توصلهم الى غاياتهم وكلما احتاج الرهبان الصعود الى السطح بقصد اصلاحه فعليهم الاستئذان من جيرانهم حتى ان اولادهم يحصون الرهبان بالاختصار فلا يتورعون عن اي نوع من الاهانات لاجبار الرهبان على دفع ثمن هدوء بالهم . ثم انه بقصد ازعاجهم في طرد يرهم اقحمت اروقة الدير وكنيسة القبر بالميازيب التي تفيض عند سقوط المطر على البهاء الذي غدا يصف مقدم وهذا ما يبقي في الاعكسة التي يصعب جريان الهواء فيها وطيسة دائمة خطرة .

ان معظم الالبسة التي يرتديها الرهبان تأتيهم من اسبانيا وايطاليا . تصنع اغفالهم في البلاد بالجلد الذي يستورد من اسبانيا . وبالاختصار يمكن ان يقال ان نصارى الالمانيين الذين قلبوا العالم فيما مضى للحصول على الاعكسة المقدسة اعطوا تلك الاعكسة في الظرف الحاضر حتى انه لولا اسبانيا لما وجدت اي مؤسسة لديهم مهما صغر شأنها في كل البلاد المقدسة .

.../...

صحيح ان فرنسا تساهم في دعمهم عن طريق سفيرها في الاستانة الا انها لا تقوى على منع الحكام الاتراك من انتضاء السيف وتسليطه باستمرار على رقاب الرهبان في القدس بقصد ابتزاز المال منهم . فهم في عذاب مستديم وهم بالفعل شهداء غيرتهم . ان القاصد الرسولي او حافظ الارض المقدسة يتمتع بالحق المطلق في تسليح فرسان القبر الاقدس (٢٧) .

وحيث ان حلول الرهبان اللاتين في الارض المقدسة ينتج عنه الفوائد الكبرى لاهل البلاد فلا اخافه من توصية مختلف الحكومات الاوروبية خيرا بذلك . ان الفريقات الدينية ينبغي ان تنزل امام عين الفيلسوف الذي يهدف الى خير الانسانية . هذا هو الشعور الذي كان رائدي دوما وقاد قلمي . فلن السهل تحسين ظروف هؤلاء البؤساء ضحايا غيرتهم الدينية ، وذلك بدون اللجوء الى التضحيات الكبرى .

.../...

الفصل التاسع عشر

الرحيل الى الشام — جبل الطور — نهر الاردن — الاراضي البركانية وصف الشام — الابنية القديمة — الاهلون — الجامع الكبير — الاسواق — الصابون

+++

تحسنت حالتي الصحية كثيرا اثناء اقامتي في الناصرة . وعليه توجهت الى الشام يوم الاربعاء في التاسع عشر من آب سنة ١٨٠٧ عند الواحدة بعد الظهر . وكنا جميعا على الخيل ٤٠ انا وخدمي . توجهنا شمالا وعند الغاية والربع وصلنا الى قرية صغيرة . فيها استرخصت من نفر من الاصدقاء شيعوني اليها . وبعد ان تعرجنا مرارا في الجبال وصلنا الى قانا المشهورة بعجيبة تحويل الماء الى خمر (١) . هذه البلدة القائمة على الجانب الغربي من جنوب غرب رابية منحدرة تضم نحو خمسمئة اسرة . بيوتها سيئة البنيان . وفيها عين بديعة ممتازة الماء .

تركنا قانا ونزلنا الى الشمال الشرقي ثم انحدرنا الى واد يوقع فيه جبل الطور وقد تركناه الى اليمين . هذا الجبل الشهير بعجيبة التجلي (٢) معتدل العلو . يظهر ان قمته تمتد امتدادا افقيا يسيرا اذا ما قيست الى العرض من المكان الذي كنت فيه . نزهنا على ما اعتقد وقعت معركة الطور (٣) . بعد ان تركنا السهل اخذنا نشق عددا من التلال وقد تبين لنا الطرف الشمالي من بحيرة طبريا (٤) وبحر الجليل بعد ما تركنا قرية نوبا (٥) (Soubi) الى اليمين .

بعد انحدارنا من هذه الروابي نحو الشرق عبرنا مجرى ماء عذبا . ثم بعد اجتيازنا حقلين (٥) وهي قرية صغيرة قائمة على سفح جبل اعرت بنصب الخيام بين البيادر. يقدرون اربع ساعات للرحلة من الناصرة الى هذا المكان . وقد وجدت عقربا ضخما في خيمتي .

الخميس ٢٠ آب —

طبعنا سيرنا عند الخامسة والربع صباحا باتجاه شرقي وعند وصولنا الى اسفل تلة شديدة الانحدار اضطررنا الى اجتياز صرح حرجي ضيق للغاية • فيه مجرى ما كان لا بد من عبوره عشرات واتفق عشرة مرة .كانت الى يمين الطريق عند قمة الجبل العبري على اسم جبل طارق ، تلمسة تهيئة التحصين حفارة المرتفع • غير انها زالت اليوم من الوجود (٦) •

عند مغادرتنا هذا المضيق وجدنا انفسنا على شاطئ • بحيرة الجليل تقريبا وطول هذه البحيرة نحو سبعة فراسخ من الشمال الى الجنوب وعرضها فرسخان • يحيط الجبال المرتفعة بهذه الصفحة البديعة من المياه ويوشح بالغيوم القليلة العالية على اشعة الشمس (وحدق) بها من الغرب مدينة طبريا بجامعها الكبيرة (الباخرة) ويحوض جبل الطور المتعالي على باقي الجبال المحيطة بها منظرا شائقا منعشا تزيده جمالة قطعان عديدة ترعى في كل حدب وصوب •

شاطئ شاطئ • البحيرة الشمالي الصخور البازلتية وسودا • وخيرها من نتاجات البراكين • واذا ما كانت باقي شواطئ • البحيرة متألفة من المواد عينها فيمكن الاستدلال من هذا ان بحيرة الجليل كانت فيما مضى فوهة بركان •

عند منتصف الشاطئ الشمالي خان او نزل كبير متصدع وهو يستعمل لنزول المسافرين (٧) ويستدل من اتقاضه انه بني من الحجر الاسود الصخر المنتشر على هذا الشاطئ • • وفي الجوار عدة حقول زيتونا •

ما كدنا نشرع بالصعود تجاه شطئ الشمال الشرقي حتى ظهر امامنا نفر من البدو على ظهور الخيل • فرادوا بالقرب منا عدة نصف ساعة • متصدين حينا ومتراجعين حينا آخر كانهم يبغون غارة علينا • فامرت قومي باعداد اسلحتهم بالتهيؤ للدفاع •

فرأى العدو الانسحاب اولى مع كون محيّاي لم تتألف الا من خادم وعبد واربعة مسلحين •

توقفنا عند التاسعة والربع صباحا في خان آخر يدعى العبي يوسف حيث لقيت قبيلة من جند عكا الحفاوة وصبوبجا بديعا يحتوي ما • مطر متازا •

على مسافة اربعين خطوة من هذا الخان انقاض صهريج قديم •
يروى العامة ان ابنا • يعقوب وضعوا فيه اخاهم يوسف قبل ان يبيعوه من التجار الذين حملوه الى مصر (٨) •

عدنا الى المسير عند العاشرة وانطلقنا باتجاه شمالي الشمال الشرقي عقبة وعرة تغطيها الصخور • وعند وصولي الى القمة تبين لي افق جديد وهو بحيرة الحولة الى شمالي الشمال الشرقي ومجرى الاردن المنخفض •

يزداد اتساع الارض عند مقلب الربوة التالي فنزلنا منحدرا خفيفا وسط الحقول المزروعة ووصلنا عند الواحدة بعد الظهر الى جسر يدعى قنطرة يعقوب على وادي الاردن(٩) •

بني هذا الجسر بالحجر ولا يزال صالحا رغما عن قدمه • وهو من ثلاث قناطر دقيقة الرأس • على طرفه الغربي قلعة قديمة تحتلها فصيلة من جند والي عكا الذي يعد حكمه الى هذا المكان • وعلى بعد مئتين خطوة من طرف الجسر الشرقي خان آخر تحرسه فصيلة من جند والي الشام • ورغما عن كون افراد الحاميتين جميعهم من الاعراق فان العلاقات بينهما كانت متراخية الى درجة توهم بانهما ينتميان الى امتين وسلطانين مختلفين • كذا استقلال الولاة والنفوذ المستحكمة في السلطنة العثمانية (١٠) •

يجري الاردن (١١) جنوبا ويبلغ اتساعه في هذا المكان ٦٤ قدما . ولا يبدو انه كثير العمق . مجراه سريع صاخب وماؤه جيد غير انه ساخن . يغطي الضفتين الغرار وغيره من النباتات العالية وهما محصورتان بالجبال . وبما اننا نحن المسلمين فكّن كراسة خاصة لهذا النهر فلم انس ان اشرب منه واغتسل فيه . وقد لحقت بنا في هذا المكان قافلة اخرى كبيرة تسير معنا بامان .

عندما كان خدمي يضعون خيمتي على ضفة الاردن اليسرى وجدوا عقربا اخر من نوع يختلف في وجهه عقرب الامس .

قررت القافلة التوقف لما اشيع بان والي الشام قادم بجيوشه نحو القدس . خوفا من الالتقاء به لانه في هذه الحالة سيصادرون شك الجمال لحمل امتعته .

الجمعة في ٢١ آب ــ

عند الرابعة والنصف صباحا قرّ رأي الغالبية استباق القافلة وترك جمالهم في مكانها . فانطلقنا ثلاثين خيالا نحو الشرق في عقبة كأداء تعترضها ارض فسيحة . يغطيها شجر السنديان وغيره من الاشجار المشتة الا اننا كلما تقدمنا كانت الغابة تزيد كثافة . وعند الخامسة والنصف بعد ان تركنا الى يسارنا جبلا مرتفعا وجدنا انفسنا على سهل مجدب وعند السادسة والربع توقفنا لتناول الفطور في خان نصف مهدم يدعى القنطرة حيث وجدنا بعض المياه المتبقية . (١٢)

تابعنا سيرنا عند العاشرة والنصف على السهل ذاته . ورغما عن التأكيدات التي تلقيناها عن سلامة الطريق اخطرنا مرتين بظهور البدو . وكانت الساعة الواحدة عندما دخل موكب خيالنا حرجا اخر صغير افترقنا بعد ان اجتزناه في طريق وعر وخطر الى اسفل قرية تدعى سمسم (سمسم) قائمة على مرتفع وصلناه عند الرابعة والنصف وبتنا ليلتنا في خان (١٣) .

.../...

ليست حقول الثلوج وأطالها من مظاهر الانهار البركاني غير صورة شاحبة عن القطاع الرهيبة التي قطعناها هذا النهار ٤٠ من الجسر يعقوب الى سمسح فان الارض لا تشتمل على غير الحجارة السوداء وصخور البازلت وغيرها من المقذوفات البركانية كلها سوداء داكنة ، فكأنك تتوغل في قطاع الجحيم . (١٤) .

وفضلا عن هذه المنتجات التي تغطي القطاع . بشكل صخور منفصلة او ركام ضخمة فان صفحة الارض منتشرة تماما تحت بساط من الحصى البركاني المتراوح الدائرة من الثلاثة القراريط الى الاربعة الى حجارة يبلغ قطرها القدم . وجميعها سوداء داكنة خرجت حديثا من الفوهة

فيرانه بالقرب من سمسح يلقى المسافر بطريقة خاصة مجموعة الشقوق والروابي البركانية الهائلة الحجم الى درجة تقشعر الابدان . ويزداد الذعر اذا ما القي الجبل على غارب الضيقة وتركت تتنقل حتى العهد الذي تقذفت فيه الانقال مجلجلة من حشا الارض . تحتوي الثقوب والشقوق التي يمكن العثور عليها دوما سود كالحبر و نتنا معظم الاحيان .

هناك دلائل واضحة على ان جميع هذه القطاع كانت فيما مضى طريقة بالبراكين ، لاننا شاهدنا عددا من الفوهات الصغرى عند اجيازنا السهل .

ومن غرائب المفاجآت ان هذا المنبسط يحده الى الشمال جبل ترتفع قمته العالية الى خط الثلوج الدائمة ويدركه الشتاء الدائم فوق الشقوق العليا للبركانات القديمة . ولا بد من التنويه بان الثلوج كانت خفيفة في هذا الوقت من السنة على المنقلب الجنوبي من الجبل .

.../...

السبت في ٢٢ آب ـ

كنا في الطريق عند الخامسة صباحا نتجه شمالا شرقيا على سهل طبشوري كان يمتد بطريقة غير ملحوظة تقريبا على ضفة نهر صغير . وبعد ساعتين ونصف دخلنا خانا يدعى خان الشيخ (١٥) (كذا) ومن هذه النقطة يمكن الاستدلال ببعض العلامات على اقترابنا من جوار عاصمة كبرى بالنظر لعدد البلدان والقرى التي تظهر في كل الاطراف .

عند الخامسة والنصف بعد ان صعدنا بعض التلال التي كانت تحدّ الافق تبينت سهلا فسيحا الى الشرق تمتد الجبال شمالا . وقد لاحظت احدها بوجه خاص وكان منعزلا عن الباقي وهو هرمي الشكل عظيم الحجم في اسفله (١٦) بانت لي مغارات الجوامع في قلب دمشق ، وسط حدائق لا تحصى . وتنتشر في السهل بعض القرى التي تكتنفها الاشجار والحدائق .

وصلنا قرية داركا (كذا) [داريا] ؟ عند الحادية عشرة وهي واقعة وسط جنائن دمشق فاسترحنا فيها بضعة دقائق ثم واصلنا السير وعند الثانية عشرة والنصف وصلنا الى البيوت الاولى من المدينة التي يدعوها العرب " الشام " .

ان المسافر الذي يقترب من دمشق يخيل اليه انه يرى مضيا شاسعا من خيم العرب المضروبة الشكل والتي تعلو من عشرة الى اثني عشر قدما عن الارض . الا انه كلما اقترب يتبين له ان تلك الخيام ليست سوى عدد لا يحصى من القبب المضروبة . وهي سطوح الغرف في بيوت الضواحي . هذه القبب البيضاء تشبه بيوت الحمام في مصر وهي بحجم تلك البيوت وقد وصفتها سابقا (١٨) .

.../...

وما هي الغاية يا ترى من هذا البناء الغريب ؟؟ لدى التدقيق سرعان ما يتبين لنا انها كبيرة الفائدة حتى انها لا غنى عنها . فالبيوت مبنية من التراب او من اللبن المصنوع من روث الدلغان والقش المجفف في الشمس . وبما ان فصل الشتاء كثير الامطار في هذه القطاع فاذا كانت سطوح البيوت مسطحه مغطاة فقط بالاجر المصنوع من اللبن كان لا بد من اعادة بنائها كل سنة وبنتيجة لهذا فان الضريبات الوافرة الارتفاع تقوم على مقاومة الامطار فلا تتحطل لان الماء تنقلب عنها عاموديا تقريبا . تعلى هذه القبب وباقي البناء بطلاء من الحواري البيضاء الغائرة الى الحمرة . وهي شديدة التعريسة وتسبغ عليها مشهدا طريفا للغاية .

اما البيوت داخل المدينة فانها مبنية من مواد اقوى وهي مرة لغة عادة من طبقتين سطوحها مسطحه كما هي الحال في مدن افريقيا . نوافذها قليلة وابوابها صغيرة وواجهاتها غير مزخرفة . ان هذا المظهر اذا اضفنا اليه الصمت المسيطر على الشوارع يعطي المدينة مظهرا وحشيا خاملا .

الشوارع حسنة التبليط ولها الارصفة العالية من كل جانب وهي متناسبة العرض غير انها ليست مستقيمة التخطيط .

من الشائع عند عموم اهل البلاد ان مدينة دمشق (١٩) تحوي اربعمائة الف من السكان لا شك ان هذا التقدير مبالغ فيه غير انني مقتنع ان سكان المدينة والضواحي والحدائق يبلغون خمسمائة الف يقدر بينهم خمسون الف مسيحي كاثوليكي وخمسة آلاف من المتشيعين والفاسرة يهودية . وعكس هذا يصح في جميع مدن الشرق تقريبا حيث عدد المتشيعين يفوق عدد الكاثوليك بكثير .

.../...

الجامع الكبير (٢٠) فتح بسبباتساعه . خارج المدخل فسقية في غاية الفخامة تقذف ماءها الى طوعشرين قدما • حول الفسقية مقهى دائم الازدحام بخاصلي المدينة •

داخل الجامع دار فسيحة تحيط بها الاروقة والقناطر القائمة على الركائز المربعة وفي وسط الدار فسقية اخرى تحيط بها الحدائق من كل جانب •

من هذه الدار يدخلون الى متن الجامع الذى يشتمل على ثلاثة صحون فسيحة للغاية تمتد من الشرق الى الغرب وتتألف من قناطر دقيقة الرأس قائمة على اعمدة او ركائز كبيرة • في كل صف منها اربعة واربعون عمودا غير متساوية تماما • يبلغ طول هذه الصحون نحو ٤٠٠ قدم •

في متوسط الصحن الوسطي وهو اكبرها اربع ركائز ضخمة تتركز عليها قبة مجرية كبرى • ما بقي من الجامع مسقوف بالاخشاب •

وضع الصحون معترضا ان طولها يشكل زاوية مستقيمة وبانحطاط الصحن الى غاية الجامع •

في قلب الصحن الطولي مكان مربع تحيط به الحواجز الشبكية التي لا تفتح الا عند اقامة الصلاة • في هذا الشكل الذى هو اشبه بالاقطش (مجسد) المحراب النبوية وتكتنفه قبلتي الارتفاع وضعت عليها المصاحف الكبرى للقراء وتؤمها مركز المنشدين • وهذا المكان مخصص باتراد المذهب الحنفي وهو مذهب الاتراك • ارضه مزينة بابدع السجاد وباقي البلاط عار هنا ويحتل هناك بالسجادات الكبرى الخلقة • والى يمين هذا الصحن محراب امام المذهب الشافعي •

الى يسار الصحن الوسطي مقصورة خشبية صغرى مزدانة بالنقوش المشبكة والطلاء الذهبي وعلى الذهب والزخارف الجميلة • وهو يشتمل على ضريح النبي يوحنا بن زكريـــا •

.../...

وهناك عدد من الاطارات الحديدية والخشبية على شكل اقفاص تتدلى من سقف الجامع في كل نواحيه . وهي مخصصة لاحتواء المصابيح الصغيرة اثناء ليالي الزينة .

اما الجوامع الباقية فهي جديرة بالوصف .

دمشق خالية من الفسحات او الساحات العامة مثل باقي المدن الاسلامية .

ان عادة استبقاء الفسحات الطلقة وسط المدن لتهويتها وتزيينها مجهولة عند المسلمين . ان الحاجة الاشد لانتاء اشعة شمس الدافئة المليء صرفتهم الى الاختصار من عرض شوارعهم حتى يسهل تظليلها باوراق الشجر . فيرى في دمشق بعض الشوارع المعتدلة السعة . وعلى الاخص في الحي الذي تقوم فيه السرايا او قصر الوالي . وتحدق البيوت بهذا البناء اعداقا تاما حتى ان المدخل الرئيسي الكبير هو كل ما يرى .

تواجه القلعة قصر الوالي وبينما كانت لنوع الترغيب في روع الاهلين ، الا انها بديعة الفائدة ضد العدو الخارجي لانها واقعة وسط المدينة ولها صف واحد من الاسوار التي تعلو القليل من البيوت المحيطة بها من كل جانب (٢١) .

تباع المواد الغذائية مع البضائع في الحوانيت القائمة على طرفي الشارع . هذه الاسواق وافرة المواد المغلية . ويظهر في بعض المخازن تشكيلات من مختلف الاصناف التجارية .

وبالرغم مما تتناقض (هذه الوفرة) مع فقر حوانيت القاهرة ودمشق وغيرها وبخس محتوياتها اذ يبدو التاجر هناك مرغما على بيع المواد التي يبغي التخلص منها .

ان حوانيت دمشق بالنظر لاتقانها هي بالدرجة الاولى مخازن الحرير وهي وافرة العدد وفيها المصنوعات الهائلة • يمكنك ان تجد هنا اقمشة البعد وفارس البديعة غير ان معظم الاقمشة من المصنوعات المحلية • وهذه المواد هي على درجة من الوفرة حتى ان هناك عددا من شوارع المخازن المسقوفة تبها من طرف الى طرف • ويقدر ان في دمشق اكثر من اربعة الاف حائك للاقمشة الحريرية والقطنية في دمشق • الا انهم لا يحيكون الكتان وفي الواقع فان الاول لا ينوع في البلاد •

الاسواق على العموم مغطاة بالسقائف الخشبية التي تفتح في اعلاها الكوى وقد تم حديثا بناء سقيفة بديعة فجاء السوليا وقد شاهدت هنا حانوت ساعاتي عين كان يعمل في ساعة حائط •

يخيل الي ان حوانيت السروجيين اوفر عددا من غيرها بعد مخازن الحرير والقطن وهي تحتل الدرجة الثانية في الاهمية في المدينة • وقد لاحظت عددا كبيرا منها ووجدت في بعضها مصنوعات تتم من مهارة فائقة • تشغل خانات الصاغان نشاطها الواسع لان تركيا ومصر وافريقيا والحبشة تستهلك الجزائر • اما المصنوعات الجلدية فيشتريها العرب الضاربون في الصحارى الشاسعة من اطراف بغداد حتى المدينة • وليس لبولاء من سوق يستهلكون منها افضل من دمشق •

اما بائعو الاسلحة فهم ايضا يكونون قسما رئيسيا في هيئة التجار بالرغم من كون الصيقلة الدمشقية الشهيرة قد زالت من الوجود • اما السيوف المصنوعة هنا اليوم فليست في متناولها افضل من المصنوعة في تركيا • والسكاكين العادية تصنع هنا ايضا (٣٢) اما السيوف القديمة الصنع فانها تنتقل من يد الى يد وتعتبر غالية الثمن ومن البديهي ان تكون باهظة الثمن لهي تستند الى الرقبة فيها قصب • والسيوف المصنوعة في خراسان الشرقية تأتي بعدها في الدرجة •

يشغل اصحاب الصابون والحدادون والحذائون عددا كبيرا من الشوارع .
وهناك مصنع واحد للزجاج وهو لا ينتج غير النوع الاخضر الخشن من الاصوال التي عرفت على اثر
انعدام النشاط التجاري واغلاقه في هذا المكان جمهور العجارين المشتغلين على جدار السكة
في صنع الصناديق التي يوضبون فيها منتج الارض وصناعة الاهلين . ويقدر التاري كمية
هذه الصناديق المصنوعة والصفائح الفضية المعبرة الى بعضها البعض التي يمكن
من انتاجها حانوت واحد على جدار السكة . ثم ليتخيل حيا كبيرا من احياء المدينة تشغله
هذه الحوانيت بكاملة عندئذ يمكنه ان يكون فكرة ولو ما صحيحة عن الكمية الهائلة من الصناديق
المصنوعة في تلك المدة وفي الوقت ذاته من المقدار العظيم لمنتجات الطبيعة والصناعة
التي يصدرها هذا البلد الغني وذلك فضلا عن المواد التي لا تحتاج الى الصناديق .

ان الحشد الذي يملأ الاسواق يشكل حلقات غريبة مع جولة باقي شوارع
المدينة حيث لا مخازن او مصانع . في جميع الاسواق افران صغيرة دائمة الاشتغال بخبز
الكعك وغيره من اصناف الحلوى المختلفة .

حوانيت العجانين المنشأة في جوار الاسواق مزينة بالزخارف العربية بالمرايا
الكبيرة والصغيرة ذهبية النقوش او غير ذلك بقصد لفت انظار الزبائن . وهناك المقاهي
ايضا عامرة على جدار السكة اليوم . تشكل فيها مجموعات البيضان والسودان والخلاسيين
من مختلف درجات الالوان والاسم والديانات ، خلا الاوربيين يتمتعون هنا بالمساواة
التامة والحرية الكاملة . بعضهم يلعب الشطرنج او خلافه من الالعاب واخرون يدخنون
النارجيلة او الانبوبة العجمية .

وتحتوي الاسواق ايضا المحلات الفخمة المظهر . فالروسة الاولى
وهي عادة فسيحة يدخلها النور من نوافذ كبيرة تطل على الشارع وهي مسقوفة بقبة خشبية بديعة
تزينها الزخارف العربية وبدور حول الروسة رواق مرتفع فرشت عليه الفنائر . يستوي عليها

——— من خرجوا حديثا من الحمام ملفين بالاحرامات البيضاء نقيا • فيرى لفون مشهدا اولى باثارة الضحك • وسط الزحمة عادة فسقية عمومية يحضر العمال المشية على ظهر حمار يحمل المتاع الذي طهرها لتجفيفها •

وفي السوق ايضا عدد من الحوانيت لبيع المشروبات التي تتألف من السكر والزبيب والمشمش وغيرها من الاثمار •

اكثرما يحتشد الناس في الاسواق من الصباح حتى الواحدة او الثانية بعد الظهر وبعد تلك الساعة يقفل اكثر التجار حوانيتهم ويمضون • غير ان الصانع على طريقته يستمر الصناعون وبينهم عدد وافر من الاولاد والمتمرنين في اعمالهم طول النهار •

اما اسواق المواد الغذائية فتنافس في الغزارة اسواق البضائع بل تفوقها واصناف المواد المختلفة فاخرة • واني اعتقد اعتقادا جازما انه لا يوجد في العالم بلد اخر يفضلها في المأكولات • فهي سمينة اللحم رخصة لحمها وعظمها وقلوبها وجذورها غاية في المذاق • اثمارها بهية كريمة الحجم وهي وافرة العدد على مختلف انواعه ، دسمة اللبن والعسل • خبزها اكثر بياضا وافضل منه في اوربا •

ويمكن ان يقال بكلمة انها في العالم خير مكان لطعوم اود الحيوان • يحمل العربي اليها الخضرة اما الوقود الذي يحتطب من الحدائق والمزارع فوافر ويبخس الثمن غير ان حطب الاحراج مفقود نظرا لبعد المسافة •

• • • / • • •

الفصل العشرون

مياه دمشق ـ بحرة القيمة ـ العمارى ـ الحجارة ـ الحجات
الطلس ـ ايوان الخيل ـ الانهار ـ الماء ـ الصحة ـ الاعياد العامة
الحكومة ـ الحصيات ـ بدوعزة ـ
الصالحية

المياه في دمشق وافرة الى درجة ان كل بيت يحتوى على عدة احواض اما ما يبقى منها في السهل العامة فيستعمل فقط لرش الشوارع .

تزود هذه المياه جزءا من الاقنية قديمة التشعب . وقد شرحوها لي على الوجه التالي : (١)

تأتي مياه دمشق في نهرين يلتقيان ثم يتشعبان الى سبعة فروع توزع مياهها الى مختلف احياء المدينة .

يشق النهر الاول على مسافة ثماني ساعات غربي المدينة في مكان تقريبي يدعوه المعاصرون بردى وكان الاقدمون يدعونه العرفانه (Arfana) وهذا الموضوع غير صحيح فبردى مياه وما كانت تصلح للشرب لولا اختلاطها بالنهر المعروف بالفيجه . وكان يدعو الاقدمون (Farcana) ويجري بالقرب من قرية تحمل هذا الاسم وتبعد مسيرة خمس ساعات عن شمال دمشق .

ليس ينبوع هذا النهر غزيرا كالاول غير انها ممتازة وقد تكون افضل مياه سوريا . يلتقي النهران على بعد نصف فرسخ من نبع الفيجه .

بعد ان يجتمع النهران معا فيحملان اسم بردى يجريان نحو القسم وهي بلدة ضخمة تبعد ساعتين من دمشق هنا ان يشتعبان الى سبعة فروع • وقد زرت هذا المكان فاذا هو من اروع المشاهد الطبيعية التي يمكن ان تخطر في خيال • تتشعب المياه في مضيق تكتنفه الهضاب الوعرة • فيجرى الساعد الثالث المعروف بالبارباس (كذا) (Barjas)[بارياس] نحو قعر الوادى في مجرى النهر الطبيعي • اما السبعة الاخرى فانها تنصب شلالات متتابعة الارتفاع عن ضفتي (باريـاس)[بارياس]

يدعى الساعد الاول الجانبة (Pik) [بيك] وهو اعلاها جميعا واقصاها الى الشمال ويجرى الى بلدة صغيرة تدعى الصالحيه • وهي ملاذ بهيج يبعد عن دمشق مسيرة نصف ساعة بل هي من ضواحيها • هنا تقوم منازل الاعيان العظـــم امراء دمشق •

يدعى الساعد الثاني طورا ، وهو اكبرها ، وهو يروى كامل المنطقة الواقعة بين الصالحيه ودمشق •

يعين ساعد باباس او الساعد الثالث بالماء الجميل اقسام المدينة والضاحية الجديدة حيث كنت نازلا •

والساعد الرابع يحتفظ باسم بردى وهو يصبح جدران دمشق الشمالية • في مياه هذا الساعد يغسل الصباغون حريرهم وقطنهم وهم يدعون ان ذلك يجعل المواد اسرع امتصاصا للصباغ •

والساعد الخامس وهو القنوات يزود بالماء القسم الرئيسي من المدينة في الرقف المجاري التي توزعه في منطقة الاحياء الى السبل العامة والجوامع والحمامات والخانات والفنادق والمنازل الخاصة • وهو اكبر السواعد بعد طورا •

والعقرباني وهو السادس السواد يحون القسم الجنوبي وقسما من الناحية المحروسة بالميدان .

ويبلغ طول الدوارى (كذا) وهو سابعها نحو نصف فرسخ . وهو اقصاها الى الجنوب ويزور بقية الميدان بالمياه .

ولا بدّ من الملاحظة ان هذه المياه جميعها صافية شفافة الا عندما تختلط موقتا عند العواصف الكبرى .

بعد سقاية الناحية المجاورة تلقي هذه السواد ثانية بيردى في نقاط مختلفة ويصب بردى في بحيرة تبعد سبع ساعات عن دمشق .

تدعى هذه البحيرة العتيبة او بحيرة المرج (٢) وقد بلغ دائرتها نحو سبع اوضاعي فراسخ . ليس لهذه البحيرة عمق ظاهر ولذا فانني اميل الى الاعتقاد ان هناك عمقا تحت الارض لانها لا تزيد وقت الامطار ولا تنقص في الجفاف . وتحتفظ بالمستوى نفسه عند نزول الثلوج في اذار او نيسان وفي هذه الاونة تزداد مياه الانهر التي تصب فيها ازديادا عظيما . مياهها صالحة للشرب ، وتكثر في جوارها الغزلان والخنازير البرية وطيور الماء .

ومع ان المياه في سواد بردى جميعها صالحة للشرب الا ان الطبقة المسورة تلجأ الى نبع خاص مستمد من عمق مياه طوبه . وهي غاية في النقاء والنضارة والعذوبة . وكنت اشرب منها عادة مع انه كان في منزلي قنينة ماء مرصوصة بدقة في الحديقة اتقان وثلاثة في المكاتب وغيرها داخل البيت .

يبلغ بردى البدران الجنوبية من البيت الذي كنت اشغله وهو هذا يوفر لفضفضة من الماء عرضها ٥٧ قدما وعمقها لا يزيد عن القدم وذلك بسبب مطحنة كبرى منشأة هناك .

في دمشق ما يقرب على ٥٠٠ صرح فخم يمكن اعتبارها قصورا • غير ان فخامتها مقصورة على الداخل ولا تعبر واجهاتها عن باقي المنازل • وذلك شأنها لا سيما في قلب المدينة •

لكل من الطوائف المسيحية المختلفة معبدها • فهناك كنيسة مارونية ثم سريانية واخرى ارمنية وفيها ثلاثة ادبار للرهبان الفرنسيسكان احدها للفرنسيسكان الاسبان والاعضاء الاخران للفرنسيسكان الطليان • يحمل جميع الرهبان المذكورين لقب المرسلين ولبس للروم الكاثوليك [اي الكاثوليك] معبد خاص • فهم يقيمون شعائر العبادة في كنائس الادبار الثلاثة •

يعيش كهنة الروم الكاثوليك بطريقة غريبة فهم يتجولون بين الاهالي الذين يقدمون لهم العشاء والمبيت • وفي الصباح يقيمون القداس في البيت الذي قضوا فيه ليلتهم • ثم يقدم لهم الطعام ويتصرفون بعد تناول قطعة من القهوة بلغ ثمنها القرشين والنصف • وعلى هذا النحو من التنقل من بيت الى بيت يتيسر لهم قوتهم اليومي بما يحصلون عليه من اجر من اغنياء الاهلين •

يمكث الرهبان الاسبان في دمشق مدة اثنتي عشرة سنة يقضون ثلاثا او اربعا منها في تعلم العربية لانهم يحرّمون ويحلون بتلك اللغة • اما اخلاقي هناك كانت معاملتهم مقبولة نوعا ما على الرغم من شدة ضيقهم قبل ذلك •

كرسي بطريرك الملكية للروم في دمشق وهو الذي يقبض الهبات التي تجبى من مختلف المحل المسيحية في عامهم او زواجهم او دفنهم • فلا بد لهذه زواجهم من حضور كاهن بعينه لتلك الغاية (٣) •

في [دمشق] تعاني كنائس اليهود . وقد تأكدت آنذاك من حسن معاملتهم الا انه تبين لي ان تعصب اهل الشام يفوق تعصب اهل مصر . لانه لا يمكن لاحد ان الظهور في الشوارع بزي بلاده دون خطر عليه . فهو مجبر على اتخاذ زي اهل الشرق . ولا يتسنى لمسيحي او يهودي ركوب الخيل داخل المدينة حتى انه لا يسمح لهم باقتنائه حتى ركوبه عليه (٤) .

ان عدد الجوامع والمعابد لا يحصى فعلا ، الا ان ليس فيها شيء طريف خلا جامع التركمة (كذا) [تكية السلطان سليم] وهو في شمال غربي المدينة . وفيه مستشفى للفقراء المرضى . ترى في وسطه قبة فخمة يحيط بها عدد من القباب الصغرى . تجاورها منارتان باسقتان مرهفتان دقيقتا الرأس كالمسلة . يحيط بهما ايضا عدد كبير من القباب الصغرى . يضم المستشفى دوما عددا كبيرا من المرضى والمعتوهين المائسين الذين يقاسون ويلتمسون على نفقة المؤسسة .

في دمشق مثلما في مصر مستشفون . اما الاطباء اللذان يعتبران اقدامهم فيها الشطى ويحمد السوا . ويقدر رأس مال كل منهما في السوق باربعة الاف كيس او ما يعادل الخمسة عشرين فرنك .

تنقل بضائع التجارة عادة على القوافل واعظمها ما يلي : (٥) اولا قافلة مكة وهي اهمها . وهي تقوم برحلتها مرة كل عام عندما تسمح لها الظروف . غير انه بسبب غزوة الوهابيين انقطعت عن السفر+ . ثانيا - قوافل بغداد التي تقوم بثلاث او اربع رحلات في السنة يراقبها في كل منها اكثر من الفين وخمسمائة مسلح . تقطع المسافة عادة من بغداد واليها بثلاثين يوما . غير ان ساعي البريد يقطعها على الهجين باثني عشر يوما .

+ بعد ان استعاد الاعراب مكة والمدينة اخذت القوافل والحج تستعيد نشاطها (حاشية المترجم) .

اما قوافل حلب التي تقوم مرتين او ثلاثا كل شهر فانها تتم رحلتها باثني عشر يوما بينما السابق ينتهي هذا بثلاثة . وهناك عادة على ما ذكر عدد من القوافل الصغرى التي تصل بيروت وطرابلس الشام وحماه او تنطلق اليها والى انحاء اخرى .

حاجيات الحياة وان تكن وافرة غير انها دوما مرتفعة الثمن . وبسبب هذا وفرة النقود الناتجة من الحركة التجارية الكبيرة التي تسود هذه المدينة . واليكم لائحة باسعار المواد الغذائية سنة ١٨٠٧ :

رطل اللحم	٧٢	بارة
اقة الخبز الممتاز	١٢	»
اقة الخبز العادي	٨	بارات
رطل الزيت	١٠٠	بارة
الدجاجة	٥٠	»
الفرخة	٢٥	»
رطل الزبدة	باربعة او خمسة قروش .	

المكاييل والموازين مماثلة لما يستعمل منها في جميع انحاء تركيا . ففي الرطال ٦٠٠ درهم وفي الاقة ٤٠٠ وفي الاوقية خمسون .

والعملة هي ايضا عملة تركيا . فالقرش الاسباني والدولار الالماني يساوي كل منهما ١٨٠ بارة . الا ان عملة الاستانة اغلى من العملة هذه اذ ان القرش التركي يساوي ٤٥ بارة وكذلك نسبة باقي النقود . ويساوي سكة البندقية ٤١٠ بارات .

.../...

لاحظت ان الفيران هنا كبيرة الحجم الا انها لا تستخدم للاعمال الزراعية فالجواميس هي التي تعمل محلها .

اهم منتجات البلاد القمح والشعير والقطن والعدس والمشمش (كذا) (وقمر الدين) وهو نوع من المشمش المجفف والمشتق ويصنع انواع الاثمار . موسم الصيف قليل هنا غير انه من النوع الممتاز . اما ما يحتاجونه عادة لاموالهم فيستوردونه من البلدان المجاورة وكذلك القطن المستعمل فهو مستورد بكامله لانه لا ينزرع منه شيء في دمشق .

ان انتاج العسل وافر غير ان الاهلين لا يحرفون صناعة الشمع . فهم يصنعون منه الاطباق الصفراء فضلا وهي من النوع الردي للغاية . يستورد السكر من مصر واوربا اما الارز فمن مصر بكامله .

خصب الارض مستمر الى درجة لا يذكر الاهالي معها انهم مروا سنة من السنوات العجاف .

والفلاحون او اهل القرى عموما هم على شيء من السعة رغما عن الضرائب الباهظة التي تجبيها الحكومة وغيرها من الوف الاعتباطيات كأن يجبروا مجانا على ايواء الجيوش واطعامهم وغيره . فاذا كانت هذه الطبقة من الاهلين غنية فمن هذه الاقوال فكيف تكون حالتهم في عهد حكومة عادلة رحيمة الصدر .

ان اقليم دمشق معتدل على العموم . فهو غير شديد البرد شتاء . ورغما عن ارتفاع الحرارة في الصيف احيانا الا ان برودة الماء وظل الاشجار ونظام البيوت يعدل من حدتها . يسقط الثلج في المدينة بعض السنوات الا انه يسقط كل عام

على الجبال • وتهب الرياح شرقا وغربا دون ان يكون لها موسم خاص وقليلا ما تهب من الجهات الاخرى • ويندر ان تمطر من نيسان حتى تشرين الثاني • وهي تمطر بانتظام واعتدال ما عدا الاشهر الاخرى وذلك عند هبوب الرياح الغربية • يحدث ذبان الثلج عادة في نيسان واحيانا في اواخر اذار • سبق وذكرت ان قمم الجبال العليا مغطاة دوما بالثلج وليس يباع الثلج في دمشق باسعار معتدلة وهو بذلك يستعمل الحاجة للثلاجات • تباع في الحوانيت المرطبات الثلجية او المثلجة • غير انهم يجهلون طريقة صنع الثلج •

كانت الحرارة في الميزان تتراوح بين ٣ ° ١٧ و ٣٠ ° مئويين اذ هي واطئ بها •

كنت صائدا ان ارجال الذئاب والنمر والبرفنر صلاة المدينة •

غير انني دهشت وطربت معا لانعدام وجودها فيها الا انه يندر ان هناك نوعا من ذئاب الخيل مؤلم القرس جدا •

الحيات والعقارب قليلة وهي ليست من النوع الخطر •

البغال قليلة في الجودة والحمير ممتازة مثل حمير مصر •

حصلت على المعلومات الآتية فيما يتعلق بالجياد التي يحسن منها ستة (٦) انواع مختلفة • اولها الجلفة وترجع في نسبها الى العربية السعيدة او اليمن • خيل هذا النوع قليلة في دمشق غواته يوجد منها بين العرب في جوار غزة • وهي دهشة في سرجها بل هي خيل العرب الحقيقية وشيقة للغاية شديدة الحماس لا يظهر التعب عليها ابدا • تحمل الجوع والعطش طويلا • وديعة كالحملان • غير شموس ، لا تعض ولا تركس ، ولا تنفي من تشيرها وتسويتها • قوائمها مرتفع وصدرها عريض واذنها اميل الى الطول • ليست هذه اجمل الانواع غير انها دون

شك افضلها • والجواد قد يتم فيه اوصاف هذا الرسن ، وهي جميعها كذلك عند الثانية او الثالثة من عمرها يقدر ثمنه بالفي غرش تركي على الاقل •

والرسن الثاني وهو السقلاوي من قطاع الصحراء الشرقي • يطابق ما ذكرناه في الجلفه تماما على هذا الرسن • وهو يختلف عن السابق في صدره فقط • حتى ان العارفين بالخيل يوازون بينهما بصعوبة ويحتاجان تكاد تكون متساوية على ان الجلفه هي المفضلة •

ويسمى الرسن الثالث عندهم "آل مفكي" (Oal Mefki) (كذا) [ربما كانت تحريف المفتيحة] • وهي كاملة الجمال ، يرجع اصلها لا قاصي النوعين الاولين في سرعة الجري الا انها تفوقهما في الشكل الذي يظهر فيه تناسق الحصان الاندلسي البديع • وهي كثيرة الشبه به • اصلها خيل العرض دون جدال ، واستعمالها شائع في دمشق • ويوجد بها من الصفاري المطورة وتعد بالتالي بين الالف والالف وخمسمائة غرش •

والرسن الرابع يعرف باسم "آل سابي" (Oal Sabi) (كذا) [على الارجح فهي تحريف السبايه] وهي قريبة في شكلها من المفتيحة قرب السقلاوي من الجلفه • اي ان هذين الرسنين يكادان يتساويان في الجمال حتى يتعذر التفريق بينهما على اي كان خلا المطلعين الحاذقين • ولذا فان سعرها يتراوح عادة بين الالف والالف وخمسمائة غرش اذا لم يكن ما يشبهها عند الثالثة او الرابعة من عمرها •

والرسن الخامس يعرف بـ"آل طريدي" (Oal Tridi) وهو كثير الشيوع يأتي من جوار المدينة (دمشق) وهو الخيل البديعة الجيدة • غير انه لا بد من اختبارها والتعرف اليها جيدا لوجود عدد وافر من الشاسة بينها • وهي لا تتمتع بالصفات التي تثير الاعجاب في الارسان المذكورة • غير انها تتحصن بين الجيدة منها • وعندما يبلغ واحدها الثالثة او الرابعة يباع عادة بستمائة او خمسمائة غرش •

اما الرسن السادس الذي يأتي من جوار البصرة فيدعى آل مجدي (Ael) (كذا) ويحضر مادة من النوع المطار وان لم يلق الجلسة والسقاوي فهو على الاقل يضاهيها . ويقال هذا النوع غير معروفة تماما في دمشق ويوكد العارفون بامرها لا مضاهي وليه فان اسعارها اعتيادية ويرودها على الاقل قرش .

الخيل العربية السوداء قليلة وبعضها شهباء اللون مرقشة او كاشي .

لباس الاهلين في دمشق خليط من ازياء العرب والاتراك . والعباءة العربية العوفة المخطوط كثيرة الشيوع . اما القاويق او الطاقية العالية فللاتراك وحدهم وقليلا ما يستعمله العرب . ويغطي هؤلاء رأسهم عادة بطاقية حمراء هائلة الحجم تتدلى الى الوراء بما يزيد عن نصف القدم وتغشى الشال والوقية وكوفية من الشاش المخطط او من الحرير دائرة حول الرأس تحت القسم المتدلي من الطاقية . وهي من ازياء الرأس الغريبة المستهجنة .

ويلبسون فوقا من القصان (الجاكيت) البيضاء القماش المخطط بالاسود الوفير . وهي تشبه الجلباب المراكشي الا انها مهيئة من الوراء بخطوط مختلفة الالوان .

تخرج النساء ملفعات من الرأس الى القدم بطرحات وملاءة بيضاء خشنة القطن . ويلبسن السراويل الفضفاضة .

النساء الطبقة الراقية فملفعات بعدلات للغاية . فيحافظن بمهارة ودقة على رفعة مقامهن . غير ان الطبقات الدنيا يغالين في رفع الكلفة حتى الاباحية . وجميعهن يغطين وجوههن بحجاب من الحرير الشفاف اصفر اللون عادة مزين برسوم الازهار . ويكسبهن الخمار الابيض الذي يلففن به مظهر الاشباح السائرة غير ان اكثرهن يرفعن الحجاب على الجبين لاظهار وجوههن على نمط النساء الافرنجيات فرفعته اويد ميسه كما يطيب لهن وقد اتاحت لي هذه الحرية امكانية التحقق من ان

نساء دمشق بهيات المنظر على العموم وبعضهن جميلات حقا . ولهن جميعا روا
البشرة وتعوجها على لون جميل .

والذريعة اليوم افضل مما كانت عليه سابقا . فلا تلقى في دمشق اولئك الصفراوا
الصفراوات اللواتي يتوفر وجودهن في القدس وفي الضريبة . كما انك لا تجد احدا من
الدور السوء مثل باقي بلدان افريقيا . ولا تجد ذوي العيون العسلية الذرة التي تثير
الاشمئزاز في اولاد الاسكندرية وغيرها من الامم الاسلامية . ولا تجد اصحاب البشرة
المشبعة الشهباوية اللون من سودان افريقيه والحبشة . فترى بين النساء والاولاد
بعضا من ذوي الملامح الملائكية . ويبدو على الذكور البالغين مظهر الرجولة على لون
بديع مع احسن التناسب والقوة والملاحة وبالاختصار فهم شعب يختلف تمام الاختلاف عن
شعوب افريقيا والحبشة . ما هذا اهل قاس الذين قليلا ما يخطئون عنهم . وقد لاحظت
عددا من النساء اللواتي رغما عن خمارهن السميك يتوقفن الى تدبره بلباقة ويسرن بعضهن
الرشاقة التي تتحلى بها فاتنات اوربا .

ويندر ان تجد في دمشق اناسا مكفهري اللون هؤلاء البدو او بكلمة ادهى
المنظر من الجنسين خلاف العرب الصحراء الذين يقدمون احيانا لقضاء حاجاتهم ويشبه
هؤلاء في شكلهم وفيهم ابناء الحجاز المهجرة .

يتمتع الدمشقيون عادة بالعافية الممتازة والنساء على الاخص قليلا ما يمرضن
واعتقد ان هذا يرجع الى البحبوحة العامة والسيرة المنتظمة والاشغال المعتدلة فضلا
عن عادة الحمامات الدائمة . اما المرض المتفشي الوحيد فهو نوع من الحمى الثالثية الخبيثة
وهو اذا لم يستدرك جيدا يتحول الى نوع من الاستسقاء او الاستسقاء او الحمى الرباعية
يعيش الدمشقيون عادة من السبعين الى الثمانين وبعضهم ممن يبلغون المئة .

.../...

في هذا الوصف للشام كما في المقاطع الباقية من رحلاتي لا بد من الاعتذار الى النساء اللواتي الذين
يرين رأيا يخالف تماما رأيي لانني احدث عما شاهدته بعيني رأسي . (حاشية للمؤلف)

لا يدخل الطاعون الى دمشق بسهولة . فلم يظهر فيها اكثر من اربع او خمس مرات في مدة اربع وعشرين سنة وكان في ظهوره خفيفا . ولم يعد بعد عشر سنوات واذا دخل الطاعون الى دمشق عن طريق البحر فهو اقل ما يكون شرًا ولا ينتج عنه الا عدد قليل من الوفيات . غير انه اذا ما دخل عن طريق حلب فهو كثير الايذاء ويجرف معه عددا كبيرا من الضحايا . ومع هذا فالاهالي لا يحتاطون كثيرا ولقد دهشت كيف انهم نجوا من هذا السخط في الوقت الذي فتك فتكا ذريعا في حلب . فكانت القوافل والمسافرون والحاجيات ترد وتصدر بينهما دون اتخاذ التدابير الوقائية وبرغما عن ذلك فقد نجت دمشق من ذلك البلاء العتيد . وهذا ما يبرهن ان الاتصال الفعلي وحده لا يكفي لاشاعة هذا البلاء وانه لا بد من وجود خليط من الاسباب المهيئة من مثل القابلية الشخصية او المحلية .

الفت هنا بضعين الفرنجيين او اوربيين وستة اطباء من موالد البلاد يعدد لا يحصى من الدجالين الافاقين ذكورا واناثا كما هي الحال في مختلف البلدان الاسلامية .

بما ان اهل البلاد من العمال المجتهدين والتجار النشيطين فلا مجال هنا لثراء الطبقتين . ولذا تجد فقرا شديدا من السحرة وكاشفي البخت في دمشق . واذا اتفق لقدوم احدهم فسرعان ما يتبين له استحالة جني الارباح الطائلة .

وهناك عشرون مدرسة كبرى للذكور وعدد كبير غيرها من المدارس الصغرى . وتحتوي في خمس منها فروع الثقافة الرئيسية . غير ان المواضيع تنحصر في معرفة الدين ، على نمط المدارس في باقي انحاء تركيا وتشتغل على دروس في الشرع والفقه .

٠٠٠/٠٠٠

وفضلا عن هذا فهناك محاضرات وشروح عامة تعطى يوميا في الجامع الكبير وفي غيره من الجوامع . ويلقى هذه الدروس محترمون فقيها من يتصدون بالاحترام نظرا لمخلقهم وعلمهم . غير انه يمكن ان يقال ان هناك اثنين او ثلاثة من هذا العدد ممن تضلعوا في اختصاصهم .

وتتمتع طبقات الشعب الدنيا عادة بسهولة الكلام فلا ترى كثيرا من الفقراء بينهم يفتقر وجود المتسولين وان كان في الشوارع بعض العميان فهناك عدد لا يحصى ممن يدعون القداسة فيخطرون كالصرعى والمجاذيب بقصد استجداء الاكرام العام . يحتفل عامة الشعب باعراسهم وختانهم وجنازاتهم احتفالا خاليا من مظاهر الابهة . اما الاغنياء فانهم لا يقيمون الاحتفالات في هذه المناسبات الا ان النصارى اكثر من المسلمين احتفاء بحفلات اعراسهم .

عند صباح الشوارع والجوامع في ليالي رمضان والناس يروحون ويغدون غير ان كل شيء هادئ وليس هناك اى نوع من الصخب . وخلاصة ما نقدم فلا نعتقد ان اهل الشام يقيمون الاحتفالات العامة الهامة .

رغما من تقدم المدنية في هذه المدينة ويجد ان القسم الاكبر من الاهلين يعتمدون في عيشهم على نسج الكتان والحرير والاتجار والاكتساب بهما فان قسما كبيرا منهم كان يتبنى قدوم الوهابيين وهم يعلمون على كل حال ان اتباع (٧) هذه الشيعة يحترمون استعمال الحرير والتبغ وبما شاكل مجلبة شرور هؤلاء بالاستعداد الرماد لهم المدينة سيشعون الحرائق القاهرة في طريق الصنائع والتجارة .

غير انه عند اقتراب الوهابيين من المدينة على اثر زيارة علي بك فقد دافع الاهلون عنها بشجاعة (حاشية الناشر الانكليزي)

يحكم مدينة دمشق وال يعينه السلطان • وتضمها مملكة كبرى تمتد جنوبا الى الخليل أوجبرون وبرا "القدس وشمالا حتى جوار حلب • ونظرا لاتساع حكمه وتمثل الصبغة الشريفة الملقاة على عاتقه في قيادة القافلة الكبرى يسلم الى حكمه كل عام بوصفه امير الحج فان هذا الوالي يتمتع باسمى التقدير في البلاط ويعتبر واحدا من اشراف الطبقة الاولى في السلطنة العثمانية • (٨)

يقدر الشرائح المعين لهذه الولاية بمايعادل الاف كيس او خمسة ملايين فرنك اما الواردات والهدايا والامتيازات فانها تزيد في ضخامة الكمية • وكان السلطان في ذلك الوقت قد وكل اليه اشهرا ولاية طرابلس والشام التي لا تقل عنها اهمية •

يعد الوالي في جميع انحاء "الصقع الذي يحكمه عشر خمسة او ستة الاف تركي او مغربي وغيرهم من العساكر النظامية له اما الوالي فقد كان آنذاك في جولة لجمع الضرائب من قطاع الجنوب ولقمع الاضطرابات في القدس • وقد كان في صحبته كما قيل جيش مؤلف من عشرة الاف نفر •

يحكم المدينة نائب الوالي حسلم وهو من موظفي المرتبة الاولى • وبقية المأمورين هم العملا ورئيس المحكمة الدينية • والقاضي وهو حاكم الشرع • والمفتي او صاحب الفتيا في تفسير الشريعة • ثم الانكشارية • والكاهيكل آغا او حاكم القلعة والكاخيه باي او وكيل الوالي •

تحيط بدمشق اسوار ذات ابراج وبعض الخنادق غير ان جميع هذه الانشاءات ضعيفة وهي لا تمكن من احتمال هجوم منظم • وعلاوة على هذا فان الضواحي تحيط بالسور من كل الجهات •

.../...

ان حي دمشق الحقيقي في حد ذاتها . فهي تمر في الضفة من الاشجار وفيها من السواقي والجدران والحدائق بحد ذاتها دائمة تزيد عن سبعة فراسخ وهي ليست بالسد البسيط امام العدو المسلم الذي يقوى مهاجمة المدينة .

قبيلة عنزة هي بين القبائل البدوية الضاربة في الصحاري المجاورة اعظمها . يدعى اميرها او شيخها الاكبر فقه [والصواب: شيخ الفدعان] والصواب شيخ الفدعان) تقطن هذه القبيلة الصحراء شرقي المدينة وتمتد حتى جوار بغداد . وقد تأكد لي ان جميع هؤلاء الاعراب قد تبعوا اصلاح عبد الوهاب .

زرت قبيسة الصالحية (كذا (١٠) وفيها للدمشقيين مناظر البهجة وهي على شيء من الاتساع فيها بساتين عامان كبيران وحدد لا يحصى من البيوت والحدائق المنتشرة في البلاد المجاورة وهي قائمة في سفح الجبل شمالي دمشق . وهي فعلا قطعة بهجة .

.../...

الفصـــل الحادى والعشـــرون

الرحيل الى حلب — وصف الخانات — القافلة — تدمر او بالميرا — بلدة حمص — نهر العاصي — بلدة حماه — الترامي الخلقي — مناوشة ليلية في الظلام — الوصول الى حلب — ملاحظة على تلك البلـــــــدة .

+ + +

كانت احد والقوافل متوجهة الى حلب فانتشت العناسة واعطيت جوادى وغادرت الشام يوم الاحد في ٢٩ آب عند الرابعة بعد الظهر . وبعد ساعة من المسير وقفنا بين الحدائق دخلت مبسطاً وتقدمت شمالا شرقيا بين عدد من القرى ثم وصلت عند الناعة الوخان يدعى خان قصير (١) حيث لحقت بالقافلة .

الاحد في ٣٠ آب —

انطلقنا عند الثالثة صباحا نحو شرق الشمال الشرقي على فلاة دمشق الشاسعة . ودخلنا بعد ساعتين في ضيق محفوف بالمخاطر كما قيل في غايته انقاض بناء قديم وصهريج لا يخلو من الماء عادة .

بعد ان اجتزنا الجبال قطعنا سهلا اخر كبيرا متجهين نحو شمال الشمال الشرقي حيث تقوم قرية القطيفة (٢) وقد وصلناها صباحا عند الثامنة الا ربعا . في هذه القرية جامع في غاية الطرافة على صغره . وقد اخذت قسطا من الراحة فيه اذ اقمنا في القطيفة حتى العاشرة مساء ثم عدنا الى سيرنا نحو الشمال .

الاثنين في ٣١ آب ـ

بعد ان تسلقنا عددا من التلال الصغيرة باتجاهات مختلفة وصلنا الى خان العروس (٣) قبيل منتصف الليل . وهو خان متهدم . وقع قبيسة معلولا (٤) على بعد فرسخ غربي هذا الخان .

ثم تابعنا سيرنا متجهين نحو شمال الشمال الشرقي على ارض منبسطه تقطعها الروابي والقناني فوصلنا الى النبك (٥) عند الظهيرة صباحا ، وهي بلدة حسنة الموقع قد تتسع لالف عائلة فيها عدد من الحدائق والمياه الجارية .

والقطاع الواقعة الى هذه الناحية من خان قصير طبوغرافية بكاملها تنتشر عليها الحصى الكلسية المستديرة وهي تكاد تخلو تماما من معالم النبات اولا بعض وقع الحشيش .

ذكر اهل المنطقة اشاعة بان عرب العنزة اغاروا على الوهابيين واغتنموا منهم عددا من النساء والفتيات والاولاد وانهم اتوا بهم الى هذه البلاد ليسعوهم عبيدا . على اعتبار انهم من الكفار غير الجديين بالانتماء الى الاسلام . وقد علمت في الشام ان العنزة كانوا من اصدقاء الوهابيين الامر الذي جعلني افترض ان الحرب شنتها قبيلة اخرى او عشيرة من عشائر العنزة وهي امة عظيمة . وقد يكون ذلك طالع حرب جديد بين الامتين .

القارعة في اول ايلول ـ

قمنا عند الرابعة والنصف صباحا متجهين شمال الشمال الشرقي على طريق موافق سوي . ووقفنا في قارة (٦) عند السابعة . يضم هذا المكان ثلاثمائة اسرة ، وهي قائمة في موقع بديع على رابية فيها بعض الجنائن . وقد كانت فيما مضى اوفر سكانا . وسبب انقفارها يعود كما يقال الى سوء الحكم حتى ان نصف بيوتها قد تهدمت .

الاثنين في ٢١ آب —

بعد ان تسلقنا عددا من التلال الصغيرة باتجاهات مختلفة وصلنا الى خان العروس (٣) قبيل منتصف الليل . وهو خان متهدم . وقع تونسة معلولا (٤) على بعد فرسخ غربي هذا الخان .

ثم تابعنا سيرنا متجهين نحو شمال الشمال الشرقي على ارض منبسطة تقطعها الروابي والهضاب فوصلنا الى النبك (٥) عند الساعة صباحا وهي بلدة حسنة الموقع قد تتسع لالف عائلة فيها عدد من الحدائق والمياه الجارية .

والقطاع الواقعة الى هذه الناحية من خان قصير طبشورية بكاملها تنتشر عليها الحصى الكلسية المستديرة وهي تكاد تخلو تماما من معالم النبات اولا بعض رقع الحشيش .

وشر اهل المنطقة اشاعة بان عرب العنزة اغاروا على الوهابيين واستولوا منهم عددا من النساء والفتيات والاولاد وانهم اتوا بهم الى هذه البلاد ليبيعوهم عبيدا . على اعتبار انهم من الكفار غير الجديين بالانتماء الى الاسلام . وقد علمت في الشام ان العنزة كانوا من اصدقاء الوهابيين الامر الذي جعلني افترض ان الحرب شنتها قبيلة اخرى او عشيرة من عشائر العنزة وهي امة عظيمة . وقد يكون ذلك طالع حرب جديد بين الامتين .

الثلاثاء في اول ايلول —

قمنا عند الرابعة والنصف صباحا متجهين شمال الشمال الشرقي على طريق موافق سوي . وتوقفنا في قاره (٦) عند السابعة . يضم هذا المكان قلعة اسوة بـ وهي قائمة في موقع بديع على رابية فيها بعض الجنائن . وقد كانت فيما مضى اوفر سكانا . وسبب انقارها يعود كما يقال الى سوء الحكم حتى ان نصف بيوتها قد تهدمت .

والناحية التي تطعناها اخيرا جردا ° تعاط شبيهة بقطاع البوم السابق
تتوقف القوافل دوما في الخانات القائمة قرب البلدات والقرى • اما انا فقد بت
الليلة السابقة عند فلاح مسيحي وهذه الليلة عند فلاح مسلم يتحلى هؤلاء السكان بسذاجة
خلق وطيبة قلب كنت اطرب لها فوق الحد • وتتطاير بيوتهم بمنتهى النظافة • اما هم ففي
سعة من العيش وحسن الهندام • لا ينقصهم شيء من الاثاث او من المعدات التي يحتاجونها
في مصالح المنزل • وقد لاحظت بنوع خاص وفرة الوسائل والفضائل التركية الطريفة • وهي
قوة لف في الظاهر وسائل بحبوحتهم الرئيسية •

طالما تحدثت عن الخانات فاري لزاما عليّ ذكر بعض الايضاحات عن ابنية
من هذا النوع وقعت عليها في تركيا (٧)

فالخان صح رباعي الاضلاع تقوم الابراج على زواياه احيانا وتتوجه
المعاقل كما لو كان قلعة • هذه الاثار مقاومة الاقدار وحجمها العادي ١٣٣ قدما
لكل جانب • ويتألف داخلها على العموم من دارين تحيط بهما الاسطبلات • وقد تجد
في بعضها مسجدا او معبدا صغيرا يصلي فيه المسافرون • او بعض المآوى في قصورها
واعتقد ان جميع الخانات بنيت بامر من الحكومة •

هذه المنشآت مفتوحة دوما • تدخلها القوافل والسفر او يغادرونها
دون ان يتعاطوا مع احد والخاصة دون استئذان في الحل والترحال • ويمكث
كل فرد ما يطيب له المكوث دون ان يضطر الى دفع اي اجر لاي كان •

.../...

وان موسسة بديعة من هذا النوع في السلطنة العثمانية نتجت عن مبدأ الخلق الديني الذي يشأ بان يكون من الفرائض الاسلامية التي لا بدّ منها قيام المسلم بواجبات الضيافة نحو جميع المسافرين بقطع النظر عن الجنس او الدين . وبنا على هذا المبدأ ترى الخانات في جميع الامكنة المعمورة او القفرا حيث لا بدّ للمسافر من التوقف والخانات التي نرتها حجرة حسنة البنا ، حتى ان بعضها تزدان بنوع من الزخارف المعمارية . غير انها لفرط قدمها اخذ بعضها بالتداعي واعتقد ان اصلاحها لن يتم ابدا . وهو ما يقوي رأيي في ان عصر الامجاد الاسلامية قد انقضى فعلا .

كانت قافلتنا تتألف من ثلاثمئة راحلة تقريبا . بغال وخيل وابل وحمير على السوا . على ان عدد البغال كان اوفر من غيره وكانت في جملتها تقريبا من حلب . وهي ليست ضخمة الحجم غير انها قوية وجريئة ونشيطة . والحمير من نوع يثير الاهتمام . فهي طالية القوائم تضاهي البغال في حجمها . وأعظمها في النشاط والجرأة ويصعب تمييزها عنها لولا آذانها الطويلة الدائمة الانتصاب . كلا النوعين اسود الجلد عادة ويحب الزحام والسبق .

كان عدد السفر كبيرا بينهم النسا والاولاد من الجنسين .

يبدو لي من المعلومات التي استقيتها ان طرابلس(٨) تكاد تكون غربي قارة فعلا . اما بعلبك وهي مدينة كبرى مشهورة فانها تقع على مسيرة يوم الى غرب الجنوب الغربي من هنا وتقع ساقية الكفارة (٩) (Caffara) على مسافة ساعة .

نحو الغرب • وهي تصب في بحرة (كذا) وعلى مسافة اثنتين وعشرين ساعة او مسيرة ثلاثة ايام شرقا تقع تدمـــر (١٠) او پالميرا • هذه الحديقة التي كانت فيا مضـــى واسعة الشهرة لا تعدو اليوم نصف قارة ٥ اى انها قد تتسع لخمسمئة اسرة • يتوقف المسافر الى تدمر عند قرية الحوارين (١١) في اليوم الاول وفي اليوم الثاني عند القريتين (١٢) اما عرب عنزة الذين يعدون مئة يومين نحو الجنوب الشرقي فانهم يتطاولون في سلطانهم وغزواتهم حتى تدمر • وبينهم وبين تاو لا تجد اى قبيلة بدوية • يتيسر لراكب الهجين الوصول الى تدمر في اقل من يوم •

الاربعاء في الثاني من ايلول ـ

انطلقت القافلة عند الثالثة والنصف صباحا صاعدة هابطة في الروابي والوهاد باتجاه شمالي فى ربح انحراف شمالي غربي • ووصلنا عند السادسة الى مجموعة من البيوت تعتبر قلعة وتدعى قلعة البيج (١٣) فيها بعض الدكاكين والمواشي •

وبعد ساعتين وصلنا الى نقطة يقال انها خطرة • وهي مضيق تحدق به الروابي • على هذه الروابي ركام من الحجارة تشبه الاسوار القليلة العلو • ويظهر انها من صنع قطاع الطرق • فاعطى رجال القافلة المسلحون جمعهم تلك الروابي المحدقة بجانبي الطريق وظلوا هناك على سلاحهم حتى مرّت القافلة كلها • من هناك يمكن الاطلال على قرية حسيه (١٤) وهي على مسافة كبيرة نحو الشمال • فبلغناها صباحا عند العاشرة الاربعا • وقد عبرنا بالقرب من خان متهدم على مسافة قريبة من القريـــة •

.../...

جمع الناحية ابتدا ° من دمشق قنار قاحلة ° تتوسطها حسيه ° وهي قرية بائسة لا تخلو من بعض الحدائق الصغرى .

الخميس في ٣ ايلـــــول :-

عدنا الى الرحيل قبيل الواحدة صباحا متجهين نحو الشمال ° فمررنا بعد ثلاث ساعات في قرية صغيرة ثم انعطفنا نحو الشمال بانحراف الريح الى الشمال الغربي ° ووصلنا الى حمص عند الثامنة والنصف ° .

وقد اجتزنا رابية طلسا ° القمة على انحدار لطيف نحو الشرق ° فوق هذا المرتفع الذي تعتمده قرية سلسلـــة جبال لبنان تبين لنا افق شاسع ° جمع هذه الناحية قفـــرة ° غير انها بُدّدا تتبين نوعا من التربة المحمّرة تغطيها شاحدته في الايام السابقة وهي مغطاة في هذا الفصل ، ببعض النباتات الجافة ° وبدت القرية مطواعة للحراثـــة ° .

وقد لفظ عند شروق الشمس ضباب كثيف انقشع بعد عشر دقائق عندما ظهر بغتـــة ° .

تستعمل النساء في هذه الناحية ظعونا طويلا مثل الرجال تماما ° .

وقد شاهدت احداهن هذا النهار من رفيـــقات الركب قاعدة بكتـــير من الوقار على ظهر حصانها ، تدخـــن وهي سافـــرة تماما ، ظعونا يبلغ الاربعة الاقدام طولا ° وهي قطعة مائكية العاج بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرها ° غير ان اعتقالها الفاسون جعلها كريهـــة في نظري (١٥) ° .

حمص بلـــدة كبيرة ويقال انها تضم من الخمسة والعشرين الفا الى الثلاثين الفا من المسلمين • مع ثلاثمائة مسيحي • وهي خالية من اليهـــود • فيها عـــدد كبير من المساجـــد عاليـــة المآذن مفصلـــة عنها على الطريقـــة التركيـــة • فيها كنيستان للروم الكاثوليك وكنيســـة سريانيـــة • اسواقها مكتظة ، غنيـــة وعامرة بالخلق • والمقاهـــي الكبرى ليست اقل منها ازدحاما • فيها قيصريـــة او سوق للاقمشة الحريريـــة (١٦) وفيها خان كبير عدا فيه من الخانات الصغرى • شوارعهـــا جيدة التبليط غير ان البيوت ، وان تكن حجريـــة ، خالية العظهر بسبب لونها القاتـــم لان مادتها البنائيـــة متشابهـــة وهي من البازلت او الحجر الاسود • وبالاختصار يمكنك ان تشاهد في حمص جميع المميزات المختلفة التي تتميز بها المدن الكبرى •

يظهر ان اهلها يتولون حركـــة تجارية نشطـــة للغايـــة • محاصيل الحبـــوب عندهم فظيعـــة وهي من مختلف الانـــواع • غير انهم يستوردون الزيت من الساحل والارز من مصر • المواد الغذائيـــة والمياه جيدة النوع • واما الخمير فهو ارخيصة مثله في باقـــي البلاد العربيـــة • وهم يشربـــون من ماء نبع اما ماء الابار فانها غير صالحـــة للشرب •

يجري نهر العاصي وهو نهر الوقط (١٧) القديم المشهور على بعد نصف فرسخ غربـــي المدينـــة ويتفـــرع منه عـــدد من الاقنيـــة لسقايـــة الحدائق

حاكم المدينة وقاضيها وجميع موظفي الحكومة هم من الوطنيين العرب وليس من الاتراك • تتمتع هذه المدينة والي الشام الذي يعين شيخ البلد او حاكم حمص من اهل المدينة او دائرتها وفقا لنظام المنطقة •

تهبط باسوار المدينة فسحة تكثر فيها الدافن مما يدل على كثرة السكان في هذا المكان • والى الجنوب رابية مستطيلة شبيهة باطلال الاسكندرية • تقوم عليها قلعة تعود الى عهد عاول القديم • في القلعة عدد من الابراج الاسطوانية ضخمة المركز غير انها قد تهدمت •

ولا يقل موقع المدينة عنها جودة • وهي على شيء من الارتفاع كثيرة الاهوية صحية • ولذا فان الطاعون لم يجرف الضحايا هنا عام خمسة عشر عاما • وفي الوقت الذي كان فيه هذا السقط يعيث فسادا في حلب فان اهل حمص لم يتضرروا رغما من نشاط التجارة بينهم وبين ذلك المكان ورغم نقص الاحتياطات لدرء العدوى • واذ يشهد المرء احداثا من هذا النوع يتبين له ان يعذر الى حثالة قذرة الاتراك والعرب وهي عداة تهورهم في هذا الصدد •

في حمص بوابة وبقايا سور وجان وهي اطلال المدينة الرومانية القديمة •

.../...

تبعد طرابلس عن حمص مسيرة ثلاثة ايام نحو غرب الجنوب الغربي يتوقف السفر في اليوم الاول عند الحديدة (١٨) وفي اليوم الثاني عند الشيخ قرشي ؟ (Qarashi) (١٩)

لا بدّ للذاهب الى عكار من التوجه اولا الى حمص . ومن هناك تؤخذ الطريق المذكورة آنفا . والمسافة من حمص الى اللاذقية تقدّر باربعة ايام .

الجمعة في ٤ ايلول :-

غادرت القافلة الى سيرها عند الثامنة والنصف صباحا باتجاه شمالي فتركنا عند الخامسة قرية ضياع الغل (٢٠) الصغيرة الى يمينا ودخلنا الرستن (٢١) عند السابعة . فعبرنا قطاعا غاصا في ارتفاعها ما عبرناه مساء امس . وكان انبساط هذه القطاع افسح حتى ان الافق الشرقي لم يكن محدودا . الا ان ناحيتها الغربية كانت تنتهي عند سلسلة جبال لبنان . وتبدأ هذه السلسلة على بعد فرسخين ونصف من الطريق . اما السلسلة الجبلية الاخرى وهي العليا فتخطبها الطريق .

تتألف هذه القطاع من تربة ممتازة للزراعة رغما عن كون القسم الاكبر منها باثرا تغطيها النباتات الجافة على مثال ما سبق ذكره .

الرستن قرية قذرة يسكنها العزازون وهي قائمة على طرف اهوية هائلة تغسل قعرها مياه العاصي . ويبدو هذا النهر ضيقا اذا نظرت اليه من عل . وهو في هذا المكان يتجه من الغرب الى الشمال الشرقي في واد عميق ضيق تتخلله الاعناع والقرية

.../...

تائمة الى الضفة اليمنى • جمع البيوت من الحجر الاسود كما هي الحال في حصن وهدان المراضة من خشب قصب وليس فيها سكة من الحديد • لا شك ان هذه القرية تعمت يوما بدرجة من العظمة • وقد رأيت اقاضيها الكثيرة في بقايا الاعمدة الرومية العديدة وفي كتل الفرانيت الضخمة وفي الاطلال التي تقم من عهد الاحتلال الاخير • وتظهر المجموعة متصلة بعهد متطاول في القدم • الا تكون هذه الاطلال من عهد اطلال تدمر؟ الا يكون الاختيار قد وقع على هذه النقطة قديما لتكون مقرا لاهميتها محطة عسكرية ؟ لا يتيسر لي الجزم في هذه القضية لفقدان الوسائل التي تمكني من القيام ببهذه الدراسة •

انحدرت عند غياب الشمس الى ضفة النهر حيث القت القافلة رحالها وذهبت لنهاوة خان هو عبارة عن بناء بسيط وسقفه وجدرانه تعاني اوعر تقاطر •

تقطع النهر طرار كبيرة صنعة البناء تغذى المطحنة بالمياه التي تتحدر عنها بحدب عظيم • الصانع جيد غير انه كدر • واظن ان متوسط سعة النهر بالمغرب الخمسين قدما • مجراه سريع وضفافه موصلة • قامة عمق الى درجة تمنع الاستفادة منه عن الاراضي المجاورة • فتقوس هذه بوا مبطئة لعدم السقاية •

السبت في ٥ ايلـــول :

تابعنا سيرنا بعد منتصف الليل تاركين النهر الى اليمين فتلقانا الهبوط الحاد واتجهنا شمالا مع بعض الانحرافات الطفيفة . وبعد ان اصعدنا تلعة على منقلب لطيف دخلنا مدينة حماه (٢٢) عند الخامسة صباحا . وهي قائمة على قاعدة الرابية الصغيرة التي اجتزناها اخيرا ثم صبرنا العاصي للمرة الثانية ويجري وسط المدينة .

حماه مدينة عظيمة جدّا . ويقال ان سكانها ضعفا سكان حمص وبذا يمكن تقديرها بثمانين الف نسمة (واعتقد انها تبلغ المئة الف) . موقع المدينة يسحر الالباب وعلى الاخص عند الجانب الرئيسي وهو الى الضفة اليمنى من العاصي على المستوى الاعلى . يصدر باقي المدينة بشكل مدرج حتى ضفة النهر ثم يرتفع بالطريقة ذاتها من الضفة اليسرى . هذا تتسع المدينة اتساعا هائلا تتضم في بعضها رابية على شيء من الارتفاع . وبالاختصار فان اقتناع حماه وبلوغها يكشفان عن مدينة من الدرجة الاولى . ولا يستطيع السكوت عن ابداء تعجبي عن انها لم تلفت بشدة انظار الرحالين والجغرافيين فاوصافهم وخرائطهم ادخلت في روعي ان هاتين المدينتين ليستا سوى قريتين اكبر بقليل من القرى الباقية .

وهناك كثيرا من البيوت الحجرية . غير ان معظم البيوت من الحجر في اسفلها ومن اللبن المطلي بالجواري في اعلاها . وفي الضواحي الخارجية عدد من البيوت تتوجها القبب كما هي الحال في الشام .

.../...

الشوارع على العمـــوم ضيقة وغير منتظمة غير ان الرئيسية منها وهي التي تؤلف الاسواق، على شيء من السعـــة والاستقامـــة . وفيها عدد من الشوارع المسقوفـــة بكاملها .

الاسواق عديـــدة ووافـــرة المواد الغذائيـــة والبضائـــع . و والجمهـــور الـــذي يؤمها هائـــل الازدحام احيانا . فيها بعض المقاهي البهجة والوافـــرة الرواد . وفيها كثير من الجوامع بمنارتها الباسقـــة . غير ان جميع التي زرتهـــا صغيرة وتتألف من فسحة دار ضيقة مع حوض ماء في الوسط ثم صف او صفين من القناطر القائمـــة على الركائـــز حيث المحـــراب او حنيّـــة الامام وحيث المنبر او السدّة لصلاة الجمعـــة .

والنهر الذي يرتفـــع عليـــه جسران يؤمّ لضفتيه من اطـــرف المشاهـــد . وتحدق بـــه البيوت والجنائـــن الغنـــاء . تنقلب مياهـــه بما يشبـــه الشلالات فوق السدود العديـــدة التي يليـــق واحدها الاخر عبر النهـــر . والغاية من هذه الحـــرار او السدود توجيـــه المياه على عدد من القوادير (٢٢) . يبلغ قطر بعضها /٣٢/ قدمـــا احيانا . تستخدم هذه القواديـــر في دفع الماء من مجرى النهـــر وهي حسنة التوقيـــع الى درجة يختفي معها الضجيـــج والصرير المزعج المنبعث من الآلات العاملـــة . بل هي على العكس من ذلك تخرج الاصوات العذبـــة الموزونة للغايـــة . ترفع المياه بهذه الطريقـــة وتحوّل الى قناتهـــا المختلفـــة في انحيـــاء مختلفـــة على القناطـــر . وقد فحصت احداها فوجدتها غايـــة في البهـــاء وهي مما لا شك فيه من آثار العهود القديمة ، غير ان المحافظـــة عليها من مشاطرة الدمار الذي سيطر على البلاد جديرة بالتقدير .

.../...

تحمل المياه المرفوعة بهذه الوسيلة الى الجوامع المحطة والى باقي انحاء المدينة . وما عدا التي تسقى بها الحدائق العديدة في الضواحي عند الضفة اليسرى .

معظم اهالي حماه من العرب ، وفيها قليل من الاتراك وقد لقيت بعض النصارى واليهود غير انه لم يتيسر لي معرفة عددهم بالتدقيق . وفيها نسبة عظيمة من عرب الصحراء الذين يرتدون زي الحجاز .

موادها الغذائية جيدة . واسعارها وخضرها وافرة اما اللحم فليس من النوع الممتاز . والشعير ضربعن الارغفة العربية . مياه النهر جيدة رغما عن كونها كدرة او ضاربة الى البياض .

وقد لاحظت بين الاهالي ميلا الى المعاملات التجارية مماثلا لميل اهل دمشق وحمص . وفيها على كل الجهات جميع انواع الصنائع . وفي القيصرية وفي سوق الاقمشة الحريرية اشكال عظيمة الوفرة .

وفي حيه بعض الصوغ المتقنة على الطراز الاوروبي بفوائدها الكبيرة .

عند وصولي الى المدينة شعرت كأن دخل مستوفيا عظيما . فالرجال والنساء والاولاد يتسامرون جميعا في الشوارع في اشهر القيظ وعلى السطوح او امام الابواب . وحيث ان وصولنا كان باكرا فقد شاهدت القسم الاكبر نائما دون مبالاة اما الذين كانوا قد استفاقوا فقد نظروا الي واما مجتاز دون ما اكتراث البتة . وبعضهم كان يرتدي ثيابه على مهل وكانت النساء يحسنين

بزيهن بالحرية ذاتها التي يشعرن بها اذا ماكن في منازلهن • فتسنى لي مشاهدة وفرة من المناصع الملائكية بينهن • واذا ما تأملنا في هذه العادة اقول ان اخلاق هذا الشعب بلغت الدرجة القصوى من الانحطاط ام انها براءة (الاطفال) تماما ؟ لا اجسر على البت في هذه القضية لانني لم اتوغل في احشاء فيروز وجيز • ففي البيت الذي نزلت فيه كان عدد من النساء ، في الواتي من الشمعات ، يدخلن ويخرجن بحرية حتى انهن كن يدخلن الى غرفتي دون حجاب للقيام بالاعمال المنزلية على طريقة الخادمات الاوربيات وكانت واحدة منهن على شيء من الفنج ، قوطت في ضربة اعنها اليمنى خاتما ذهبيا قطره ثلاثة قراريط • زي هذه النسوة يتألف من كساء فضفاض من القطن الابيض او الازرق يعلوه قفطان مفتوح دون حزام • ويزيدون على ما تقدم الخواتم والاطواق والاساور والحلق والعقود ومن الخلخال والخلفية وبالاختصار عدد الايحصى من الجواهر والحلى حتى اذا سارت احدى نساء الطبقة العليا تحيط بها جلبة اشبه بالجلبة التي ترافق جلاجل البغال في جنوبي اوربا المثقلة ظهورها بالاجراس الصغيرة •

تخضع هذه المدينة لوالي الشام ويحكمها عيسى من البلاد يعاونه الوالي •

شاهدت هنا مدرستين فوج جديد • فقد جلس فقيهان في جامع سنان الواحد مقابل الاخر • وامسك كل منهما بورقة — وجلس ثالث بينهما وهو شيخ من يقوم بوظيفة المعدل • اخذ المتناظران يتراشقان بالحجج اللاهوتية [الكلامية] في العراضيع الشرعية • وعندما كان يحتدم الجدال كان الثالث يفرض السكوت • وكانت

تتشكل دائرة من المستعمين الجديدين للاصغاء الى النقاش الذى قام مقام الدرس .

بما ان مياه النهر لا تغطي الى منخفضات الناحية العليا فان جفاف هذه المنطقة يشكل مناقضة غريبة مع خضرة المنخفضات الدنيا حيث يتيسر ري الاراضي .

الاحد في ٦ ايلول ـ

تابعنا سيرنا فقد الناقة والصف صباحا قطعنا كثيرا من المنازل نحو شمال الشمال الغربي . مررنا بجامع الى اليمين عند شروق الشمس ثم انعطفنا الى شمال الشمال الشرقي فوصلنا عند الناقة الى اطلال مدينة دارية تعرف عند العامة باسم لطمين (٢٣) = وقد شاهدت بين ركام من الانقاض قطعة فيروز بديعة من الفيروزيت الاحمر وقطعا جديدة من الاصداف وبقايا قناة كبرى . عند الحادية عشرة دخلنا خان شيخون (٢٤) وهو في اسفل قرية قائمة في سفح تلة .

ان الناحية التي قطعناها اخيرا هي قصة الصحراء القفرة التي اسلفنا ذكرها . تشبه هذه القرية مجموعة من قفران النحل بسبب القباب الصخرية التي تغطي جميع البيوت . تشمل المياه المستعملة هنا من الابار وهي وافرة الجودة .

الاثنين في ٧ ايلول ـ

تابعنا رحلتنا شمالا عند الرابعة صباحا . فبرزت الناحية بطالعها المتاوعة في التقدم الى ان تنتهي بالجبال العالية قربا وكنا نبتعد عن هذه الجبال يوما بعد يوم . مررنا بالقرب من بعض الاقناض

التي كانت في آخر مراحل الاحتلال . وقد كان هناك ايضا عدد من الآبار المتفجرة المياه في كل منها درج حجري حتى القعر . ورغما عن كون البلاد صحراوية فهذه البقعة مكونة من بساتين زراعية خضراء ممتازة ومن خضروات شهية .

عند التاسعة والنصف وصلنا الى العمرة (٢٥) وهي بلدة تضم نحو الفي اسرة . وقد رأيت عند مدخلها عددا من المدافن الحجرية الانيقة لكل منها حجرة مرتفعة تحيط بها خمس او ست درجات .

والعمرة هي المديرية الاخيرة من هذه الناحية التي تضم ولاية الشام . تمتد حدود هذه الولاية الى ثلاثة فراسخ شمال العمرة . فيمكن اعتبار هذه الولاية مملكة ممتدة من صحراء مصر حتى ابواب حلب .

بت ليلتي في معهد وقد وضع فراشي بجانب مدفن الولي (كذا) الذي يحظى بوافر الاكرام .

الثلاثاء في ٨ ايلول ـ

كانت التاسعة والنصف بعد الظهر عندما اخذنا نسير نحو شمالي الشمال الشرقي . هناك طريقان من العمرة الى حلب . فالطريق الرئيسية وهي المطروقة عادة . كانت تحفها آنذاك جنوب والي حلب القديم . وحيث ان اعرابي كانوا يخافون الالتقاء به فقد سلكنا الطريق الاخرى التي تتجه يمينا وهي مهجورة . مررنا بقرية عند الغياب فيها خان ومئذنة وبها بالماء . ثم عدنا الى السير فاعطفنا نحو الشمال الشرقي (شرق الشمال الشرقي) عند التاسعة والنصف صباحا . وعند التاسعة قطعنا دوارا كبيرا يتألف من خيم واكواخ وبعض البيوت .

.../...

الربعا ٩ في ٩ ايلـــول ٥٠

كان الليل مظلمـــا والارض مبلّلـــة بالندى الكثيف فتعذر علينا تمييز اى شيء ٤ على بعد عشر خطـــوات • كنت اتقدم القافلـــة مع ثمانية او عشرة من الفرسان العـــرب الاكماء • وكان البغـــل الذى يحمل اوراقـــي يتقدمني لانني لم اكن اوكل به احدا انتباه الليـــل • كنا نسير على هذا النحو عدة الثانية صباحـــا لما طلعـــت علينا على بعـــد عشرين خطوة فقط فرقـــة من الخيالـــة • اما الانسحاب فلم يعد ممكنـــا حتى ان الوقـــوف لم يتيسّر • فصرخت على الفور: " افتحوا الطريـــق ٤ افتحوا الطريق " فاجابا بالبنـــدقية وبالصيحـــة ذاتها • فتابعنـــا سيرنا مغمضين العيـــون • وكان بغلـــي قد تبوأ الفرقـــة المعاديـــة فلحق بي عدد من كمـــاة القافلـــة • وكان احدهم على بعد عشر او اثنتي عشرة خطـــوة ورائي فاطلق النار احباطا وأثر الرصاص بالقرب من اذني اليسرى • وقد جرى ذلك في اقل من دقيقـــة وجدنا خلالهن البدو من استعدادنا الهائـــل رأوا من الانسب الانسحاب • فتابعوا في طريقهم بعد القاء السلام علينا منهزمين قهقرا دون شك لان فرقتهم لم تكن تتألـــف من اكثر من عشرين نفسا سلاحهم الحراب •

سرنا في طريقنا نحو شرقي الشمال الشرقي وقطعنا عند الرابعة والنصف صباحا على ضفة قناة بالقرب من بعض المزارع التي كانوا يدرسون فيها القمح •

وانطلقنا عند العاشرة في الاتجـــاه عينه فاجتزنا بعض التلال الطباشيريـــة الصغير ٤ ووجدنا عليها بعض اشجار الزيتـــون • ثم دخلنا حلب عند القافلـــة بعد الظهر •

.../...

كانت هذه المدينة التي يعرفها العرب باسم حلب (٢٦) مثار الاوصاف العديدة ، حتى اصبح معظم ما يمكن ان يقال في هذا الموضوع ، محض ترديد . وهي معروفة تقريبا كأي مدينة اوروبية . لا مهما بالنظر لاتساع تجارتها برتادها دوما جمهور غفير من الاوروبيين ومن الاقتراب من مختلف الجنسيات نكتفي بالقول بانها تحوي عددا من الصور المدينة في فيض من مختلف انواع المرمر وان الجامع الكبير طريف وان يكن غير فخم . شوارعها حسنة التبليط والاسواق مغطاة غير ان اسواق دمشق اوفر غنى وموأد منها . البصر لا يطاق في اوائل ايلول حتى العشرين منه عند الاعتدال الخريفي ٤٠ وكان عند ذاك عاصفة كبرى على الجبال الغربية اعتدل الجو بعدها . وقد تعينت بين النصارى واليهود خلطا غريبا في الازياء ، فترى قلنسوة عربية على جلباب شرقي مسترخي الاردان .

كنت مريضا طيلة مكثي في حلب وغير قادر على القيام حتى باخف الاعمال .

طـــــي بـــــك العبـــــاسي

في

ســـــوريـــــا

الحـــــــواشـــــــي

الفصل الخامس عشر

(١) الفصل الخامس عشر :بدأت بهذا الفصل لان فيه يباشر العباسي رحلته الى سوريا .

(٢و٣) قصبة العريش :القصبة هي عاصمة القضاء . والعريش مدينة قديمة على مدخل صحراء سوريا . احتلها نابليون بقصد قطع العلاقات بين مصر وسوريا (الجبرتي "٣" ٢٨ — ٢٩ و٤٧) وقد استولى عليها بدون صعوبة في ١٧ شباط سنة ١٧٩٩ واكتفى باطلاق الحامية التركية فيها (الجبرتي "٣" ٥١)

(٤) جرجس :شعر العباسي في الصحراء المصرية ان الماء يكاد ينفد بسبب اهمال الخدم فانتضى سيفه مهددا وعند اعادته الى قرابه غرز السيف فشقه .

(٥) ريومير : عالم طبيعي فرنسي ١٦٨٣ — ١٧٥٧ . مبتكر الطريقة المعروفة باسمه لقياس الحرارة . درجة غليان الماء في ريومير (٨٠) بينما تغلي الماء في المقياس المئوي عند المئة فتكون الدرجة ٧ ٥٣ ريومير في المقياس المئوي :(٧ ٥٣) ١٠ / ٨ = ٣٥ ٦٦

(الطبيعيات بفيزيك ولاروس ,القرن ,القرين)
ملدرة (Arisch)

(٦) الـــدوار :وهي تحريف الدار ، جمعها ادوار وهي في القاموس البلد او القبيلة .
وهي في شمالي افريقيا مجموعة من الخيم عن لفرنسة (Etienne
Baron. La France et ses colonies)

.../...

(٧) خان يونس : وهي بلدة معروفة على الخط الحديدي بين غزة والعريش • وسطها خان بني حوله البلدة الحديثة المعروفة بهذا الاسم • والخان بناه احد الامراء المماليك صاحب الاسم المذكور • وفوق باب الخان نقش يذكر ذلك (Guide Bleu, Hachette)

(٨) سوريا : يذكر العباسي السوريين والمصريين واهل العربية ميزاً بينهم • ولم نجد في رحلته ما يدل على انه زار لبنان •

(٩) غـــزو : اورد اليعقوبي انها من حواضر فلسطين البحرية على اطراف الاقليم الثالث وفيها قبر هاشم بن عبد مناف (يعقوبي ١١٧) •

ويقول الاصطخري وابن حوقل انها من مدن فلسطين تجاه مصر وهي مسقط رأس الامام الشافعي • فيها اثر عمر بن الخطاب في ايام الجاهلية • ويذكر المقدسي علاوة عما تقدم اثر الخليفة عمر (اصطخري ٥٨ وابن حوقل ١١٣) ويقول الادريسي سنة ١١٥٤ انها في يد الروم (الصليبيين) ولها مرفأ يدعى تيدا • اما ياقوت وصاحب المراصد فلا يزيدان شيئا عما تقدم (ادريسي ٤ ياقوت "٣" ٧١٩)

وقد حدّث الدمشقي عن مملكة غزة • واصبحها غزة هاشم وهي غنية في اشجارها وقد عجبها في بعض الفترات يافا وعسقلان وقيسارية والرصوف والعريش • وقد عجبها في فترات اخرى القدس وحبرون وبيت جبرين وغيرها • (الدمشقي ٢١٣) •

.../...

وشوهد في غزة غرفة في القلعة قيل ان نابليون بات فيها •
عرفت من احد موظفي المستشفى الانكليزي في غزه ان هذه البلدة ليست موثوقة بالزهري اليوم كما ذكر العباسي عنها سنة١٨٩٧ غير ان هذا المرض يكثر في قرية مجاورة اسمها جماليا • ويكثر بين اهالي هذه القرية اللون الاشقر والعيون الزرق وقد يكون لجند حملة نابليون اثر في هذا الرأي • لاسيما وان زيارة العباسي كانت على اثر الحملة النابليونية •

(١٠) في تريسة : قد تكون هذه القرية قرية بيت حنون وهي على الطريق الذي توجه فيه العباسي وقرب جسر اسمه جسر بيت حنون (افادة احد اهالي غـــــزة) •

(١١) مرت بتريسة : ربما كانت المجدل نظرا للمسافة والاتجاه (افادة احد اهالي غزة) •

(١٢) زدود : وهي على الارجح ازدود او بزدود او اشدود • وقد ذكر ياقوت بانها مدينة (ياقوت "٤" ١٨ ١٠) وقد ذكرت هذه المدينة في التوراة وهي احدى مدن الفلسطينيين الخمس • يشوع ١٣ :٣" من الشيحور الذي هو امام مصر الى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين اقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزي والاشدودي والاشقلوني والجتي والعقروني والعويين " •

في ايام العباسي كانت بيوت هذه البلدة من القش ولا يزال فيها بعض الاكواخ من القش والذرة والشعير غير ان بدء الاسمنت اخذ يحل محل القش (معلومات من احد سكان المنطقة) •

.../...

(١٣) نابلس : شكيم : السامرة •

كانت احد المدن القديمة في ارض كنعان وغير اليهود اسمها الى سوخار (يو ٤ : ٥) قيل انها الفتاة سرياقية معناها السكر والكذب لانها كانت مشهورة بهاتين الفضيحتين وتسمى الان نابلس تحريفا لاسمها اليوناني نيابوليس اى المدينة الجديدة وهي على بعد ٣٤ ميلا شمالي اورشليم وكانت قصبة اسرائيل في ايام يربعام • وكان فيها (سنة ١٨٩٤) ٢٠٠ من السامريين • ولهم كنيس حيث يقدمون العبادة كل سبت ومدرسة ايضا حيث تعلم لغتهم •••• غير انه رغما من عداوة السمرة لليهود فقد شاركوهم في عصيانهم على الرومانيين (قاموس الكتاب بيوت الطبعه الاميركية سنة ١٨٩٤) •

وقد ذكر علي الهروي سنة ١١٧٣ ان خان نابلس مسجدا يقال ان آدم صلى في موقعه • وفيها جبل جرزيم الذى يعتقد اليهود ان ابرهيم اتى بذبيحة اسحق عليه وان السامريين يتوجهون اليه في الصلاة • (علي الهروي مخطوطه اوكسفورد ورقه ٣٤ ظ •

ويقول الدمشقي ان نابلس في اقليم السامرة ويقع على ان القرآن نزل في جامعها ليل نهار • وانها اشبه بقصر وسط الحدائق ويحمل زيت زيتونها الى اراضي مصر وسوريا والحجاز وصحراء العرب • ويسافرون من زيتها الى الشام لاستعماله في الجامع الاموى الف قنطار دمشقي سنويا ويحملون من زيتها صابونا ممتازا يحمل الى جميع الاراضي والى جزر المتوسط وفي نابلس نوع من البطيخ الاصفر افضل جميع انواعه (دمشقي ٢٠٠) وقد اشاد غيس بحسن موقعها وخصبها وان تجارتها مع دمشق وهو يأمل ايصالها الى يافا وحيفا ويذكران القطن من اهم محصولاتها وان الصابون يصنع بكثرة فيها وهو من النوع الجيد (غيس حالة سوريا التجارية و والسياسية ٤ باريس سنة١٨٦٢ ٤ ص ٣٠٠) •

(١٤) بيته بيثى او بيثا وهي بمثيل في العهد القديم معناها في العربية " الله بيته " مدينة في يهوذا (يش ١٥ : ١١) وتدعى بيته في (١ اى ٢٦ : ٦) • وقد اخذها عنوة من الفلسطينيين وهدم حصونها واشتهرت في حروب المكابيين وسميها يوسيفس بيثا وكانت مدينة كبيرة كثيرة السكان وبعد خراب اورشليم كانت مقرا لمدرسة شهيرة ولمجلس السنهدريم • وهي بيثا الحالية (١٨٩٤) قرية كبيرة على بعد ١٢ ميلا جنوبي يافا و٣ اميال شرقي البحر • وفيها قبر فطالائيل حسب التقليد وخراب كنيسة قديمة ولها ميا• غير ان الصخور المحيطة تحت الما• تجعل العرس خطرا عند اشتداد الاعوا• • (قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست الطبعة الاميركية ١٨٩٤) •

(١٥) مجاعات فلسطين : ذكرت مرارا في الكتاب المقدس • حدث جوع مرتين في مدة ابرهيم واسحق (تك ١٢ : ١٠ و٢٦ : ١) وبمجاعة حكم يوسف في مصر (تك ص ١ الى ٤٦) وحدث جوع شديد في ايام آخاب (١ مل ص ١٧ و١٨)

(١٦) هذه الاعمار : لا تزال هذه العادة في بعض الاماكن النائية • واذكر ان جدى كان يضع على طرف رزمته بجانب الطريق جرة خلا• ما• قرب ثلثين تركها " سبلا• " حسب تعبيرة ٤ اى لابطا• السير • غير ان تحسن حالة المواصلات وسرعة السيارات وما شاكل ابقى السابلة عن هذه العادة الحميدة• وقد افاد بعض اهالي تلك المنطقة المحترمين ان هذه العادة لا تزال متبعة فيها • وان بكن بطريقة اخف من السابق •

.../...

(١٧) النمـــل : هناك مكان بين بيته وبانا لا يزال يدعى " وادى النمل " ميان النمل نزال • (افادة احد اهالي المنطقة) •

ذكر الوادى ابن بطوطه ("١" ١٢٦) وياقوت ("٤" ٨٨٠ و"١" ٧٧١) •

(١٨) عسقـلان : او اشقلون " (اى المهاجرة) وهي احدى مدن الفلسطينيين الخمس • وهي قريبة على بعد عشرة اميال من غزو والى شماليها • اخذها يهوذا (قض ١ : ١٨) وزارها شمشون (قض ١٤ : ١٩) وجاء الانبياء عن خرابها • (ار ٤٧ : ٥و٧ وعا ١ : ٨ وزك ٩ : ٥ وصف ٢ : ٧) •

كانت اشقلون مركز عبادة الالهة الفلسطينية اشتاروت التي نهب السكيثيون هيكلها سنة ٦٢٥ق•م• وكانت مسقط رأس هيرودس الاكبر وهدمت سنة ١٢٧٠ ويكثر في موضعها الان آثار العواميد والكتابات على الحجارة غير ان كثيرا من حجارتها قد نقل الى غزو وبانا يوجد فيها اشجار كثيرة من الزيتون وغيره من الفواكه والكرم وقرب الاثار الان قرية الجورة وفيها نحو ٣٠٠ نفس (عن قاموس الكتاب المقدس تأليف الدكتور • بوست طبع في المطبعة الاميركية ١٨٩٤) •

وقد ذكر البلاذرى ان الروم اغاروا على عسقلان وجامعها في ايام ابن الزبير وخربوها • وان الخليفة عبد الملك اعاد بناء المدينة (البلاذرى ١٤٣) •

وقد كتب المقدسي سنة ٩٨٥ ان عسقلان مدينة على شاطئ البحر وفاكهة الاشجار مشهورة بجودة الخمير وان مصنوعاتها ممتازة والحياة فيها هنيئة • الا ان مرفأها غير امين ويكثر فيها الدلم وهو نوع من السمك ذباب الرمال (مقدسي ١٧٤)

.../...

وقد قال علي الهروي ان بين بيت جبرين وعسقلان بقع وادي النمال التي يذكر القلقشندي انها المكان الذي تحدث فيه سليمان الى النمال كما ورد في القرآن • ويذكر المؤلف ذاته انه يقال بالقرب من عسقلان البئر التي حفرها ابرهيم بيديه ويعلق على ذلك ب " والله اعلم " (علي الهروي مخطوطه اوكسفورد ورقة ٤٦) •

ويعتقد ياقوت ان عسقلان تعني اعلى الرأس • وفي رأيه ان هذه المدينة هي عروس الشام • (ياقوت "٣" ٦٧٣) •

وقد زارها ابن بطوطه سنة ١٣٥٥ ويذكر انها خراب كلها رغما عن عمارها سابقا • ويؤكد ان رأس الحسين الذي كان فيها نقل الى القاهرة وقد كان محفوظا محفوظا في جامعها • ويذكر ان آبار ابرهيم جنوبيها وينزل اليها بادراج عريضة • ويذكر ايضا وادي النمال خارجها • (ابن بطوطه "١" ١٢٦) •

(١٩) هيـــــرودس : اسم لعدد من ملوك اليهود في ايام الرومان وهنا يعني المؤلف هيرودس الاكبر الذي حكم من سنة ٤٠ ق•م• حتى سنة ٤ ق•م• ويدعي ان ذبح اطفال بيت لحم وادرك المسيح الا ان هذا الخلاف ناتج عن خطأ في التأريخ المسيحي المتأخر عن وقته الاصلي بأربع سنين • وهو ادومي الجنس ابن انتيباتر الذي عينه يوليوس قيصر بروكيراتورا على اليهودية سنة ٤٧ ق•م•

.../...

ولما كان هيرودس ابن ٢٥ سنة عين حاكما على الجليل ثم عينه انطونيوس رئيس بن على اليهودية سنة ٤٠ ق.م. وبعد ذلك وقاه السناتوس الروماني الى رتبة ملك اليهودية وبمعونة الرومانيين انتصر على اعدائه وبدأ يقتل باعدائه واصحابه . غير ان اليهودية ازدهت ايام ملكه فقد اقام المعالم العظيمة في اقامة الابنية الفخمة للعموم وبنى مدينة جميلة على شاطئ المتوسط سماها قيصرية اكراما لاوغسطس قيصر وهم السامرة التي كانت قد خربت وسماها سباسطي وهي كلمة يونانية تعني اوغسطس اى المجيد في اللغة وبنى في اورشليم وقربها مسرحا وميدانا وبنى بعض الحصون على الثغور وبنى الهياكل في عدة اماكن غير ان اهم جميع مشروعاته هيكل اورشليم فانه استخدم الف كاهن للعمل فيه وثلثات من الصناع وغيرهم . وابتدأ بالعمل سنة ٢٠ ق.م. ولم يتم الا بعد ٤٦ سنة اى بعد موته بنحو ٣٠ سنة (قاموس الكتاب . بيروت)

(٢٠) يـــازور : والصواب يازور وهي واقعة بين غزة ويافا .

وجاء في ياقوت ان يازور بلدة صغيرة على شاطئ ناحية الرملة ، في قاطعة فلسطين (ياقوت "٤" ١٠٠٢) .

(٢١) فرســـخ : يذكر العباسي انه كان يسير (League) في الساعة . وقد ذكر تاج العروس الفرسخ بمعنى الساعة . او الراحة ، ذلك ان صاحبه اذا مشى قعد واستراح ، والفرسخ اى مسيرة الساعة لا قياس له فهو يختلف بالنسبة للمكان والزمان . فهناك فرسخ السهل

.../...

وفرخ الجبل. فرخ الصيف وفرخ الشتاء . ولم يذكر ابن منظور الفريخ في قاموسه لسان العرب . ونقل الطبر وبيادى ما جاء في تاج العروس باختصار اما الجواهري فلم يبين معناه لانه فاته معنى السكون في الفريخ وذلك لما يراه صاحب تاج العروس .

(٢) الرملة التي يدعوها المسيحيون بالرامة . وقد ذكر عنها الدكتور هوغ في رحلته الى دمشق والقدس الخ .(٢) ١٩٤ طبعة لندن سنة١٨٣٥ ان يوسف الرامي [الذي كفن المسيح ودفنه] من هذه البلدة ويذكر البلاذري (ص١٤٣ طبعة دي غويه انه قبل ان انشأ المسلمون هذه المدينة (الرملة) لم يكن في موقعها اي اثر لمدينة بل بالعكس اشتق اسم المدينة . وتذكر دائرة المعارف الاسلامية ان الاسم بوجود مدينة سابقة باسم اريماثيا او راماثا او راماثايم او الرامة قد هجر اليوم ولهذا يبدو ان هذه التسمية المسيحية لا تستند الى اساس .

وقد ذكر اليعقوبي ان الرملة هي حاضرة مقاطعة فلسطين . انشأها الخليفة سليمان بن عبد الملك . ونقل اليها سكان اللد الحاضرة السابقة — فخربت اللد . ويشرب اهلها من ماء الابار والينابيع وقربها نهر يبعد اثني عشر ميلا عنها . واهلها خليط من العرب والروم والسمرة . (اليعقوبي ١١٦)

ويروي البلاذري ان الوليد ولى اخاه سليمان مقاطعة فلسطين فجعل هذا مقامه في اللد . ثم بنى مدينة الرملة وجعلها عاصمة . وأول بناء اقيم فيها قصره ثم دار الطرازين التي انشأ فيها صهريجا عظيما . ثم وضع سليمان مخطط الجامع وشرع في بنائه الا انه خلف اخاه قبل الفراغ من العمل . وقد اكمل العمل عمر بن عبد العزيز فتممها بعض الاجزاء . وقد حفر لاهل الرملة قناة دعاها بردى (البلاذري ١٤٣) .

وقد ذكر المقدسي بعض محاسن الرملة وتكلم عن ابوابها
وديوبها فعد منها درب بير العسكر درب جامع العقابه ، درب القدس ،
درب اللد ، درب يافا ، درب مصر الخ • — (المقدسي (٣٦و١٦٤) •

(٢٣) الشيخـــان : هما من ولد ابي غوش ، الذى كان يضمن الجزيه على
زوار القدس ، من نصارى ويهود ، باسم سلطان تركيا
وسيأتي الحديث عنه عند بحث قرية العنب (راجع "٢٥" من هذا الفصل)
وقد مرّ بالقرب من ابي غوش الدكتور هوخ سنة١٨٣٥ عندما كان ابرهيم باشا
المصرى يسيطر على سوريا ، فذكر ان القائد المصرى حوّل عليه الجزيه معددا
اياه بمصادرة اموالـه وهدم داره •(هوخ ، زيارة الاسكندرية والقدس ودمشق
"٢" ١٩٥و١٩٧) •

(٢٤) البرنس الازرق : بعد انطلاق الدكتور هوخ من قرب مقر ابي غوش لم يلبث ان
يذكر انه لقي " سائسا عربيا يسير امام فارس متوسط العمر
دلت عمامته الزرقاء وصدره المزين على انه مسيحي " (هوخ "٢"ص ١٩٦) •

ان قضية الزي لغير المسلمين يعود عهدها في أيلاعص الى
ايام هارون الرشيد وليس الى عمر بن الخطاب غير ان الامر الذى اصدره هارون
الرشيد الى النصارى واليهود لم يكن ساريا لفصول حتى ايام المتوكل • فقد اصدر
عددا من الاوامر والنواهي منها تحريم ركوب الخيل على غير المسلمين واكتفاؤهم بركوب

البغال والحمير وقد حتم على غير المسلمين ارتداء الالوان الصفراء . (لامنس تاريخ سوريا "١" ١٣٧ عن الطبري "٣" ٧١٣ ٤ ١٣٨٩ ٤ ١٤١٩) .

وقد جدد " الحاكم " ما كان قد ابتدعه " المتوكل " من مضايقات ضد المسيحيين (لامنس ١٥١ نقلا عن القرشي ٦٨) .

ثم كانت تتجدد هذه المضايقات وتتغير الالوان وقد لبس الحكام في ايام محمد علي والي الشام سنة ١٨٠٧ اصدرت الاوامر المجددة بجعل لبس الاصفر وقد شنق احد النصارى لاحتذائه خفا اصفر . واوجب على النصارى لبس الاقمشة الدكناء (راجع الحاشية رقم "٤" في الفصل العشرين) .

وفي بعض الاحقاب او في ايام بعض الامراء والحكام كان يحصل بعض التراخي في تطبيق هذا العسف وقد ذكر الامير حيدر في معرض بحثه عن السنة ١٦٣٣ م ١٠٤٣ هـ . " في دولة الامير فخر الدين قويت النصارى وركبوا الخيل بسروج ولبسوا عمائم بيض وكبر ولبسوا مناطق وسيوفا مرصعة وحطوا الصليب المرصع (حيدر — نشوء مقنيطيس . مصر ١٩٠٠ ص : ٧٢٠) .

(٢٥) قرية العنب : " يعتقد البعض انها قرية بعاريم احدى بقعة الغابات وهي قرية بجبل الوارد ذكرها في يشوع ١٥ : ٦٠ و١٨ : ١٤ او قرية عاريم عز ٢ : ٢٥ . (قاموس الكتاب لبوست ص ٢١٤) . وبها

.../...

في يشوع ٩ : ١٧ انها احدى مدن الجبعونيين وانها على تخم بيوذا وبنيامين (يش ١٥ : ٩و١٠ و١٨ : ١٤و١٥) وتدعى بعلة بيوذا (٢ صم ٦ : ٢) وحمل اليها تابوت العهد من بيت شمس (١ صم ٦ : ٢١ و٧ : ١و٢) فبقي هناك حتى نقله داود الى بيت عوبيد ادوم (٢ صم ٦ : ٦ــ ١٠و١١ اى ١٣ : ٥ ــ ١٣و٢ اى ١ : ٤) وقد ولد في قرية يعاريم التي اوريا الذي احدمه الملك يهويا قتم (ار ٢٦ : ٢٠) وعاد اليها ٧٤٣ من الذين سبوا منها الى بابل (عز ٢ : ٢٩) .

وقد مرّ فيها ناصري خسرو سنة ١٠٤٧ م. وذكر ان فيها عينا ذهبا تتفجر ماؤه من تحت صخرة (ناصري خسرو ٢٢) عن لسترنج ٤٨٠

ويذكر " لسترانج " (ص ٤٨١ ــ فلسطين في ايام المسلمين) ان هذه القرية التي تعرف اليوم باسم " ابو غوش " هي بعلة القراة (راجع اعلاه) وهي ربما كانت الموقع الذي ذكره المقدسي باسم بلعه .

عرفت قرية العنب قبل منتصف القرن التاسع عشر بقليل باسم قرية العنب . ذكرها فيس ولم يذكر قرية العنب في اللائحة رقم (٨) في آخر كتابه فلسطينا . اما العباسي وبيتسن فلا يذكر انها كذلك سنة ١٨٠٧ وهي ايضا سنة ١٨٣٥ .

.../...

ذكر سيتسن (٢٠٦ ٦٥) انه مرّ قرية العنب حيث عرف عن ابي غوش شيخ القرية وسيد جوارها • وان حاكم القدس يخاف من امتداد سلطة ابي غوش فيقيم الخلاف بينه وبين القرى غير الخاضعة له • وقد تعرف سيتسن الى " ابي غوش " في القدس في دير المخلص حيث كان يأتي ذلك الشيخ لابتزاز بعض الاموال من الرهبان وكان الرهبان يضطرون لارضائه حتى لا يلجأ الى العنف مع زوار البيت المقدس • وقد كان مع سيتسن منظار فلكي فاعجب ابو غوش ان ينظر به ويتعرف الى طريقة استعماله • وذكر سيتسن ان ابا غوش في الاربعين من عمره قوي البنية متين العضلات وكان يحمل اربعة " وقر " الخاصة بضيعه اسابيع قبل وصول سيتسن والزوجة الاخيرة ابنة الشيخ نمر العدواني كبير مشائخ البلقاء •

وابو غوش المير اسرة قوية في تلك المنطقة كانت مكلفة بفرمان سلطاني بتحصيل الجزية من النصارى واليهود القادمين الى القدس على ان يكفلوا العدالة والامن في المنطقة • (دميانوس براموكي كبير اثريي فلسطين سابقا — افادة شفوية) •

.../...

الفصل السادس عشر

(١) مسجد :" لفظة Mosque الانكليزية او Mosquée الفرنسية مأخوذة عن لفظة Mezquita الاسبانية التي اخذت بدورها عن لفظة مسجد العربية • وهي في نظر " لسترانج " تشمل مجموع منطقة الحرم بكاملها ولا تنحصر في الاقصى وحده • لان لفظة مسجد العربية تعني مكان السجود • واذا قلنا مسجد القدس فنحن نعني المجموعة الكاملة • غير ان الجامع كما يستدل من معناه مكان الاجتماع • فينبغي ان يقال الجامع الاقصى وجامع الصخرة • وليس المسجد الاقصى ومسجد الصخرة كما شاع الاستعمال خطأ ويخطئ الاصطلاح بالنسبة للكتاب ايضا • فقد سمى المقدسي منطقة الحرم بكاملها المسجد او المسجد الاقصى اما القسم الرئيسي من البناء الذي نسميه عادة الاقصى فقد اشار اليه بالمقصّى ، فهو يقول مثلا : " يدخلون الى المسجد بثلاثة عشر بابا وهو يعني بذلك ابواب الحرم • وقد استعمل ناصر خسرو لفظة " بوشش " (المقصّى) للبناء الرئيسي • واستعمل احيانا له لفظة القصوة ، ..." (له سترانج ٩٦-٩٧) •

اما تعليل لسترانج للفظة المسجد فانه بعيد عن الواقع في ما خص معنى الجامع • فالمسجد عند المسلمين اى مكان يقرر للصلاة وليس كل مسجد جامعا لان من شروط الجامع وجود عدد كبير من المصلين ووجود المحراب • فيقال مسجد جامع اذا تم فيه هذان الشرطان •

.../...

(افادة احد المسلمين العارفين) •

وقد استعمل العباسي لفظة الهيكل لمنطقة الحرم ولا يخفى ما في هذه اللفظة من معنى وثني او يهودي فاستعملت لفظة الحرم بدلا منها او غيرها من الالفاظ وفقا للاقضاء •

واستعمل ايضا لفظة كابالة فترجمها معبدا ان كان الاثر اسلاميا وتركها كابالة ان كان الاثر مسيحيا •

وهو لم يوصف حتى الان وصفا تفصيليا • (٢)

مرّ العباسي بالقدس سنة ١٨٠٧ م• ولم تكن آنذاك قد بدأت حركة الاستشراق او نقل الاثار الصربية الى مختلف اللغات الاوروبية وان الترجمة الى اللاتينية كانت كثيرا ما تخنق تأليف الكتاب العربي في عصر التأليف الذهبي وتصريح العباسي لا يمكننا ان نحمله على محمل الجهل تماما الا انه لا يتفق مع الواقع • فقد اشبع المرء لفن المسلمون الحرم القدسي بحثا ودرسا ووصفا • وذلك لان المسلم بحكم دينه ومحالة لان عليه ان يحج ولو مرة في حياته وكثيرا ما كانت تتحول رحلات الحج عند الكتاب المسلمين الى رحلات علمية تاريخية وجغرافية هذا فضلا عن ابناء بيت المقدس الذين جاوروا الحرم في سكناهم • كالمقدسي •

ومن اشهر من كتب عن الحرم ووصفه من المسلمين المؤلفون الاتية اسماؤهم : المقدسي ، ناصري ، خسرو الادريسي وعلي الهروي ، الاصطخري وابن حوقل ، ابن بطوطه والسيوطي ومجير الدين•

.../...

ومن المصادر من ذكر الجامع واقدمهم ميؤاس ص ٥٢٤ كرونغرافيا (بون ١٨٣٩).

"سنة ٦١٣٥ من تاريخ الخليفة وسنة ٦٣٥م : في هذه السنة بدأ عمر بترميم الهيكل في القدس لان البناء في الواقع لم يكن قائما آنذاك . فقد كان خرابا بلقعا . وعندما سأل عمر عن السبب اجابه اليهود بقولهم لن يقوم الهيكل على اساس متين ما لم تنزعوا الصليب المنتصب على جبل الزيتون . وعليه فقد نزع عمر الصليب من ذلك المكان حتى يتركز بناء الهيكل . وقد فعل ابناء المسيح بكثير من الصلبان الفعل ذاته في الامكنة الاخرى . وقد كتب ميؤاس في اواخر القرن الثامن اي انه كتب قبل اقدم المؤلفين العرب عن هذا المكان بقرن ونصف " . (ملخصة عن " كه لستراينج " الحاشية ٩١ــ ٩٢) .

اما فوكيه فقد كان شيخ من كتبوا بالتفصيل عن الحرم ومقاييسه وذلك في اواخر القرن التاسع عشر .

ويرجح ان علي العباسي هو اول من زار الحرم من الاوربيين في القرن التاسع عشر وهو اول من وصفه وصفا دقيقا .

(٣) ابنية مختلف العهود الاسلامية ....

بعد تسلم القدس على يد عمر بن الخطاب سنة ٦٣٥م/١٤هـ امر الخليفة ببناء جامع في المكان الذي كان يعتقد موقع هيكل سليمان . وقد حقق

.../...

عمر من هذا باكتشافه الصخرة المطهرة تحت ركام الاقذار • وذلك بناء على الوصف الذي كان قد وصفه النبي عن ليلة المعراج ولا مجال لبحث ما رافق هذا الاكتشاف الان غير ان ما يجدر ذكره ان المؤرخين العرب من البلاذري الى الطبري لم يتركوا اي الاوصاف عن الجامع الذي بناه عمر • ومما لا شك فيه ان الجوامع الاولى لم تكن سوى ابنية بسيطة من الخشب او الاجر وغيره من المواد التي تتغلب عليها العناصر بسرعة • ولذلك لم يبق شيء له اهمية من ذلك الجامع ليدخل في المسجد الذي اتاه عبد الملك حول سنة ٦٩٠م• (٧٢هـ) • وعلى كل فقد كان هناك انقاض كنيسة العذراء من ايام يوستنيانوس وقد افاد عبد الملك من هذه الانقاض التي كانت في متناول اليد • وقد وصف هذه الكنيسة بروكوبيوس وبحث هذا الموضوع الاستاذ هايمانوس في كتابه The Holy Races of Jerusalem الفصل الرابع • •

واول من ذكر عن وصف بناء عبد الملك هو المقدسي سنة ٩٨٥ اي بعد ثلاثة قرون بعد اقامة الصرح • •

اما قبة الصخرة فهناك الابحاث المفصلة عنها وعلى ما يظهر فان تأثير الكنيسة كان اقوى من غيره على الرحالين العرب •

وقد ذكر " له سترانج " نقلا من عدة مخطوطات في المكتبة الوطنية مقطعا نقله السيوطي سنة (١٤٧٠) ثم مجير الدين سنة ١٤٩٦ (ص ٢٥ من نسخه مصر لكتاب مجير الدين) ويعرف من هذا المقطع ان هزة ارضية هدمت المسجد فرممه المنصور سنة ١٠٤ هـ (٧٢١م) لان الطبري وابن الاثير يذكران ان المنصور زار القدس وصلى في الجامع •

•••/•••

ثم ردم سنة ٧٨٠ في عهد المهدى وظل حتى سنة ١٨٥م. في ايام المقدسي الذى وصفه ولم يحدث بعد ان ردمه المهدى اى خراب في المسجد غير ان المقدسي ذكر ان عبدالله بن طاهر حاكم خراسان والمشرق اقام فيه صفا من الاسطوانات ولم يذكر المؤلف العرب قبل المقدسي شيئا حريا بالبحث (لسترانج ص٩٦-٩٨) .

حصلت بعض الهزات الارضية العنيفة سنة ١٠١٦م. و١٠٣٤م. وقد ذكر ابن الاثير ان قبة الصخرة سقطت (ابن الاثير "٩" ٢٠٩) .

وقد تمكن علي الهروى الذى زار القدس سنة ١١٧٣ عندما كان الصليبيون يحتلون البلاد من تعيين نقش لم يلحظه ذى فوجو لانه لم يذكره في كتابه . وذكر في هذا النقش من اعمال الترميم والرمم المهندس المصرى ((مخطوطه اوكسفرد على الهروي ص: ٣٦ على ظهر الصفحة . نقله عن المخطوطه له لسترانج ونشره في البيان الروحي لتشرين الاول سنة ١٨٨٨م. ص ٢٨٠ لسترنج) .

واذا جمع وصف المقدسي ووصف ناصرى خسرو الذى زار القدس سنة ١٠٤٧م. فبالامكان اخذ فكرة صحيحة جدا عما كان عليه المسجد قبل وصول الصليبيين (له لسترانج ص١٠٢) .

سنة ١٠٩٩ اصبحت القدس في حوزة الصليبيين فاحتل الجزء قرب الهيكل وقبر هؤلاء فيه تغييرات هامة الا انهم تركوا قبة الصخرة ولم يمسوها .

.../...

وفي سنة ١١٨٧ استعاد صلاح الدين القدس فاستعاد الحرم الذى كان فرسان الهيكل قد حولوا فيه ربضه مسجدا (ابن الاثير ٩ "٣٦٥) •

اما الرحالة ابن بطوطه فلم يزد في ما اعطاه من المعلومات كثيرا عما ذكر قبله • (ابن بطوطه "١" ١٢٢—١٢٣) •

ويذكر مجير الدين سنة١٤٤٨ ان النيران التهمت السقف سنة١٤٤١ م فرممه السلطان الملك الظاهر (مجير الدين ٤٤٣) (ملخصه عن لسترانج ٨٩—١١٣)

(٤) يصح غير المؤمن ضحية قصة الجريمة: سنة١٨١٠ عين سليمان باشا والي عكا واليا على دمشق ايضا •

وكان يوسف باشا معسكرا فيها فرفض الرضوخ عندئذ استعجد سليمان باشا بالامير بشير فدخل الجيش اللبناني بقيادة اميره دمشق منتصرا وعكر لابه سليمان باشا على المدينة • فانتشر الخيالة الدروز في المدينة هاتفين " لقد اخذنا دمشق بحد سيوفنا " ومع هذا فقد منع عليهم اهل دمشق دخول الجامع الاموي (ميخايل مشاق :ص: ٢٧) فلا عجب اذا منع على النصارى دخول المعابد الاسلامية •

وقد جاء في القرآن " انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (الاية ٢٨ من سورة التوبة) •

انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء • (٩١ النمل) •

.../...

قالوا ان الله حرّمها على الكافرين (٥٠ الاعراف) .
(المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي
(القاهرة ١٣٦٤) .

جا" في لسان العرب لابن منظور تحت لفظة " حرم " :
" والحرمان مكة والمدينة" .

وجا" في محيط المحيط للبستاني :" البلد الحرام مكة والبيت الحرام المسجد الذى يحج اليه بها . والمسجد الحرام الكعبة ... والحرم الاقصى بيت المقدس والحرمان بالفظ التثنية مكة والمدينة .

وقد ذكر الفيروزابادى ان الحرمين هما مكة والمدينة . وذكره الزبيدى صاحب تاج العروس ايضا .

وقد جا" في دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظه مسجد (
" وقد اوصى القرآن في السورة التاسعة الاية السابعة عشرة بعدم جواز دخول المشركين جوامع الله .

كانت المساجد في اول عهدها مكان اجتماع لكثير من القضايا . وكثير من الامور التي تأنف منها اليوم في بيوت الله كانت مألوفة قديما . وقد ذكر لامنس في كتابه معاويه ص:١٣ وفلهوزن ص:١٠٠ من المجلد السادس ان النصارى في ايام الامويين لم يكن محرما عليهم دخول الجوامع . وان معاويه

.../...

وقتا لما اورده ابن ابي اصيبعه ("١" ١١٧) كان يجلس مع طبيبه المسيحي ابن اثال في جامع دمشق • وقتا لاحمد بن حنبل ان اهل الكتاب او اهل العهد وخدمهم من غير المشركين حق لهم دخول جامع المدينة • (المسند "٣" ٣٣٩و٣٩٢) وقد حتم على المسيحيين دخول المساجد في ايام عمر بن عبد العزيز (لاحظ كتابنا المذكور ص : ١٣ الحاشية ٦) وقد رأى ابن الحاج (المدخل "٢" ٥٧) ان لا يحق للرهبان الذين جعلوا الحصر وضعها في الجامع ، غير ان الظروف لم تكن واحدة في كل زمان ومكان • فكان يسمح للنصارى واليهود بدخول مسجد الخليل حتى منع ذلك بعضهم وقتا لرأى كاعتبار تاريخ السلاطين المماليك المجلد الاول القسم الثاني ص : ٢٧ " (دائرة المعارف الاسلامية " مسجد " ملخصة) •

(٥) هيكل اليهود : يراد بالهيكل عادة هيكل اورشليم المبني على جبل موريا وكانت هيئته تشبه الخيمة وذكر في الكتاب المقدس ثلاث هياكل متتالية •

"١" هيكل سليمان وقد انتهى بناؤه سنة ١٠٠٠ ق•م• الى سنة ٤٨٠ لخروج بني اسرائيل من مصر (امل ٦ :١) واخربه ملك بابل سنة ٥٩٨ ق•م•

"٢" هيكل زربابل وقد بدأ بناؤه ٥٣٦ ق•م• وتم سنة ٥١٥ ق•م• اعظم واوسع من هيكل سليمان وقدايسه اكبر •

"٣" هيكل هيرودس : وكان يحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل (قاموس الكتاب بوست) .

مصادر المقاييس تؤخذ من عدة اصول : "١" التوراة وهي غير واضحة ولا تعطي نتيجة حاسمة "٢" وصف يوسيفوس الذي دون عشرين سنة بعد خراب الهيكل وهي تعطي اوصافا عامة ولا تفاصيل دقيقة فيها . "٣" اوصاف التلمود . وفيها بعض المقاييس الواضحة الا انها ناقصة . "٤" ذكر الهيكل في الآثار اليهودية القديمة . وتفاوت قيمتها في الدقة "٥" اعمال الحفريات في اواخر القرن التاسع عشر في منطقة الحرم واهمها وصف الدكتور جايمس ستروثر في دائرة المعارف المكلنتوك وستروثر (

وبما ان دار الامم كانت تضم الهيكل فيمكننا استخلاص المقاييس التي ذكرها العباسي منها . وهي ٩٩٠ قدما من الشمال و١٠٠٠ من الشرق و٩١٠ من الجنوب و١٠٦٠ من الغرب (Bible Atlas, Hurlbut Chicago 1910)

(٦) ابواب الهيكل : ابواب منطقة الحرم كما ذكرها المقدسي سنة ٩٨٥م.
"١" باب حطه "٢" ابواب النبي "٣" ابواب محراب مريم "٤" ابواب الرحمة "٥" باب بركة بني اسرائيل "٦" باب الاسباط "٧" الابواب الهاشمية "٨" باب الولية "٩" باب ابرهيم "١٠" باب ام خالد "١١" باب داود

.../...

قاصوى خسرو سنة١٠٤٧

"١" باب حطه "٢" بابالعمي "٣" بابالعين "٤" باب الرحمة وباب التوبة "٥" بابالابواب "٦" بابالاسباط "٧" بابالصفوة "٨" باب صقر "٩" باب داود وباب السكينه ٠

مجير الدين سنة١٤٩٦ م:

"١" بابالعمي "٢" بابالاقصىالقديم "٣" بابالرحمه وباب التوبه "٤" بابالاسباط "٥" باب حطه "٦" بابالداود اريه "٧" باب الغوانمه "٨" باب الذبير "٩" بابالحديد او بابالقطانين "١٠" بابالسلسلة وباب السكينه ٠

الابواب الحديثة سنة١٨٩٠ م٠

"١" بابالعمي تحت بابالمغاربة "٢" باب الاقصى القديم وهو الباب المزدوج حديثا "٣" البابالقديم المفرد او البابالمطهر "٤" باب الرحمه وبابالتوبة والباب الذهبي "٥" باب الاسباط "٦" بابالحطه "٧" باب العمم "٨" بابالغوانمه "٩" بابالذبير "١٠" بابالحديد او باب القطانين او باب المطوية "١١" باب السلسلة وبابالسلام (له ستراتيج ١٨٩ وقد اخذها عن اوصاف العمرانيين المذكورين) ٠

٠٠٠/٠٠٠

لم يذكر العباسي سوى تسعة ابواب غير ان هناك ابوابا داخلية اوردها عند وصفه الحرم • منها باب الرحمة مثلا خارج جدار الروضة الجنوبي

وليس عجيبا ان يحصل بعض الاختلاف في التسمية او في الابواب لانها فاصلة مدة طويلة من سنة ١٨٠٧ الى ١٨٩٠ •

زار الدكتور هوغ الكنيسة في اواخر سنة ١٨٣٢ ولم يجرؤ على زيارة المسجد • غير انه اخذ بعض المعلومات من المستر بوركهارت الذي دخله كمسلم بحلة صوفي درويش • واوصافه قريبة من اوصاف العباسي الا انها موجزة (هوغ "٢" ٢٧٢ ـ ٢٨٤) •

(٧) قـــدرون : او الوادي الاسود يمتد على بعد ميل ونصف الى الشمال الغربي من اورشليم ويسير الى الجنوب الشرقي الى ان يصل الى زاوية السور الشمالية • ويسمى ايضا وادي يهوشافاط • (قاموس الكتاب بوست) •

يذكره المقدسي باسم وادي جهنم (مقدسي ١٧١ و١٧٢) •

ويذكره ناصري خسرو باسم وادي قدرون وهو اول كاتب مسلم يتحدث عن غير المشالم فيه • ناصري (خسرو ٢٤ ـ ٢٦) • (السترنج ٢١٩)

ويتكلم ياقوت عنه بابهام فهو في نظره مكان الحشر (ياقوت "٣" ٢٥) •

(٨) جبـــل صهيـــون : (الجبل المشمس او الجاف) قد يطلق هذا الاسم للدلالة على كل اورشليم الا انه ينحصر غالبا في الجبل الجنوبي الغربي من المدينة القديمة • وهذا الجبل محاط من كل جهاته ما عدا الشمال بادية عميقة • في الشرق وادي الجبانين يفصله عن موريا ووادي ابن هنوم الى الجنوب والغرب وهي جزء المحاذي للمدينة فيها وادي جيحون • ولا يتفق العلماء في تحديد جبل صهيون شمالا • فظن بعضهم انه كان يمتد الى بيت داود قرب باب الخليل • وظن آخرون انه كان يمتد الى الشمال الى قرب باب العمود وصهيون اعلى من موريا بمئة وخمسة اقدام • وهو نحو ٢٥٣٩ قدما فوق سطح البحر •

وكانت جوانب الاودية في الاصل شاهقة اكثر مما هي الان (قاموس الكتاب : بوست) •

(٩) **الاقصى والصخرة :**

الاقصـــى : يستنتج هذا الاسم من ليلة المعراج المعروفة والتي يشير اليها القرآن : " سبحان من اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير " (سورة الاسراء) ويفهم من لفظة الاقصى هنا جميع منطقة الحرم الشريف وليس البناء القائم المسمى بالاقصى اليوم لانه لم يكن موجودا آنذاك وقد بناه عبد الملك • وجدد بناءه المنصور والمهدي ووجه المقدسي سنة ٩٨٥ وناصري خسرو سنة ١٠٤٧ ووجه صلاح الدين واعاد المحاريب الى الجامع (راجع الحاشية

رقم "٣" من هذا الفصل) ويحشها " له ستراتج " مطولا مع الاستشهادات اللازمة وأهم المراجع التي استقى منها له ستراتج : هايترولويس في كتابه (Hayter-Lewis, The Holy Places of Jerusalem)

حيث يذكر في الفصل الرابع جمع المراجع. مؤلف دى فوجيو Le Vogüé اورشليم م : " اورشليم مدينة هيرودس وصلاح الدين تأليف بيزنت وبالمير طبعه ١٨٧١
Jerusalem, the City of Herod and Saladin, Besant and Palmer 1871.
Le Temple de Jerusalem, de Vogüé.

(ملخصة عن لسترنج ٨٩ـ ١٧٨) .

الصخـــرة : اعتقد فارغيسون ان قبة الصخرة بناء بيزنطي وقد ناقشه لسترنج رأيه وبرهن انها بناء عربي بناها عبد الملك . وادعاها المأمون ولم يبق كامل النقش القديم ولا التاريخ الذى تمكن دى فوجيو بواسطة من ردّ نسبتها الى المأمون (لسترانج ١١٧ـ١١٩) ويتبين من النقش الذى اخذ فوجيو صورة عنه ان تاريخ البناء هو في السنة ٧٢ هـ. وقد احصى فيها العباسي عددا كبيرا من القبب والمنائط والمقاطر يحشها الستراتج نقلا عن المؤلفين العرب من ص : ٩١ـ١٣) .

وذكر العباسي ان النصارى (الصليبيين) اقتلعوا من الصخرة قطعة فتوارت عن ابصارهم ثم وجدت مقفلة قفلتين . وقد ذكر لسترنج نقلا عن ابن الاثير ان كهان الافرنج كانوا يقتطعون من الصخرة قطعا صغيرة ويبيعونها من حجاجهم بمثلها ذهبا . فعم احد ملوكهم هذه العادة (لسترنج ١٣٤ نقلا عن ابن الاثير .

.../...

وقد خص لسترنج مسجد الصخرة ببحث مستفيض نقلا عن اليعقوبي وابن الفقيه والمقدسي وناصري خسرو وولي الهروي واستعان على الاخص بوصف دي فوجيو : هيكل اورشليم (لسترنج ١٣٩—١٤٤ وقبة الصخرة ١٥٧—١٦٠) •

ولا بدّ من الملاحظة ان العباسي ذكر اسم قبة بسه بسه التي حفظ فيها احدى القائمين المقطعتين من الصخرة ولم اجد لها ذكرا عند لسترنج الا انه لم يذكر قبة موسى وقبة يعقوب (لسترنج ١٦٩) •

(١٠) بقايا هيكل سليمان القديم :

خلافا لرأي العباسي يعتقد له ستراتج ان الحجارة اخذت من كنيسة العذراء التي بناها جوستنيان والتي وصفها بروكوبيوس (له ستراتج ٩٠) •

)

وقد وفى الموضوع حقه الاستاذ هيجرليوس في كتابه (الامكنة المقدسة في اورشليم الفصل الرابع حيث ذكر المصادر جميعها) •

.../...

الفصل السابع عشر

(١) (Toise): مقياس فرنسي قديم واللفظ الاغريقية الاصل (tensa)

ويقدارها ٩٤٩" ١م٠

غير ان " التواز " كانت تختلف في فرنسا وفقا للمناطق وهذا ما جعل علماء الثورة الفرنسية يستنبطون النظام المتري ، لتعميمه ولتوحيد المقاييس

(٢) نبعة نحميا : وهي بئر ايوب التي اصطلح النصارى على تسميتها بعين نحميا منذ القرن السادس عشر ٠ ويرجح انها عين روجل المذكورة في سفر يشوع ١٥ : ٧ (له ستراتي ٢٢٠ـ٢٢) ٠

وعين روجل هي عين القصار وذكرت في (يشوع ١٥ : ٧و١٨ : ١٦و٢ صم ١٧ : ١٧ و١ مل ١ : ٩) وجاء في قاموس الكتاب المقدس ما يلي : " وظن بعضهم انها بئر ايوب في وادي قدرون وغيرهم انها عين ستي مريم "

وذكر المقدسي انه يقال بانه في ليلة عرفان تتصل مياه زمزم في نفق تحت الارض ببركة سلوام ٠ فيقيم الاهلون عيدا هناك في تلك الامسية ٠ (مقدسي ١٧١)

وقد بحث عن بركة سلوام بويت في قاموس الكتاب تحت لفظة " سلوام "

وذكر العباسي ما يلي بصدد الاتصال العجائبي بهذه البركة :
" لا شك ان سقف حلقي على خشونته احسَّ بالفارق الملحوظ بين الكاسين • فهذا بدا لي شديد البرودة وما • كه سخين ... وعليه فالعجيبة هي فوق متناول الحسن " •

وقد يكون ان العباسي اخطأ في العين التي شرب منها لانه يتحدث عن بير نحميا المعروف ببير ايوب ولم يشرب من بركة سلوام •

(٣) بحرة لوط : ويدعوها يوسيفوس الزفتية (Asphaltite) كما سماها العباسي وكما يسميها الفرنسيون احيانا) •

وتدعى ايضا بحر العربة (تث ٣: ١٧ و٤ : ٤٩ و٢ مل ١٤ : ٢٥ وبحر الملح (تث ٣: ١٧ ويش ٣ :١٦ و١٢ : ٣) والبحر الشرقي (حز ٤٧ : ١٨ ويو ٢ : ٢٠ وزك ١٤ : ٨) والبحر (حز ٤٧ : ٨) وبحر القدم (تك ١٤ : ٣) (قاموس الكتاب ٥ بويت في مادة بحر الملح) •

.../...

(٤) قبر مريم : يذكر الادريسي ان هذا القبر يصل اليه القاصد بعد خروجه من باب الاسباط وهو تحت كنيسة بديعة .

ويذكره علي الهروي وابن بطوطه والمقدسي (لسترانج ٢١٠) .

(٥) بيت لحـــم : المعروفة بولادة المسيح . وهناك بيت لحم اخرى في عجلون الناصرة ذكرت في يشوع ١٩ : ١٥ ويقول بوست (قاموس الكتاب) بيت لحم) انها لا تزال تدعى بهذا الاسم (سنة ١٨٩٤) .

وذكر المقدسي (١٧٢) ان النخل لا يعمر عادة في بيت لحم وان هناك نخله نمت بسبب ولادة المسيح . — اشارة الى القرآن .

وذكر ناصري خسرو (٥٣) انها مقصد الزوار من بلاد الروم . (السترنج ٥٩٠)

وذكر علي الهروي ان قبر راحيل بين القسرويت لحم وان فيها قبرى داود وسليمان . ومحراب الخليفه عمر الذى لم يخلفه الافرنج (مخطوطه اوكسفورد الورقه ٤١"٥") (السترنج ٥٩٠)

وذكر ياقوت ("١" ٧٧٩ وصاحب المراصد "١" ١٨٧) كيف اقنع الرهبان بن الخطاب بعدم الاستيلاء على كنيستهم والجامع الذى بناه .

(٦) خصام رعاة لوط ورعاة ابرهيم : فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي ابرام ورعاة مواشي لوط (تكوين ١٣ : ٧) .

(٧) حرب الملوك الخمسة : وحدث في ايام امرافل ملك شنعار واريوك ملك الأسار وكدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جويم ان هؤلاء صنعوا حربا مع بارع ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشنآبه ملك ادمه وشمئبر ملك صبوئيم وملك بالع التي هي صوغر (تك ١٤) والاصح حرب الاربعة الملوك ضد الخمسة .

(٨) بيت جبالا : شهرت بيت جالا بكونها البلدة التي دفنت فيها القديس غريغوريوس وقد بنى البيزنطيون كنيسة فوق ضريحه . ولا تزال الكنيسة الارثوذكسية الحديثة هناك تسمى كنيسة مار نقولا .

)

)

(٩) الحدث الجسيم : هو على كل حال انتقال فكري الى نجم بيت لحم عند ولادة المسيح " وهذا النجم فيه رأيان :

"١" انه نجم على سبيل الاية وربما كان من المذنبات تقدم " المجوس "" ووقف فوق حيث كان الصبي ""(مت ٢ : ٩)..."

"٢" انه اقتران زحل (المشتري) وزحل في برج الحوت " وانه اضيف اليهما المريخ ونجم آخر لماع وكان مشتري البهود "

.../...

"يزعمون ان مثل ذلك حدث عند ولادة موسى وسيحدث عند ولادة المسيح "
" وهذا الرأى مبني على براهين فلكية وأول من قال به كبلر (١٥٧١ـ١٦٣٠م)"
"في ١٠ تشرين الاول ١٦٠٤م رصد نجما ساطعا اقترن بالمشترى والمريخ "
" وحل فضب البحث الدقيق بيقان مثل ذلك قد حدث ثلاث مرات في "
" السنتين ١٦ و١٧ ق٠م٠ ولما كان التاريخ المسيحي الجاري متأخرا ٤ "
" سنين عن الحقيقة فيوافق ظهور هذا الاقتران المرة الاولى التي فيها رآه "
" المجوس في بلادهم في الشرق وظهوره بعد ذلك وقت سفرهم ومجيئهم الى "
" حيث كان الصبي ٠ وقد أيد حسابكبلر عدة فلكيين " (قاموس الكتاب "
" المقدس : نجم) ٠ "

(١٠) ضريح امرأة يعقوب في حبرون : من المعروف ان يعقوب تزوج من اختين ليئة وراحيل ابنتي خاله لابان ٠ وذكر العباسي الخبر على هذا الشكل لا يفهم منه اي الامرأتين ٠ غير انه ورد في التوراة ٠ (تك ٤٩: ٣٠ـ ٣١) ان ليئة دفنت في مغارة المكفيلة فالمرجح ان قبر ليئة هو الذي قصده العباسي ٠ غير ان سفر التكوين ص ٣٥: ١٩، ٢٠ يذكر ان راحيل دفنت في طريق افراته التي هي بيت لحم ٠ (راجع علي البهوي عن بيت لحم الحاشية "٥" اعلاه) ٠ ولا يزال ثمة مكان قرب بيت لحم اسمه قبر راحيل ٠

(١١) النبي يونس : هو صاحب الحوت المشهور ٠ وفي جلجول (اى الاربجاف) جامع باسم النبي يونس ٠ وجلجول بلد في جبال بيرذا (بش١٩ : ٥٨)٠ ولم تزل خرائبها تدعى بهذا الاسم ٠ وموقعها في القطر الشرقي

من هذه عهد اربعة امبال شمالي حيرون • (قاموس الكتاب " حلحول ") •

وقال ياقوت ("٢" ٣١٦) ان حلحول تقع بين القدس والخليل (لسترنج ٤٤٧) •

(١٢) كسر الروم للافرنج : لعب العباسي لعب الله ذلك وقد زاده مرارا اما عنيها او تصريحا • واكتفي بذكر ثلاث حوادث • اوهما موضوع هذه الحاشية والثانية في القبر الاقدس والثالثة في الكنيسة القائمة على ضريح العذراء مريم • وجميعها في هذا الفصل •

ولا يستغرب هذا الكره فهو سياسي وديني ودنيوي سياسي وتجاري واخيرا فهو صدى حقد مغلوب على امره •

كان امبراطور القسطنطينية ملاذ النصرانية وسيدها فانتزع اللقب والمركز شارلمان امبراطور الافرنج •

كان بطريرك القسطنطينية يطمع في السيادة الدينية فانتزع بطرك روما اللقب والمركز •

كانت القسطنطينية مرجع الدين والدنيا فغلبت على امرها وتقلص ظل سلطانها حتى خربها الافرنج ضربة قاسية سنة ١٢٠٤م• •

كانت وجهة الحركة التجارية فاستولت منها ذلك الجمهوريات الايطالية •

واخيرا لجأت تسرا الى المفاوض فاذا فوائده اكثر اشعبية من فوائد الخصم القريب ٤ وافضل في نظر البقية الباقية من المسيحية في الشرق •

والخلاصة فذلك حق المتسول القديم على مستحدث نعمة اوجبن املاكه وجاء يضع يده على اثاث البيت •

(انظر العلاقات العدائية بخصوص الاماكن المقدسة في الفصل الثامن عشر الحاشية "٢٢") •

(١٣) الاوربي في المقادس المسيحية في فلسطين : ذكرفيس (١٢٨) بعد شرح طويل مستفيض للخصامات القائمة في الاراضي المقدسة بين رهبان مختلف الطوائف المسيحية ودور فرنسا في الحفاظ على حقوق اللاتين كيف ان بوغوص باى دفع الاوربي الى اغتصاب الاماكة المخصصة للاتين

ويذكر فيس فضلا عن ذلك الفرمانات والشروط الشريفة البالغة ستة وعشرين وهي تتعلق بحق الكاثوليك في الاماكن المقدسة • (راجع فيس ص ١٠٢ — ١٤٦) • وراجع الحاشية "٢٢" في الفصل الثامن عشر ففيها بحث مفصل للخصام والفرمانات •

(١٤) بسبب الحرب : المقصود هنا الحرب النابليونية •

(١٥) المقاييس الجغرافية الفرنسية :

كان الفرنسيون يصرون على جعل خط الطول الاول في باريس والانكليز يصرون على جعله في لندن • ثم تم الاتفاق على اعتبار خط الطول الاول خط غرينتش وقد وقعت فرنسا الاتفاقية الدولية بهذا المعنى في ٩ اذار ١٩١٤ اي بعد سنوات بعد مرور العباسي في سوريا • وتقع باريس عند ٢٠ ٩ شرقي خط الطول الاول الدولي الاول المار في غرينتش •

(Larousse , Méridien لاروس ، مار يدين)

وقد استعمل العباسي باريس مبدأ خط الطول الاول •

(١٦) اوصاف اوربا : والاصح مراثي اوربا • فهو سفر من العهد القديم يبدأ كذلك :

" كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب •••• تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها • ليس لها معزّ من كل محبيها • كل اصحابها غدروا بها ••• طرق صهيون ناحة لعدم الاتين الى العيد • كل ابوابها خربة عذاراها مذللة وهي في مرارة•••

كيف غطى السيد ابنة صهيون بالظلام•••
غلت من الدموع عيناي غلت احشائي ••••
(الكتاب المقدس : مراثي اوربا) •

•••/•••

(١٧) (facta est quasi vidua , domina gentium)

كارملة اضحت سيدة الامم •

(١٨) السكـــان : راجع اللائحة البيانية المتعلقة بالسكان في آخر الحواشي • وبن الشيد ايضا مراجع اللوائح والدراسات والمقابلة في فيس (سوريا ص : ٣٠ـ ٣٣) فقد اعتمد غيس المكلفين اساسا ضرب رقوم بثلاثة اواربعة وفقا لاعتبارات خاصة

(١٩) ذكر العباسي ان القرش الاسباني يساوي في القيمة اربعة غروش تركية ونصف ٤ او ١٨٠ بارة • فاذا قابلنا هذا مع ملاحظات العباسي في الصفحتين ٧٣و٧٤ من المتن حيث يقول ان غرش الاستانه او القرش الذهب يساوي ٤٥ بارة تكون قيمة القرش الاسباني اربعة غروش ذهبا • ايضا يمكن ان يعادل اليوم ١٦٠ غرشا ايطاليا • مع حفظ نسبة المكان والزمان •

(٢٠) الاقفال الخشبيـــة : كانت الاقفال والمفاتيح القديمة من الخشب • فالقفل عبارة عن مربع مستقيم الزوايا مفرغ ومشور داخل فيه بين وبين مصاريع • والمشور الكبير يسمر في وسط الباب الى جهة الجدار حيث يفتح ويغلق الباب مقابل الجهة التي يثبت فيها بالجدار • وفي الجدار فجوة في الحجر على مساواة المشور الصغير المتحرك الذي يدخل فيها وفي الجهة العليا من المشور

.../...

الفرخ اربعة مسامير تسقط من تلقاء نفسها عندما ما يزال من محتها المؤشر الذى من ورجي • • وسقوطها يستحيل رجوع المؤشر الاخير الى مكانه فيقفل الباب • ولا يفتح الا بالمفتاح الخشبي الخاص بكل قفل • وهذا المفتاح عبارة عن مؤشر آخر طويل ، يبلغ طوله عادة من ١٧ الى ٢٢ سنتيمترا • في طرفه اربعة مسامير مثبتة توفق المسامير التي سقطت من تلقاء نفسها • اما مسامير القفل ومسامير المفتاح فانها مغلفة بشكل يستحيل معه ان يحل مفتاح محل الاخر اذا تخالف تنظيمها او ابعادها ولو مليمترا واحدا • وهكذا فلن تجد مفتاحين يناسبان لقفل واحد ان لم يضبطا سابقا ضبطا دقيقا • (مشاهدات خاصة) •

(٢١) حاكم القدس : قبل سنة ١٨٤٤ م• كانت ولاية القدس خاضعة لمتسلم عينه الاستانة او المتسلم يعينه والي دمشق (غير : حالة سوريا ، السياسية والتجارية ص٢٩٦) •

(٢٢) قنصلية السلطنة العثمانية : يعطي قولني صورة تامة عن قنصلية السلطنة العثمانية • فهم يعينون من الاستانة ويلزم وظائفهم ثلثها لمدة وجيزة • فيلجأون الى استعادة ما دفعوه مالها ولا يمنعهم عن ذلك رادع او وازع • وبيت القاضي هو المحكمة فاذا قامت الضجة فيه تسكتها عصا الكاتب • (قولني : الرحلة (باريس ١٨٠٧) المجلد الثاني ص: ٢٥٦) •

(٢٣) ابـــواب القدس : كما ذكرها المقدسي سنة٩٨٥م (مقدسي ١٦٧)

"١"و"٢" بابمحراب داود وبابالبلاط

"٣" باب العامود

"٤" باب جب ارما

"٥" باب اريحا

"٦"و"٧" باب سلوان (سلوام) وباب صهيون .

"٨" باب النبيه .

في عهد الافرنج سنة١١٢٥ م. ( )

"١" باب داود

"٢" بابباسطفان

"٣" باب العامود

"٤" باب المجدلية

"٥" باب بيوشافاط

"٦" بابالدباغه

"٧" باب صهيون .

من ايام مجير الدين ١٤٩٦ حتى ١٨٩٠ (لاسترانج ٢١٧)

"١" باب الخليل (بابالمحراب) في ايام مجير الدين

"٢" باب الرحمه (مقفل) (ربما كان بابالبلاط عند المقدسي)

.../...

"٣" باب دير السوب (مقفل "
"٤" باب العامود (او باب دمشق) وهو بابجامود الغراب •
"٥" باب الداودية (مقفل)
"٦" بابالزاهرية
"٧" باب حارة الطوبية (مقفل)
"٨" بابالاسباط
"٩" باب حارة المغاربه (او بابالدمه عند الافرنج)
"١٠" باب حارة اليهود (باب صهيون في ايام مجير الدين)
"١١" بابالسرّ قرب دير الاربن (مقفل)
"١٢" بابالقلعه قرب مقام ابن الشيخ (مقفل) •

(ملخص من له ستراتج ٢١٢ـ ٢١٧) •

•••/•••

الفصل الثامن عشر

(١) القسطلي :(Kastali) والاصح القسطل وهي قرية فيها قلعة صليبية •

في اسفل الجبل الى الغرب من دير للراهبات اسمه اليوم اقبالا وهو تحريف اكوابالا (Aqua bella) راجع :
Guide de la Terre Sainte : Barnabé Meistermann)
(الناشر ديتريش برايكر)

(٢) سويـــس : ذكرها ياقوت : وهي قرية في القضاء المجاور للقدس على منتصف الطريق بين الرمله والقدس وبعد اربع ساعات عن اى منهما •
(ياقوت "٥" ٢١) •

(٣) ابو غوش : (انظر اعلاه "٢٥" في الفصل الخامس عشر) •

(٤) "بيار ايوب " : ليس في الكتاب المقدس في هذا المكان بئر او مجموعة آبار معروفة باسم ايوب • وهناك بئر قرب بركة سلوام ذكره العباسي وبحث عنه (انظر الحاشية "٢" الفصل "١٧") •
وآبار ايوب هذه اما مستحدثة باسم ايوب آخر او حفرت قديما باسم الرجل الصالح المعروف في العهد القديم •

وهناك بلدة اسمها دير ابو يحمد الكيلومترا٢٥ من القدس فيه بئر اسمها بير ايوب (افادة دبحاري براهكي كبير اشرين فلسطين).

(٥) اللطـــــرون : ذكرها ياقوت بانها قرية في قطاع فلسطين قرب الرملة • وذكرها ايضا ناصري خسرو •

(ياقوت"١" ٣١٠ والمراصد "١" ٧٥) •
(ناصري خسرو ٢٢) •
ويعتقد له ستراتج انها بدون شك " قصر بوني لا تروبيس "
(Castrum boni latronis)

وعلى مقربة منها اليوم دير اللاتين اسمه دير اللطرون ، وتقوم قربه اللطرون (الاطرون) هناك

(٦) قبـــاب : وقد كتبها المترجم الانكليزي كوهاب • وهي القرية المعروفة باسم قباب • كانت مقرا لابي غوش ولدى اسرة ابي غوش فيها فرمان من السلطان بحراسة الطريق المؤدية من يافا الى القدس على ان يقتاض من المسافرين جزية ذكرها العباسي في هذا الفصل • وكان يقضي لاهل الصحة على دائرة قطرها ثلاثون كيلومترا (افادة دبحاري براهكي كبير اشرين حكومة فلسطين) •

.../...

(٧) الطفيلة Tafilet : هي في شرق الاردن قرية وضيعه على بعد ٤٠ كلم جنوبي الكرك لعلها ذكرت هنا بمناسبة وجود احد اشرافها في الرحلة عند مرور العباسي او ربما قصد العباسي طفيلة مراكش .

(٨) القسار : خربة بيت فار جنوبي تياب (

(٩) ربما غزون Nazoun : قرية صغيرة بين الرحلة وياقا .(

(١٠) ياقا — محفاها الجملة : مدينة فينيقية وظلت كذلك حتى احتلها المكابيون ثم استردها اليونان واحتلها الرومان بعد ذلك بقليل . فيها ذكريات للعهدين القديم والجديد دعاها سنحاريب يا اب بو(قاموس الكتاب لبوست) . ذكرها اليعقوبي (١١٧) بانها مدينة في فلسطين على شاطئ البحر . يختلف اليها عادة اهل الرحلة .

وذكر المقدسي (١٧٤) بانها مرفأ الرملة . يحميها سور متين ابوابه من الحديد .

وذكر الادريسي بانها مدينة على شاطئ فلسطين وهي مرفأ القدس (الادريسي ١١) .

.../...

ذكر ياقوت ان صلاح الدين استعادها سنة١١٨٧ واستردها الافرنج عند سنة١١٩١م. ثم احتلها الملك العادل اخو صلاح الدين واخربها (ياقوت "٤" ١٠٠٣) .

ويذكر فيس (٣٠٧) ان يافا قبل سنة١٨٥٠ كانت تصدر بقيمة ٨٠٠ ٤'١٢٩'٨٠٠ فرنك موزعة حسب النسبة التالية فرنسا ٢٩٪ اليونان ٢٣٪ انكلترة ٢١٪ تركيا ١١٪ و٦٪ مختلف .

ويشير هوغ في كتابه المذكور ("٢" ص١٩) . الى اسوار يافا وابراجها وشوارعها الضيقة وحدائقها .

عندما احتل كلابار مدينة يافا في ٧ اذار سنة١٧٩٩ اعلن ان ذلك الاحتلال كان قضاء وقدرا لان جامع الارنؤوط فيها هجمت على خنادق الافرنسيين فكان خطبها الهلاك بالجملة . (الجبرتي "٣" ٥١) .

(١١) عكـــا : وهي عكو القديمة . لم يحتلها الصليبيون عند توسعهم في ارض فلسطين . بعد الاسكندر كانت من نصيب البطالسة وقد دعيت في ايامهم بطولمايس . اعادلها العرب اسمها القديم بعد احتلالها في عهد الفتوحات العربية . انتزعها الصليبيون من يد العرب بمساعدة الاسطولين الجنوي والبيزي . تداولها صلاح الدين والصليبيون حتى تدوم فيليس ملك فرنسا وريكاردوس ملك انكلترة انسحب اليها فرسان القديس يوحنا وبنوا فيها كنيسة باسم القديس المذكور وعرفت هكا بعد ذلك باسم سان جان داكر . كانت بعد سقوط اورشليم في ايدي العرب عاصمة المملكة اللاتينية . وبسقوطها زالت المملكة اللاتينية في سوريا من الوجود .

.../...

غرقت في الاهمال حتى اعاد اليها فخر الدين شيئا من الاهمية ثم جعلها الجزار مركزا له • وكانت مرة في طريق نابليون • احتلها ابرهيم باشا بعد حصار مزدوج من البحر والبر • وكما المقدسي عنها (١٦٢ــ ١٦٣) انها مدينة حصينة على شاطئ البحر • حصنها ابن طولون فشتى مثال صور ليستحيل فتحها بعد عودته من تلك المدينة وتفصيل ذلك ان الامير اراد هدم الاسوار حتى البحر على نمط تحصينات صور • وكان جد المقدسي ابو بكر وحيدا في فن بناء تحصينات من هذا النوع فاستدعاه الامير فقطع ابو بكر اجذاع الجميز وربطها الى بعضها البعض ووضعها في الماء على مسافة من الشاطئ وأخذ يبني عليها وكان يقوي المدامك باعمدة تربطها في كافتها فاخذت الاجذاع تنخفض في الماء كلما زاد الثقل عليها • حتى استوت على الرمل • ثم تركها سنة لتزيد متانتها •

وتكلم علي الهروي عن جامع علي بن ابي طالب الذي لم يتمكن الصليبيون من تحويله الى كنيسة لان شيخ الامام قتل الحارس الليلي • ويذكر وجود ضريح صالح فيها • ويؤكد وجود ضريح " عكا " مؤسس المدينة فيها (الورقة ٣٢) (عن لسترنج ٢٢١)

اما ابن جبير فقد تحدث عن الديوان (دار الجمارك) وان المكان عامر بالخفارين والصلبان • ويعجب من اجتماع المسلمين والكفار للصلاة قرب الجامع •••• (ابن جبير ٣٠٦ــ ٣٠٧) •

وعندما زارها هوغ تحدث عن حالتها المؤلمة بعد ان فتحها ابرهيم باشا (هوغ "٢" ١٩٠) •

•••/•••

ذكر فيس (٢٥٩) عن ضرب القسوين لها سنة ١٨٤٠ فما زاد في تدميرها • ثم تحدث عن حركة المدينة التجارية • فذكر انه انتج في جوارها في احدى السنين نحو ٨٠٠٠ بالة قطن صدرت منها الى فرنسا ٥٧٠٠ بالة •

(١٢) الحصار الاخير : يقصد هنا حصار نابليون لعكا •

ذكرت التقارير العسكرية الصادرة عن القيادة الفرنسية ان الجيش الفرنسي سيحتل عكا بظرف اربع وعشرين ساعة • الا انه عند بدء المعركة لم يكن لدى القيادة سوى المدافع الخفيفة مدافع الميدان اما مدافع الحصار فقد اسرها البريطانيون فاستعملوها علاوة على مدافع بحريتهم ضد الفرنسيين فمنعوهم من الوصول الى الحصون • وقد ظن القائد الفرنسي ان النصارى سيأتون لنجدته بقيادة الامير بشير فحياهم باسم فرنسي الشرق غير ان الامير فضل الانتظار • وقد تمركز الجيش الفرنسي قرب تل الفخار في المكان الذي تمركزت فيه الحملة الصليبية عند حصار عكا • غير ان الجوع ثم الطاعون والاسطول البريطاني وغير ذلك من الاسباب التي ذكرها نابليون واجملها الجبرتي البأت القائد الفرنسي على رفع الحصار والهرب الى فرنسا • (المشرق المجلد سنة ١٩٢٠ ص ٨٩٢ ؛ مخطوطة سيرة الجزار في المكتبة الشرقية بيروت ص ٦٩ و ٧٠ الجبرتي "٣" ٥٥ مذكرات حملة سوريا وهو لفيها احد ضباط الحملة الفرنسية في تلك الحملة مجهول الاسم طبعه باريس سنة ١٨٣٦ "٣" ٦٨ — ٦٩) •

(١٣) الجزار باشا : ذكر فولني ("١" ٤٥٢) ان الجزار بشنائي الاصل • وهو لم يتمكن من الوصول الى ما طمح اليه في الاستانه فجاء مصر وعرض خدماته على واليها آنذاك علي بك • وقد كسب لقب الجزار عند هذا الاخير لما

اهرقه من دمه • غير ان هذا الظافر شعر بنوع من وخز الضمير مرة فرفض ذبح احد اصدقائه وخوفا من غضب مولاه ترك مصر وشرع يجول في البلاد العربية الى ان حط عصا الترحال في دير القمر عند الامير يوسف • ولما انسحب الاسطول الروسي من مياه بيروت بعد ضربها بالقنابل شاء الامير يوسف اظهار نفسه على عمه الامير منصور فوافق الباب العالي على تعيين الجزار حاكما على بيروت بدلا من عمه الامير منصور والبها الذي كان على وفاق مع ظاهر العمر • فلما انتصب الامير للجزار في بيروت اخذ يحصنها وتمكن من الضيق على الامير يوسف • ولما حضر الاسطول الروسي ثانية الى المياه السورية رجا الامير يوسف من ظاهر العمر التوسط مع امير البحر الروسي بضرب بيروت لاخراج الجزار منها غير ان الظافر البشناقي كان قد اقام الحصون القوية فلم تفد الستة الاف قنبلة الملتاة على المدينة شيئا وكان لا بد من مهاجمتها برا فالتجأ الجزار الى ظاهر العمر فاجاره هذا غير ان البشناقي استولى على قافلة من الذخائر مرسله الى ظاهر العمر وهرب الى الشام وكان ذلك كافيا لحصوله على رضى الباب العالي • فكلف الولاية على صيدا ولهذا اصبح الجبل اللبناني تحت سلطته ولما ان سقط الظاهر حتى استولى على عكا واخذ في تقوية تحصيناتها وابتنى لنفسه اسطولا حربيا مؤلفا من فرقاطة وسفينتين وسفينة وجيش جيشا مؤلفا من تسعمئة من فرسان البوشناق والفين مشاة المغاربة واخذ يتوق فيما بعد الى الاستيلاء على ولاية الشام فحالفها سنة ١٧٨٠م ومنحها امارة الحج الا ان سوء اداره حرضت عليه الشكاوى والتذمر فاقيل منها غير انه عاد اليها ثلاث مرار • وقد تم على يده اذلال جبل لبنان • وشيعة الجنوب • اما علاقاته بالامير يوسف والامير بشير فشهيرة • كما ان وقوفه في وجه نابليون لا يزال تاريخ فرنسا يردد صداه •

وكان الشهابيون قد سهلوا للنصارى وعلى الاخص الملكيين منهم الاقتدار الى مدن الساحل فتعاطوا فيها التجارة والاعمال المالية فطردهم الجزار منها غير انه استعمل كثيرين منهم لادارة شؤونه المالية وكان نصيب القسم الاكبر منهم سمل العين او جدع الانف او ملاقاة الحتوف • ومنهم ابن ابرهيم الصباغ الذي كان والده وزير مالية ظاهر العمر • فحل محله ابن سكرو وابو قالوش وابن يوسف مارون وكان نصيبهم جزاء سنمار اما الياس اده فقد هرب الى الجبل ويوسف الفرداحي سافر الى اوروبا •

وقد هلك الجزار سنة ١٨٠٤ في ٢٣ نيسان بعد ان فشل عليه الوهابيون اواخر ايامه

(فولني : رحلته "١" ٤٤٥٢ مخطوطه سيرة الجزار ص ٩٠ حيدر ؛ مشبلب ٨١٢ . مشير : تاريخ الشوف : مخطوطه المكتبة الشرقية ص : ٦٧ ؛ فولني "١" ٤٥٤ ؛ حيدر ٨١٥ سيرة الجزار ص ٢٧ و ٣٣ فولني "٢" ٨٢ ؛ فيس : قصد اقامتي في بيروت "٢" ٢١٢ مخايل مشاقه حوادث الشام ص ٤ و ٦٢ ؛ سيرة الجزار مخطوطه المكتبة الشرقية بيروت ١ ـ ٤٣ • الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ٤١٦ ؛ مخايل مشاقه ٦٠ ؛ مشير ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ سيرة الجزار ٣٩ ـ ٤٠ و ٦ ـ ٦٢ تاريخ الجبرتي "٣" ١٦ و ٢٨ ـ ٢٩ و ٤٥ و ٤٧ ـ ١ و ٥٥ • المشرق سنة ١٩٢٠ ص ٨٩٢ مخايل مشاقه ٦ ـ ١٤ و ٤٣٧ كوسار Corancez تاريخ الوهابيون ؛ باريس ١٨١٠ ص ١٠٨) •

(١٤و١٥) سليمان باشا ووزيره الاول : لم يخلف سليمان باشا الجزار رأسا • فقد عين الباب العالي ابرهيم باشا واليا على عكا • غير ان اسماعيل باشا ثار على هذا التعيين وتمكن من الاستيلاء على عكا لفترة • غير ان العساكر التركية بمساعدة الامير بشير السورية تمكنت من تركيز ابرهيم باشا • وخلف سليمان باشا ابرهيم باشا في ولاية عكا • وكان سليمان باشا احد مماليك الجزار فثار عليه في حياته • اما وزير مالية سليمان باشا فقد كان اليهودي حاييم فارحي •

ذكر الفيكونت دي مارسلوس في كتابه ذكريات الشرقان الوزير اليهودي لسليمان باشا والي عكا هو حاييم فارحي •
(Souvenirs de l'Orient, de Marcellus 420-425)

وذكر ميخايل مشاقه ان سليمان باشا كان يحب " السلامة" ويقصد ان كان مسالما • غير انه بمسالمته لم يسلم رهبان الدير الاقدس من تعسفه في طلب المال منهم • وقد شعر لبنان بنوع من هدأة البال في ايامه مما مكن الامير بشير من تقوية نفوذه ولعب الدور الاول في السياسة السورية • ولم يفت الامير حيدر وميخايل مشاقه اصداحه • حتى ان الفصل الفرنسي نيس الذي عايشه كان يعرفه بالسالم • وقد حل محله عبدالله باشا سنة ١٨٢٠م• (حيدر ص٩٤ وميخايل مشاقه ٧٢و٧٤و٣٦و٢٥و٢٧) •

وقد ذكر سيتسن ("٢"٧٨) ان حاييم فارحي صيرفي الوالي يلازم اليهود في عكا فيجتمعون في بيته وقد لاقى الامرين من الجزار حتى جاء سليمان باشا وجعله مديرا لاملاكه •

(١٢) الخضـــــر : شخصية على الارجح وهمية يكرمها المسلمون والنصارى على السواء حتى ان اليهوديين والعلويين يكرمونها (اليهودية قديما وحديثا لاسماعيل چول ، نشرها زيتل ، بيروت ١٩٣٤) .

فيكرمه المسيحيون باسم جرجس او خويس او جون واللفظه يونانية معناها الحارث . وفي الكتاب المقدس ذكر للنبي ايليا حامل السيف المسطر الماء والمنتصر على البعل وقاتل انبياء البعل (راجع محاضرة

والاسطورة قديمة قد يجوز ردها الى قدموس قاتل التنين وزارع اسنانه .

وقد يجوز ردها الى الاسطورة اليونانية عن باريسيوس واندروميدا او الى شخصيات مسيحية عرفت باسم جون واستشهدت على ايام ديوكلسيان او غيره (راجع محاضرة زين زين عن اسطورة القديس جرجس والتنين) .

وهناك علاقات وثيقة بين مزارات الخضر والنبي يونس او يحي او يوحنا او مار الياس .

ويخيل الى الصليبيين ان خيال/القديس البطل ظهر لهم على اسوار انطاكيه واورشليم .

.../...

ثم حملت الاسطورة الى الغرب • فغيرت نصوصها فوق ما كانت عليه من اختلاط في الاذهان • وكثرت الامكنة التي استشهد فيها البطل القديس كما كثرت رؤوسه والروايات عنه وشفاعاته •

(١٧) مصادر البحث : جميع مصادر البحث من محاضرة الاستاذ زين راجع فهرس المصادر الغربية

كتاب السواعي الكبير المطبوعة الاورثوذكسية الطبعة الخامسة ص: ٣٤٨ وهي مترجمة عن اليونانية •

صالح بن يحي " تاريخ بيروت ص: ١٠ رقم ٢ المشرق المجلد السادس سنة١٩٠٣ ص: ٣٩٥ـ٣٩٥و٣٨٧

الثعالبي : قصص الانبياء ، مشرقها مطبعة مصطفى محمد في القاهرة سنة١٣٠ هـ ص: ٢٥٦ـ٢٦٠

(نقلا عن زين زين : محاضرة القديس جرجس •)

(١٨) بيت والدى العـــذراء :

ذكرها هلك الدير بناسبة
اعادة بنائـــه في Terra Sancta Periodical 1927 28 30
Guide Bleu Nazareth
Thomsen - Loca Sancta
(افادة دينس بامكي)

(١٩) ناصرة الجليل : ذكرها المسعودى ("١" ١٢٣) وعلي الهروى (الورقة ٣١) وذكرها ياقوت (ياقوت "٤" ٧٢٩) وذكرها الدمشقي (١٢ ٢)

وقد زارها سيتسن في ١٣ تشرين الاول سنة١٨٠٦ وقد ذكر ان رهبانها الافرنج اعانوا سليمان باشا عاليا عندما كان اسماعيل باشا محاصرا في عكا رافضا تسليمها الى سليمان باشا • وقد اقطع سليمان باشا رهبان الناصرة ارضا واسعة بدل النقود التي تناولها منهم •

(سيتسن "٢" ١٣٨ـ١٤٣) •

(٢٠) وادى عزربـــل : استريلون او اسدريلون مج اللاجون • سهل هارما جدون مج ابن عامـــر •

" سهل مثلث في فلسطين الوسطى ويسمه يوسيفوس السهل الكبير • يحد من البحر المتوسط الى الاردن ومن الكرمل وجبال السامرة الى جبال الجليل وطوله من الغرب الى الشرق نحو ٢٥ ميلا ومن الجنوب الى الشمال ١٢ ميلا وكان مساحة المواقع كثيرة • فيها انتصر جدعون وباراق على سيسرا رئيس

جيش بابين (قض ص ٤٥٥) وجامعه في جبل جلبوع هزم الفلسطينيون شاول ويوناثان (اصم ص ٣١) وهنا قتل فرعون تخوشيا (٢ مل ٢٣: ٢٩) وجرت فيه وقائع اخرى كثيرة (معركة الناصرة وحطين) • ومن مجدون في هذا السهل اشتق الاسم الرمزي لميدان الواقعة العظمى بين الامم وهو هرمجدون • (رو٥ ١٦ : ١٤ــ ١٦)• يتصل هذا السهل غربا بساحل عكا وقاعدة المثلث هي ضلعه الغربي ويخرج من هذه القاعدة ثلاثة فروع نحو الشرق يفصل بينها جبل جلبوع وجبل الدوحي • فالفرع المتوسط بين جبل الدحي وجبل جلبوع هو اخصب الثلاثة واشهرها • وهذا السهل مشهور بخصبه ومن هنا معناه : يزرعيل اى الله يزرع (قاموس الكتاب بوست) •

(٢١) معركة الناصرة : استخدم الجزار من دمشق عشرين الف مقاتل وكان القائد بونابرت قد قطن الى امكانية المفاجآت من هذا النوع • فارسل جينوبرد في الامام ويقسم الاخبار مع ٣٠٠ جندى وفي الظهر من نيسان التقى بالجيش الدمشقي فانسحب الى كركا واعلم كلابار الذى جاء بجيشه وحاول الاصطدام بالدمشقيين غير انهم انسحبوا الى الجهة الشمالية الشرقية من جبل الطابور الى سهل فسيح يصلح للخيالة فيه الكروالفر وظل كلابار متمركزا بين الجبال في مضيق الناصرة وصفورية على طريق عكا • واعلم بونابارت في عكا فامر هذا بالهجوم بانتظار النجدة • وبعد قليل وصل القائد الكبير واطلق هدفا معلنا دقة ثم تمت الغلبة للفرنسيين (سيرة الجزار المخطوطة : ٧) •

.../...

(٢٢و٢٣و٢٤و٢٥و٢٦) الرهبان واديتهم } ان العلاقات الدينية السورية الفرنسية كما
الاراضي المقدسة في نظر الغرب } رآها غيس بنيت على ثلاثة اسس : الاماكن
المقدسة المسيحية واديرة الاراضي المقدسة
وحماية النصارى في بعض الحالات من اهالي الديار المقدسة .

بما ان مقادس فلسطين هدفة التكبير السامي عند مختلف الطوائف المسيحية فان امر رعايتها اثار شتى الخلافات بالنظر لكون كل طائفة من هذه الطوائف تدعي العصمة لنفسها بالضلال . ولا مجال للتطرق الى الخلافات المذهبية فنحصر البحث في الوجهة التاريخية . ولا مجال للعودة ايضا الى تخويل هارون الرشيد الامبراطور شارلمان حق رعاية القبر الاقدس ولا الى ايام الصليبيين لان الرهبان غادروا هذه الاماكن بالصليبيين عند سقوط عكا ولم يتمكن الفرنسيسكان منهم من العودة الا سنة ١٣٣٣ م. ويدلك على اثر الاذن الذي استحصله الاب بوجاروك اريفي من المماليك (تاريخ الاراضي المقدسة للاب آغابيتو (غيس ٢) وقد استحصل سنة ١٣٤٢ م الملك روبرد انجو ملك الصقليتين والملكة سانشا قرينته على الاذن لهؤلاء الرهبان بالسكنى قرب القبر الاقدس واقامة الذبيحة وقد بنت الملكة على نفقتها لهم ديرا صغيرا على جبل صهيون ثم اضطرت الملكة حنه الصقلية لطلب حماية الرهبان واستحصلت لهم على اذن بالاقامة قرب مكان ولادة المسيح في بيت لحم . وتلا هذا الامر سلسلة من مداخلات ملوك المسيحية . حتى اقنع بعض المسلمين السلطان العثماني بان دير صهيون قائم على ضريح داود وان هذا الضريح ينبغي ان يكون في ايدي المسلمين فحول الدير مسجدا ولم تفد مداخلات فرنسيس الاول ملك فرنسا .

وقد جمع غيس في صفحة ١١٧ من كتابه المذكور مجموعة من تواريخ الخطوط الشريفة والفرمانات التي حصل عليها الرهبان بشتى المداخلات ووصف الامكنة التي تسمح لهم بها هذه الاوامر السلطانية فاذا هي (٢٦) .

وكانت الامكنة المقدسة جميعها في ايدي اللاتين دون الاروام غير ان الحبر الاعظم كما يدعي غيس ، حبّها باجتذاب قلوب المشتقين امر بان يسمح لكهنة هذه الطائفة باقامة الشعائر الدينية في الكهنة اللاتين . وعلى مرور الزمن كسب الاروام حق الملكية واخذوا يقيمون الحواجز ضمن الامكنة وكان اكثرية الشعب من طائفتهم . اما تطورات الادعاء فكان كما يلي : جاء القدس سنة ١٥٩٩م حاج اندلسي فلاحظ وجود الرهبان الاسبان (الرهبنة الفرنسيسكان قامت في اسبانيا) فنادى بالويل والثبور وعظائم الامور وتمكن من اقناع وزراء محمد الثالث بان لن يتيسر للمسلمين الغلبة النهائية على النصارى ما لم يزيلوا المقادس المسيحية من القدس . وهكذا كان فصدرت الاوامر العليا بذلك وطرد الرهبان الافرنج غير ان احتجاجات الدول المسيحية اعادت الحالة الى ما كانت عليه . وعاد الاروام ايضا الى ما كانوا عليه ولكن ليس بصفة مستأذنين هذه المرة بل بصفتهم مالكين على قدم المساواة والافرنج مدعين بوضع اليد تحل المنع . ووضع اليد من اقوى مظاهر الملكية في السلطنة العثمانية . غير ان الفرمان الصادر سنة ١٦٣٠ منعهم من ذلك وجاء الفرمان سنة ١٦٣ يامر بان على الارمن والاروام رد القديم على قدمه بغرض ما كانوا قد وضعوه او اقاموه في القبر الاقدس او في بقية الاماكن الا ان هاتين الطائفتين اقاما الدعوى في الاستانه سنة ١٦٣٤ وقد دخل دخولا فرعيا في هذه الدعوى جميع ممثلي النصرانية واخذت الصحج والبراهين تتوارد والوثائق وتمكن

الارمن من ابراز بعض الوثائق القديمة التي تبرهن ملكيتهم للامكنة المقدسة وكان الصدر الاعظم بذاته ينظر في هذه الدعوى وبعد جلسات عديدة حكم الصدر الاعظم لمصلحة الارمن • وقد كان شاردن صاحب كتاب " رحلة الى فارس في الاستانة وطلعنا على تفاصيل الدعوى فذكر الاسباب التالية لخسارة الافرنج دعواهم وقد كان سفير فرنسا السيد هاى متوليا الدفاع عن حقوق الافرنج : اولا ، ان السفير الفرنسي تمهّل في زيارة الصدر الاعظم كوبرولي محمد باشا وتقديم الهدايا له • وذلك لان السفير لم يشأ خسارة الهدايا مرة ثانية لان الصدر الاعظم السابق نال جميع الهدايا والترضيات فيراه ابدل بعد شهر ولما حضر السفير الفرنسي بهداياه متأخرا كان استقباله سيئا للغاية • وثانيا طالع الافرنج ان ابن الصدر الاعظم المذكور خلفاباه في الصدارة وخلفابن السفير الفرنسي المذكور اباه ايضا • وذلك ما زاد في توتير العلاقات • وكان خفيا على ابالة ما قامت به الحكومة الفرنسية من مساعدة اهل الحجر واهل البندقية في حربهم ضد الاتراك • فخسرت القضية وفقا لتصوير شاردن (شاردن ٤ الرحلات "١" ٢٢) •

غير ان العلاقات تحسنت في ايام لويس الرابع عشر وفضل سياسة كولبار الحكيمة استعاد الافرنج حقهم في الامكنة المقدسة بعد بحث شرع به سنة ١٦٨٦ وتم عقد الخط الشريف سنة ١٦٨٩ وكانت تجدد هذه الخطوط الشريفة كلما جاء سفير جديد او قام سلطان جديد من سنة ١٦٩٠ حتى سنة ١٧٥٥ وفي الفرمان الصادر سنة ١٧٥٦ نص على ان حق كناسة وتنظيف الامكنة المقدسة يعود للرهبان الافرنج وحدهم وان الوثائق التي يملكها الارمن مزورة لانهم حصلوا عليها بطرق غير مشروعة وان رجال الدين الارمن المقيمين الثلاثة صوفرونيوس وحنانيا والقلفاط يحيى مقاصصهم •

.../...

وقد استمر الرهبان اللاتين في ملكيتهم زمنا طويلا حتى الثورة الفرنسية اذ تراخى اهتمام الفرنسيين بالاماكن المقدسة غير ان ملك اسبانيا وملوك النمسا اظهروا اهتمامهم الساعي بهذه الاماكن الا انهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بحق الافرنج كاملا فاخذ الاروام يتسللون الى الاماكن المقدسة تحميهم طائفتهم العديدة بينما كان الرهبان الافرنج في حالة ضعف شديد ماليا وسياسيا بسبب الحروب النابوليونية حتى تسنى للاروام (ويقول ناشر كتاب العباسي " الارمن") احراق قبة القيامة وكان لهم بذلك فرصه سانحه لاعادة بنائها سنة ١٨٠٨ . وظلت العلاقات في حد وجزر حتى ايام فيس ذاته . (فيس بطشيص ص١٢٤ــ١٢٦)

يؤيد هوغ القول بان الارمن هم الذين احرقوا قبة القيامة سنة ١٨٠٨ (ص٢٢٧) .

اما البرهان القاطع في هذا الموضوع فيبدو في رسالة حافظ الاماكن المقدسة الى الاب الاقدس تاريخ ١٥ تشرين الاول ١٨٠٨ موضوعها حريق كنيسة القيامة ويشرح حافظ الاماكن او القاصد الرسولي بعبارات موثرة الى السر الاعظم تفاصيل الحريق الفتصل الذى لجأ اليه الارمن والاروام للتمكن من وضع اليد على الاماكن المقدسة مستندين الى ضعف الافرنج في ذلك العهد وانشغال دولهم في الحروب النابليونية . وموضوع الرسالة هو جواب بيار اللبني حافظ الاماكن المقدسة وهناك بعض الرسائل التي تشير الى مداخلات دولتي النمسا وفرنسا في الاستانه في سبيل صدور الفرمان باعادة البناء وتكليف الافرنج باعادة البناء (١٤٤ــ٢٥٧ غوليوتش)

.../...

وهناك رسالة خاصة وسرية الى الحبر الاعظم رأسا وقعها الرؤساء الافريق الروحيون في القدس يعلن الموقعون فيها عن مداخلات امبراطور المشئين (يعني قيصر روسيا) عند الباب العالي وبذل الاموال الطائلة للتمكن من اعادة البناء والحصول على حق الملكية • (٢٥٧ـ٢٥٨ غولمونتش) •

وفي رسالة كاهن السفارة الفرنسية في الاستانه الى قداسة البابا امران يستحقان الذكر ان ما قام به الارمن والارثوذكس من تدمير في كنيسة القبر الاقدس "مما يفتت الاكباد ويسيل الدموع" ثم ان الرهبان الافريق في حالة بؤس لها وان الولاة الاتراك تمكنوا من اغتصاب نصف مليون قرش منهم علاوة على الضريبة المفروضة عليهم (٢٦١ـ٢٦٢ غولمونتش) •

وان مجرد مطالعة هذه الصفحات واللصفحات اللاحقة التي يجمع فيها العرض لوثائق مراسلات الرهبان في ذلك الوقت وفار الحمية المتقدة فيها وعمق الالم الذي يحز قلب هؤلاء الرهبان الافريق وما قام به الارمن والارثوذكس من حرق الكنيسة ثم الاستيلاء على بعض الاماكنة وقلع بعض الاثار التي تدل بصراحة على ملكية الافريق • بل ان من يقرأ كل ذلك ثم يعرف ان الراهب منهم لا يستهدف في حياته سوى الاوجاعها او عظمة حتى ولا راحة بال او هدأة فكر (راجع ما ذكره العباسي في هذا الفصل عن مضايقة الدراويش المسلمين المجاورين لكنيسة القيامة) اجل من يقرأ هذه الرسائل يشعر اولا بالجو الذي سيطر على العباسي وجعله يصيح بما صيح به في نهاية هذا الفصل حتى لكأنه وهو المسلم الجديد المعجب باسلافه يتملك من الهتاف بعدما خلا الى الرهبان وتفهم مشاكلهم من الدعوة الى ما يكاد يكون صليبية جديدة مع ما حاول ان

بسبقه في الكلمة الاخيرة من دخان التغطية او الكاموفلاج (البقين ٤هـ٥٥) .
وان فهمنا لشعور العباسي لاقيمة له بحدّ ذاته لو لم يكن مدخلا للتغلغل
في العقلية الاوروبية في ذلك او بالاحرى للحماس الذى اوقده رهبان القلب
الاقدس في صدر الحبر الاعظم برسائلهم الشهيرة الشهير . ضد الارمن والاروام
بالدرجة الاولى حتى انني اكاد اعتقد ان حرب القرم ومقدماتها تشهم على هذا
الصعيد بطريقة اوضح فيتسنى فهم الدوافع والاحاسيس التي تحركت في صدر
نابليون الثالث بعد حوادث القبر الاقدس .

Bibliotheca bio-bibliographica della Terra Sancta
Nuova Serie II Documenti della Oriente
Francescano.
Diretta dal P. Girolamo Golubovich O. F. M.
Quaracchi presso Firenza
di S. Bonaventura 1922

تكملة لهذا البحث لا بد من التنويه بان سيمون الذى زار
بيت لحم في اواخر نيسان سنة١٨٠٦ ذكر ان المذبح كان في حوزة اللاتين .
(سيمون "٢" ٤٠) اما العباسي الذى زار بيت لحم في تموز سنة١٨٠٧
فقد ذكر ان المذبح كان في حوزة الاروام (المتن ص٣) وهو ما يوضح قلقلة
الملكية في هذه الامكنة .

(٢٧) فرسان القبر الاقدس : (اوسمة/القاب القبر الاقدس) .

رتبة قد يعود تاريخها الى غودفري دي بولون او الى بودون الفاطمي . وهناك من يقول ان تاريخها قد يرجع الى القديس يعقوب اول اساقفة القدس وقد اسس البابا اسكندر السادس في اواخر القرن الخامس عشر الاوسمة العسكرية المعروفة برتبة القبر الاقدس وذلك بقصد تكريم الشخصيات الاوروبية الفذة او الشريفة منها الذين يقصدون فلسطين للحج . وقد اعطى البابا بيوس السادس الى حافظ القبر الاقدس رئيس رهبان فلسطين المتواجد في سنة ١٥٦م. حق تكريس فرسان للقبر الاقدس . ويعطي هذا الوسام اليوم البطرك اللاتيني في القدس لاغيه . وهو الذي اقامه الكرسي الرسولي سنة ١٨٦٨م. مديرا لهذه الرتبة وحافظ لها . وقد اعترفت الحكومة الفرنسية بهذا الوسام سنة ١٩٢٨ وهو يعطي على درجات فارس وكومندور وضابط اكبر والصليب الاكبر .

وكان هذا الوسام يعطى وفقا للمراسيم القديمة المعروفة لتكريس الفرسان في القرون الوسطى .

(Larousse du XX'S. Art. 'Sépulchre')

.../...

الفصل التاسع عشر

(١) قانا الجليل او كفركنه : مشهورة بمعجزة المسيح الاولى في تحويل الماء الى خمر (يو ٢ : ١-١١). وقد ذكرها من مر لقي العرب [illegible] " ياقوت ("٤" ٢٩٠) .

(٢) جبل الطور او الطابور : التجلي .

ذكر ياقوت انه المكان الذي تجلى فيه عيسى امام حواريه (ياقوت "٢" ١٤٩) وذكر الدير ياقوت ("٢" ٦٧٥) وافاد ان الطور يقوم بين غور الاردن وبين اللاجون او بين بوصيل . وقال ان هذا الطور جبل عال ذو قاعدة عريضة وقمة مستديرة يرتفع بين باقي السراوي . وفي هذا المكان اليوم كنيستان احداهما للارثوذكس والثانية للاتين .

(٣) طبريا : بناها هيرودس انتيباس سنة ١٦-٢٢ ب.م. وسماها على اسم الامبراطور طيباريوس . قال يوسيفوس الذي ذكر المدينة مرارا عديدة ان هيرودس بناها على موضع كثرت فيه القبور الباقية من مدينة قديمة منسية لذلك كانت بقعة في امين اليهود فاسكنها هيرودس غيرها واجانب وجدا وبنى فيها ميدانا وحمامات وهياكل وابنية اخرى جمة وجلب اليها الماء في قناة طولها ٩ اميال في

مدة حروب اليهود مع الرومانيين حصن يوسيفوس طبرية بعد خراب اورشليم استقر السنهدريم فيها وكانت مركزا شهيرا للتعليم اليهودى وهناك جمعت "المشنة" اى ناموس اليهود التقليدى "والطسورة" وهي كتاب تحريك كلمات التوراة مع شرح نحوى ومعنوى لها •

وفي زلزال سنة ١٨٣٧م• وخرب قسم كبير من المدينة وقتل سبعة من السكان (قاموس الكتاب : بوست "طبرية") •

طول بحر الجليل نحو اثني عشر ميلا ونصف وعرضه من اربعة اميال الى سبعة ونصف (قاموس الكتاب : بحر الجليل) • ذكرها المقدسي وتكلم عن المدينة والحرارة فيها وعن البحيرة وعن سمكها (المقدسي ١٦١) •

وفي صفحة اخرى يتحدث المقدسي عن آبار طبرية الكبريتية ويذكر الحمة ايضا في المنطقة المجاورة • (المقدسي ١٨٥) •

وقد زارها ناصرى خسرو سنة١٠٤٧م• وذكر ان احد حكامها مشهورة بين الغابات في البحيرة التي يشوون منها • ولكن بعد تنفيذ هذا الامر اصبحت مياه البحيرة نتنة ولم تعد صالحة للشرب فاضطر الى العودة عن تنفيذ امره ولما عاد الاهلون الى بيوتهم الاقذار فيها عادت المياه صالحة للشرب • (ناصرى خسرو ١٦)عن لسترنج ٢٧٦ .

.../...

ويذكر ياقوت علاوة ان في وسط البحرة صخرا منحوتا بديت فوق بعض الدعامات من الحجارة يمكن روئته من بعيد ويقول اهل الجوار انه ضريح داود (ياقوت "٣"٥٠٩) .

(٤) لوبيـــا : Thomsen; Loca-Saneta
Thabor, Sheet VI

يعطي المصادر التي ذكرتها في مختلف المناسبات .

لوبيا قرية في شمالي فلسطين الى يمين المسافر من الناصرة الى طبريا وفي منتصف الطريق تقريبا والى الشمال الغربي منها بنحو ثمن فرسخ خطية .

(٥) حطـــين : قرية بديت على الروابي حيث قبر شعيب . ويذكر معركة حطين سنة ٥٨٣هـ . او سنة ١١٨٧م . (علي الهروي (ورقة ٢٩ الستربن ٤٥٠) . ويذكر ياقوت ("٣"٢٩١) عن المعركة التي غلب فيها جيوش الافرنج على امرهم . فقتل فيها فرسانهم ارناط (رينو) سيد الكرك والشوبك فاحتل صلاح الدين بعدها الساحل .

ويذكر الدمشقي علاوة ان صلاح الدين بنى قبة النصر على قرون حطين (دمشقي ٢١٢) .

.../...

يذكر العباسيان

(٦) النهر العصي والقلعة : في هذه المنطقة جدول عصري كثير الروافد ربما كان النهر الاعوج وهناك قلعة اسمها المجدل وهي تبعد ساعة عالي طبريا اقامها الصليبيون بعد اشباع الاوجة الاف على بحر الجليل • (متى ١٥ــ ٣٩) اطلس التوراة ــ العصور ص: ١٥٢ــ١٥٣) •

(٧) الخان العصدع : ربما كان خان المنيه قرب تل حوم اوكفرناحوم القديمة (اطلس التوراة العصور ص: ١٥٢ ــ ١٥٣) •

(٨) خان جب يوسف : يذكر ياقوت ان جب يوسف الصديق هو في المكان الذي القى فيه باخوته بين باليس وطبريه على مسافة اثني عشر ميلا من طبريه (ياقوت "٢" ١٨) •

وقد زار ابن بطوطه جب يوسف ويصفه بانه عبارة عن بئرين يقعان في رحبة جامع صغير (ابن بطوطه "١" ١٣٣) •

(٩) قنطرة بعقوب : ذكرها الدمشقي بانها تحت قصر بعقوب (دمشقي ١٠٧) وهو المعروف بجسر بنات بعقوب (راجع دبسوطوغرافي ص : ٣١٤)

.../...

(١٠) فوضى السلطنة العثمانية : عدم التفاهم بين الولاة وهذا ما ذكره العباسي في هذا الفصل • وفوضى القضاء (فولاني "٢" ٢٥٦) • فوضى الافكتارية (مشاة ٣٢ـ٣٣) الثورة الوهابية التي تعرضوية قاضية على الباديشاه باعتباره خادم الحرمين والمحاولات الفاشلة لقيادة قافلة الحج (مخطوطه حياة الجزار ١٠٦ وشاه ١٦) •

(١١) الاردن : سماه العرب قديما بهذا الاسم • وعرف عند اليهود باسم " هاياردن " اي المنحدر • وقد اطلق اسمه في ايام العرب الى المقاطعة التي عرفت بجند الاردن وبعد الصليبيين اصطلح العرب على تسميته باسم نهر الشريعة • (لي لسترانج ٥٢) •

وذكره المقدسي (١٦١ و١٨٤) • وقد تحدث عنه ياقوت باسم الاردن الكبير (شمالي طبريه) والاردن الصغير (جنوبي بحرة طبريا (ياقوت "١" ٢٠٠) •

(١٢) القيطسرة : ذكرها العباسي خانا خربا • وكانت كذلك قبل سنة ١٨٧٨ الا ان الشركسة نقلوا اليها من القفقاس في السنة المذكورة فعمروها واصبحت نقطه تجارية هامة (دليل اثار شرقي الاردن : ديمتري براماكي) •

.../...

(١٣) سعسع : يذكر ديسوان سعسع تقع على الطريق العمودية من شمالي فلسطين الى دمشق وقد سلك الصليبيون ذلك الطريق ماريين بسعسع عندما توجهوا لحصار دمشق • (طوبوغرافي ٣١٤) •

(١٤) حقل اللفريين : (Phlegean fields) وهي حقول بركانية في ايطاليا • ذكرها العمودي لف لاصطلاح فكرة من القطاع ذات الحجارة البركانية التي سلكها واللفظة في الفرنسية (Phlégréens)

(١٥) خان الشيخ : والصواب خان الشيخ بالحاء المهملة وهو الخان المعروف بين سعسع وادريا ولا يوجد خان باسم خان الشيخ (نتيجة التدقيق مع اهل المنطقة) ويطلق عليه ديسو اسم خان النبع وهو شمال شرقي سعسع ويدعو بتركي خان الشيخ وبتحويل فكر يدعو خان الشيخ (طوبوغرافي ١٠٤ ج ٣٢)

(١٦) الجبل الهوي قرب الشام جبل قاسيون ذكره ابن بطوطه ("١" ١٨٣) • ذكر ابن جبير (٢٦٦ـ٢٩٧) ان ابرهيم ولد على جبل قاسيون •

(١٧) داريـــا : ذكر ابن جبير (٣٠٢) انها على بعد فرسخ ونصف جنوبي الشام • وذكر ياقوت ("٢" ٥٣٦) انها قرية تابعة للشام وقائمة في الغوطة

.../...

(١٨) السقف المخروطيه : ذكر احد العارفين من المتيمين بجوار المنطقه ان هذه البيوت زالت اليوم من تلك المنطقة وحلت محلها سقوف الاسمنت وهي تكثر اليوم على طريق حلب • اما الغاية من جعلها مخروطيه فهي خلافا لما ذكره العباسي من جهة الامطار بل لمنع الثلج من التكاثف على السطح فتخسف بعد ان يعمل بالثلج الذائب • وتسقط بسبب الثقل والرطوبه معا اما الشكل المخروطي فانه يمنع تراكم الثلج وبالتالي يعدم الضغط عليها •

(١٩) دمشـــق : هناك عدة روايات عن بناء هذه المدينة وهي من نوع الاساطير فهناك اسطورة يوسيفوس والمقدسي وياقوت والدمشقي •

ويعتقد سوفاجه ان اسم دمشق الذى ذكر في الالواح المصرية والاشورية هو بين الاسماء الارامية للقرى المجاورة الوحيد من اصل غير سامي (دمشق ٤٣٥) وقد تنقلت السلطة في هذه المدينة من يد الاراميين الى يد الاشوريين الى يد الكلدانيين الى يد الفرس الى يد اليونان ثم الرومان والبيزنطيين ثم العرب والاتراك وهي عاصمة الجمهورية السورية اليوم •

وفي ايام العرب فقد انتقلت من يد الامويين الى يد العباسيين الى الفاطميين واغتربها منهم سنة ١٠٧٦ الامير التركي طتش ثم تولى الحكم فيها الايوبيون ثم استولى عليها المماليك واحتلها السلطان سليم سنة ١٥١٦ وقد بحث سوفاجه هذه الادوار هنا كيفية تطور العمار والحياة الاقتصادية في مختلف العهود •

) Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas,
) Sauvaget, Paris 1935.

•••/•••

للاطلاع على الحالة التجارية والسياسية في دمشق في النصف الاول من القرن التاسع عشر يراجع فيس (١٩٦ــ٢١٨) ففيه التفاصيل الوافية عن منتجات دمشق وصادراتها وواردتها ونوع التجارة بينها وبين فرنسا وانكلترة والنمسا وتوسكانا وسويسرا . وقوافلها وعلاقاتها الداخلية .

اما هوز فانه يعطي وصفا مفصلا عن حالة المدينة عند وصول ابرهيم باشا المصري اليها والامكانيات التجارية بينها وبين انكلترة والحالة الاجتماعية وحالة الرهبان والاجانب (هوز "٢" ١ــ٨٠) .

ومن طريف ما يذكره فيس استحالة الاعتبار مع دمشق في دمشق بسبب كرهها للاجنبي فالافضل جر تجارها الى بيروت حيث كثيرا ما يأتون للاستيضاح (فيس ٢١٤)

(٢٠) الجامع الكبير : الجامع الاموي الكبير : وصفه وابوابه وابوته واصدقه (مقدسي ١٥٦ــ ١٦٠) .

وصفه ايضا ابن الفقيه وذكر قصة هدم الكنيسة وكيفان الوليد حار جوابا في رسالة ملك الروم حتى انتقده الفرزدق وذكر ما زاده الوليد والمنارات (ابن الفقيه ١٠٦ــ١٠٨) .

وذكر المسعودي في مروج الذهب ان الخليفة الوليد شرع في بناء الجامع الكبير في دمشق سنة ٨٧هـ و٧٠٦ م. وذكر قصة اللوحة التي وجدت فاستبدل الوليد غيرها بها (المسعودي (٣) ٢٧١) .

.../...

وذكر ابن حوقل نقلا عن الاصطخري ان لا جامع يضاهيه عند المسلمين ٠(الاصطخري ٩٠ـ ٦٠ ؛ ابن حوقل ١١٤ـ١١٦ ونقله ابو الفدا٠ جزئيا ٢٣٠) ٠

وذكر الادريسي ان في دمشق جامعا لا مثيل له في العالم ولا اجمل من شبهه ولا احسن منه (الادريسي ١٣) ٠

وقد زار ابن جبير دمشق فاسهب في الحديث عن جامعها وتقاسيمه (ابن جبير ٢٦٢ـ٢٩٧)

وتكلم ياقوت عن جامع دمشق بنوع من الاسهاب ايضا (ياقوت "٢" ٨٧٠ـ٥٩٧) ٠

وقد ذكر ابو المحاسن ان تيمور لنك امر باضرام النار وقد ابن خلدون ان النار شبت عند فتح المدينة بيعا بثت قاصري خسرو صاحب السفرنامه ان الحريق لم يكن متعمدا ٠٠٠ وقد كان في صفوف تيمور لنك آنذاك الرحالة البلخاري سكلاوفر فروى الحادث كما يلي : " ثم اقتحم (تيمور لنك المدينة واخذها عنوة وغلبة٠ على الامر الجبت (الشيخ) اى ما يمكن ان يقابل بالمطران وسقط على قدميه وطلب الرحمة له ولكهنته [المشائخ] فامر تيمور لنك بان يتوجه مع كهنته الى الهيكل فاخذ الكهنة معه٠ هم واولادهم وكثيرون غيرهم الى الهيكل ليأمنوا على انفسهم حتى بلغ مجموعهم ثلاثين الفا بين صغير وكبير ٠ ثم امر

٠٠٠/٠٠٠

تعبير لقتل باقتال الاسوجيين من في الداخل عند اقتحام الهيكل فصدعوا بالامر ثم وضعت النار حول الهيكل واشعلت النار فيه فاحترقوا جميعا داخل الهيكل (عن رحلة يوحنا اسكلتبارجر ورحلته بين ١٣٩٦ و١٤٢٧ ص٢٣ (The Bondage and Travels of Johann Schiltberger, 1396 to 1427 Hakluyt Society's Publications; p. 23.

(نقلا عن لسترانج ص: ٢٧٢-٢٧٣) •

(٢١) القلعة : يذكر العباسي سوء موقع القلعة مشيرا الى انها لا تصلح للدفاع بل لالقاء الرعب في قلوب المدنيين فقط • وقد ذكر الدكتور هوخ في رحلته الى القدس ودمشق وغيرها عن ثورة اهل دمشق ضد الوالي الذي سيج القلعة اتصل اتكاثرة باختيار مركز له في دمشق • فهاجم الشعب الوالي الذي التجأ الى القلعة فحاصره ان الشعب تمكن من اقتحام القلعة وقتل الوالي ورفع رأسه على الحراب (هوخ "٢" ٢٦-٢٧) •

يذكر سوانجه ان القلعة في ايام الاتراك خسرت صفتها الدفاعية اذ ان العمار اقتحم الضواحي خارج الاسوار فاصبحت مركز العدد ضئيل من الافراد الذين يقيمون فيها دون اعمالهم يلجون بها وتعد المحوّل دون الولاة فيها على السلطة المركزية فقد سحبت سلطة الوالي عنها وسلمت لقائد خاص يضع الاسطبل رأسا (دمشق ٦٦٦-٦٧١) وقد ذكر العباسي ان قائد القلعة يدعى الكاشكول آغا (راجع الرقم "٨" من الفصل الثاني) •

.../...

(٢٢) السيوف الدمشقية : ذكر هيد في كتابه (تاريخ التجارة الشرقية ٠(ا) ١٧١

عن امتياز الدمشقيين بصنع الاسلحة في ايام الصليبيين ٠

وذكر غيس في كتابه " الحياة التجارية والسياسية في سوريا
ص٢١٢ ما يلي " يظهر ان صناعة الاسلحة قد زالت نهائيا من دمشق وما يتعجب
لصنعها اليوم لم يعد ذا اهمية ٠ وقد ذكر احد الرحالة المستشرقين ان ذلك
يرجع الى نقل تعويدهم للصاغة وصانعيهم من دمشق الى فارس ٠ ومن هذه البلاد
اخذت ترد السيوف والاسلحة والسكاكين ٠ وفي الواقع فان اسلحة دمشق لم
تعد ذات قيمة البتة والاسلحة القديمة هي التي يطلبها المشترون باغلى الاثمان ٠ فقد
بيع نصل اعلى بخمسة الاف فرنك " ٠(غيس ٢١٢)

ويذكر سوتاجه ان التجار الافرنج في ايام المماليك كانوا يؤثرون دمشق
للتجارة ومن جملة ما كانوا يشترونه تلك الاسلحة الشامية المطعمة التي كانت تنقش
نقشا خاصا قبل السقايسة فيعطيها ذلك نوعا من البريق المتميز ٠ (دمشق ٤٦٤

(٢٣) دمشق خير مكان لتقويم اوالحيوان : ابد هذا القول الرحالة هوخ الذي زار
دمشق بعد العباسي بيوم اثنين ٠ والفصل
الفريد غيس ٤ فقد تحدث الاول مطولا عن المدينة واسواقها وثروة المواد فيها
في كتابه " رحلته الى الاسكندرية ودمشق والقدس طبعه لندن سنة١٨٣٥م٠ ج٢
عن ص : ا—٨٠ وهو يتفق مع ما اورده العباسي في هذا الفصل ٠ في ما خص
الاسواق وثروة موادها الخ٠ وذكر ما يمكن الاتجار به بين بلاده بريطانيا العظمى
وسوريا وعلى الاخص دمشق ٠

٠٠٠/٠٠٠

ويذكر فيما يلي بعض بضائع دمشق وتجارتها الهامة بفرنسا وبريطانيا ومن التوافل والاسعار التي اخذ بتفصيل تفاصيلها على المعلومات الدقيقة من التجارة وزمن المناسب توضيحها باختصار :

	صادرات دمشق	واردات
بغداد	٢ ٤٢ ١٠ ٤٠٠٠	٤ ٤٥٣٥ ٤٠٠٠
مكة	٣٧٥ ٤٠٠٠	٧٥٠ ٤٠٠٠
مصر	٧٢٥ ٤٠٠٠	٤٦٣ ٤١٢٥
بلاد فلسطين القدس	١٦٢ ٤٠٠٠	١٠٧ ٤٠٠٠
عكا صور صيدا	١١ ٤٢٥٠	١٦ ٤٢٥٠
بيروت	٥٣٦٤ ٤٠٠٠	٤ ٤٤٢٠٤٠٠٠
طرابلس	١٥٠ ٤٠٠٠	١٢٦ ٤٧٥٠
جبل لبنان	٧٥٠ ٤٠٠٠	٧٥٠ ٤٠٠٠
الاسكندرونة	٤٤٧ ٤٠٠٠	٩٧١ ٤٠٠٠
ازمير	١٣٥ ٤٠٠٠	١٤٠ ٤٠٠٠
حلب	٧٠٠ ٤٠٠٠	٧٢٢ ٤٠٠٠
حماه وحمص	١٨٧ ٤٠٠٠	٢٤٠ ٤٠٠٠
	١١ ٤٢ ١٨ ٤٢٥٠	١٣ ٤٢ ٤٢ ٤١٢٥

واهم منتجات المنشق الصناعية هي كما يلـي :

النـــوع	كميـة الانتـاج	الاستهـلاك	التصديـــر
الصابغ	قنطار ٧٥٠	قنطار ١٦٥	قنطـار ٥٨٥
ون	" ٣٩٠	" ١٠	" ٣٨٠
ل	" ٩٥٠	" ٦٥٠	" ٣٠٠
ن	" ٦٥	" ٥٥	" ١٠
	" ٦٦٥	" ٢٦٠	" ٤٠٥
ل قديم	" ١٠٠	" —	" ١٠٠
ة حريرية	" ٥٠٠٠ ٨٠٠ قطعة	٥٠٠٠ ٤٠ قطعة	٥٠٠٠ ٧٦٠
ة قطنية	" ٥٠٠٠ ١٤٠ "	١٠٠٥٠٠٠ "	٥٠٠٠ ٤٠
	" ١٦٠	" ٣٠	" ١٣٠
ل	" ٥	" —	" ٥
ك	" ٧	" ١	" ٦
ن زيتون	" ٥٥٠٠ ٤	" ٥٣٠٠ ٤	" ٢٠٠
وف	" ٨٠٠	" ٥٠٠	" ٣٠٠
ش نعام	" ٩ صناديق	— صناديق	٩٥ صناديق
ران	" ١٥	" ٨	" ٢
ابون	" ٢٣٠٠	" ١٥٣٠٠	" ١ ٥٠٠

(غيس ٢٠٠ـ ٢٠٦)

٠٠٠/٠٠٠

واهم منتجات دمشق الصناعية هي كما يلـــي :

النـــوع	كميـة الانتـاج		الاستهـلاك		التصديـــر	
واد الصباغ	٧٥٠	قنطار	١٦٥	قنطار	٥٨٥	قنطار
لباسون	٣٩٠	"	١٠	"	٣٨٠	"
الليف	١٥٠	"	٦٥٠	"	٣٠٠	"
الشمع	٦٥	"	٥٥	"	١٠	"
نطن	٦٦٥	"	٢٦٠	"	٤٠٥	"
مجلس قديم	١٠٠	"	—	"	١٠٠	"
قماش حريرية	٥٠٠٠	٨٠٠ قطعة	٥٠٠٠	٤٠ قطعة	٥٠٠٠	٧٦٠ قطعة
قماش قطنية	٥٠٠٠	١٤٠ "	١٠٠٤٠٠٠	"	٥٠٠٠	٤٠ "
فس	١٦٠	"	٣٠	"	١٣٠	"
طبن	٥	"	—	"	٥	"
سمك	٧	"	١	"	٦	"
زيت زيتون	٥٥٠٠	٤ "	٥٣٠٠	٤ "	٢٠٠	"
الصوف	٨٠٠	"	٥٠٠	"	٣٠٠	"
ريش نعام	٩	صناديق	—	صناديق	٩	صناديق
زعفران	١٥	"	٨	"	٢	"
صابون	٢٣٠٠	"	١٤٣٠٠	"	٥٠٠٠ ١	"

(غير ٢٠٠ـ ٢٠٦)

الفصل العشرون

(١) انهار دمشق :

ذكر ابن حوقل نقلا عن الاصطخري ان انهار دمشق هي الاتية :
نهر الفيجه الذى يتفرع منه نهر يزيد ثم نهر العزّه ونهر القناة والقنوات • وتمر هذه الانهر بضيق النيرب • ونهر برزى بعد هذا الضيق بقليل • ويمر برزى وسط دمشق حيث اقيم جسرعليه لان الخيال يعجز عن عبوره وقبل وصول المياه الى المدينة تتفرع الى مختلف البيوت والشوارع وحمامات المدينة •
(الاصطخرى ٥٩و٦٠ ابن حوقل ١١٤ــ١١٦ عن لسترنج ٢٣٥) •

ويذكر الادريسي ان مياه الفوطه تتحدر من عيون شاهقة تنزل مياهها بصخب مخيف ، وقبل وصول المياه الى المدينة يتفرع منها نهر يزيد ونهر ثورة ونهر برزى ونهر قناة العزه ونهر بانياس ونهر السقط ونهر بشكر ونهر داعيه
(الادريسي ١٢ــ١٥ (لسترنج ٢٣٨) •

وقد ذكر الدمشقي في القرن الرابع عشر ان الينابيع المتحدرة من روابي وادى برزى ومن عين الفيجه تتحد في جدول واحد يؤلف نهر برزى الذى يتشعب بعد ذلك الى سبع فروع اولها نهر يزيد الذى حفره الخليفه صاحب هذا الاسم يزيد بن معاويه وثانيها نهر طوره الذى حفره احد ملوك الروم المدعو بهذا الاسم وثالثها نهر بانياس ورابعها نهر القنوات وقد دعي بذلك بسبب الاقنية المتفرعه منه • ويتفرع هذان الاخيران الى فروع عديدة واقنية تحت الارض وخامسها نهر

.../...

المزة الذى دعي كذلك بسبب قرية المزة • وسادسها نهر داريا نسبة الى قرية داريا وسابعها فرع بردى الرئيسي وهناك نهر آخر يدعى النهر الاعوج (دمشق ١٩٣ـ١٩٨) (لسترنج ٢٦٥ـ٢٦٦) • وقد ورد في خطط دمشق لمحمد كرد علي ص٢٣ بحث مستفيض لاهمها دمشق مع المصادر العديدة (مجلة المجمع العلمي العربي ج "٢" مجلد ٢٧ سنة١٩٥٢ ص٢٣ •

ونشر صلاح الدين المنجد في المجلة والعدد ذاته ارجوزة عظمها ابن خدا وبردى حول سنة١١٧ هـ •

وقد ادرج هو لفالارجوزة قصيدته في كتاب سماه " البرق المتألق في محاسن جلق " •

وفي هذه الارجوزة ذكر للانهر السبعة وفروعها بطريقة غاية في التفصيل •

وهو يذكر العقرباني عظم فرعا من فروع الانهر السبعة وقد ذكره العباسي واحدا من الانهر السبعة وفي هذا وفي ما ورد من تفصيل الانهر لغيرهما من المؤ لفين العرب فان الكلمة فيها مختلفة على ما هو من هذه الجداول فروع وما هو اصول •

فالاصول السبعة عند الخداوردي : بردى وثورا ويزيد والقنوات وباناس والداراني وتلة المزة ومن الفروع العقرباني والدامية والمنيحي والزيدي والوسط وقسم الغربي وديمة والعاصية والحاجبي والبلاني والزابون ونهر الملك والشهداني ونهر تل الذهب ونهر بيت نايم وجدول حزوا وجدول غربه وجدول المعين والبلانيه •

•••/•••

ثم يذكر الجداول التي تنقسم من نهري المقيحي والداعيه والجداول التي تنقسم من الداراني والجدويلين المتفرعين من قنوات والجداول المتفرعه من تورو والمتفرعه من يزيد وهي عشرات .

ويذكر له سترابو ان بردى هو النهر المعروف قديما باسم ابانا (له سترابو ٥٧) . وقد وردت هذه التسمية في الكتاب المقدس (٢ مل٥ :١٢) " اليس ابانا وفرفر نهرا دمشق احسن من جميع مياه اسرائيل .

ويعتقد سوداجه ان لفظ باناس هو تعريف يوناني للفظ ابانا المعروف في الكتاب المقدس . اما تورا او تورا فهو لفظة ارامية معناها الثور (دمشق ٤٣٢ـ ٤٣٣) .

(٢) بحرة العقيبة او بحرة المزة : ذكر ياقوت هذه البحيرة باسم بحيرة المزة (ياقوت ١ " ١٦ ٥). وذكر ابو الفدا " ان هذه البحيرة تنحسر في الشتاء الى درجة تختفي الاهلين من الاقامة (ابو الفدا " ٤٠) .

(٣) سلطة بطريرك الروم على بقية الطوائف .

حتى سنة ١٨٣٠ لم يكن يعترف الباب العالي بغير بطريركتين في سوريا بطريركية الاورثوذكس وبطريركية الارمن . وقد كان يستلم بطريركا

البطريركيين المذكورتين فيهان تعيينهما من السلطان رأسا • اما الكاثوليك فلم يكن لهم رئيس ديني معترف به من السلطة العثمانية • وكان لا بدّ كما ذكر فيس (ص ١٤٢) من مظاهرة الحكومة الفرنسية للمطالبة بحق الكاثوليك حتى تسنى للكونت غيلمنو (Guillemenot) سفير فرنسا في الاستانه تحرير الكاثوليك من سلطة البطريركية الارثوذكسية سنة ١٨٣٠ •

(٤) تعصب اهل الشام : ذكر الدكتور هوغ ان محمد علي باشا اشار عليه بالتزيي بزي الشرق خوفا عليه وعلى رفيقته من تعصب اهل دمشق (هوغ "١" ١٢٥ـ١٢٨) واعلن ان المستر تود التاجر البريطاني كان اول اوربي لبس القبعة والثوب الافرنجي في دمشق بعد دخول ابرهيم باشا المصري اليها سنة ١٨٣٢ (هوغ "٢" ٢ ـ ٤٧ الحاشية)

وذكر المارشال ماربون (رحلته "٢" ٣٢١) ان سكان الشام كانوا ولا يزالون اشد اهل الشرق تعصبا اما كرههم للنصارى والافرنج فلا يعرف له حد (نقلا عن فيس ١٨ ٢) •

وقد ورد في فيس ذكر تعصب اهل دمشق في عدة مواضع (فيس ١٧ ٢ و١٨ ٢ و١٩ ٢) ومن جملة ما ذكره ان القبعة التي توجب الاحترام في السلطنة العثمانية تستقبل في دمشق الاحتقار والاهانة •(١٨ ٢) •

.../...

عن دمشق في العهد العثماني المتأخر

وقد ذكر سوفاجه كما يلي : " ان الاقامة في دمشق شاقة على الافرنج خاصة فهم مجبرون على تحمل قطيعة واليها وهو من اقوى رجال السلطنة كما انهم معرضون لعداء الاهلين الذين يبادرون الى رجمهم اذا ما اعطوا حصانا او اذا ما اعطوا الاعتبار بعمامة النصارى الزرقاء " .

وعندما عاد يوسف باشا والي الشام من الحج عراقه الشيبة والعذلة لاقاه من الوهابيين سنة ١٨٠٧ (سنة وجود العباسي في دمشق) اصبح شديد الوطأة على النصارى . وبما ان الوهابيين اتهموا المسلمين بالتراخي في الموجبات الدينية فكان من الطبيعي ان يوجب الشيخ قاضي باغلاق الاسواق ساعات الصلوات العامة . واوجب على النصارى واليهود ارتداء الاقمشة القاتمة . وكان عليهم ان يقفوا امام المسلمين موقف ذل وهوان غير رافعين الصوت . وحرم عليهم الخمر والكحول وحرم على نسائهم لبس الجواهر والصيغة . وثار احد النصارى لاحتداله خفا اصفر ولم ينج الكثيرون منهم الا باعتناق الاسلام حوادث الشام ، مشاق ، نشرة الاب لويس معلوف اليسوعي سنة ١٩١٢ بيروت ص١٦ و ٢٠ـ٢٤)

اما وقوف الدمشقيين في وجه التغلغل الاجنبي ، الذي يسميه الاجانب تعصبا ، فهو امر طبيعي وقد صدوا المسلمين وكانوا نقطة ارتكاز صلاح الدين ثم ان مدينتهم داخلية بعيدة عن العلاقات الاجنبية كحلب وبيروت . ثم ان التعصب على الارجح مصدره الولاة الاتراك . لان الشاميين كانوا حربا على كل سلطة اجنبية حتى على الاتراك ذاتهم وقد لاقى هؤلاء منهم الامرين عند اصطدامهم على اثر انتهاء الحرب العظمى الاولى .

(٥) قوافـــل دمشق : يذكر هيد في كتابه تاريخ تجارة الشرق ان دمشق نقطه الدائرة في التجارة الشرقية فتأتيها القوافل من بغداد ومن مكه ومن مصر • اما الطرق التجارية القديمة فعديدة • اهمها الطريق التي تأتي من فارس الى بغداد الى الرقة الى حلب وحماه وحمص ودمشق • والطريق البحرية من شواطئ • الصين والهند جزيرة سيلان الى جنوبي البلاد العربية • ثم تتوجه هذه الطريق برأ الى مكة فالشام • ثم طريق الشام مصر ثم الطرق الفرعية الى الشواطئ • اللبنانية والسورية • (تاريخ التجارة الشرقية ، هيد ، باريس ١٩٣٥ ، ١ ، ١٦٨ - ١٧٧)

يذكر غيس (٢١٦) العدد التالية لقوافل الشام • قافلة بغداد (٣٠ الى ٤٥ يوما) مكة (٥٠ الى ٥٥) القاهرة (٢٠ـ٢٥) يافا او القدس (١٠ الى ١٢) عكا وصور (٥) صيدا او بيروت(٤) طرابلس (٥ـ٦) الاسكندرونه (٤٠ـ٤٥) ازمير (٣٥ـ٤٠) حلب (١٠ـ١٢) وحمص وحماه (٥ـ٧) بعلبك (٢) تدمر و(٥) ومن اهم القوافل قافلة مكة اذ ان دمشق هي نقطة تجمع وانطلاق بهذا الغرض وورد سوقاجه ان الوصول الى القدس الاسلامية صلة قافلة الصوف مقرونه بالمخاطر • وبالنظر لكون دمشق اخر مدينة عامرة منتظمة على اطراف الصحراء فان وفود الحجاج تتجمع فيها وتتجه نحو مكة بقيادة والي الشام امير الحج • وتعود قافلة الحج الى دمشق وهذا ما يوجد فيها موسمين كل سنة للاستيفاء اما امير الحج فانه يخرج من المدينة بموكب رسمي ورفقته الحمل شعار سيادة السلطان على الاماكن المقدسة (دمشق ٤٦٨ـ٤٦٩) •

.../...

(٦) اربان الخيل : ذكر كارلوجلدو غوارما في كتابه " الخمسة " ان اربان الخيل هي خمسة وهي الكحيلان وصبّان والسقلاوي والحمداني والهدبان • (الخمسة غوارماني، ١٨٦٤، عن مقدمة شمالي نجد، المقدمة ص ١٢

اما غوارماني هذا فقد كان عميلا لبعض الملوك الاوروبيين يشتري لهم الخيل

شمالي نجد، غوارماني، نشر كاروثرز (لندن ١٩٢٨) عن المقدمة ص ١٢ .

وقد جاء في دائرة المعارف البستاني في المجلد السابع (١٦ تشرين الاول ١٨٨٣) = تحت مادة خيل معلومات وافرة عن الشامية منها وهي : " اما الخيل الشامية اي خيل سورية المشهورة فخمسة اصناف وتسمى عجادي صقلاوية ام عرقوب والشويما وكحيلة العجوز وصبة • ... ويقال ان جميع خيل سورية الكريمة من نسل هذه الافراس ولها فروع • فروع صقلاوية الجدران صقلاوية او بيبية وصقلاوية عجمة الصبح وصقلاوية امريعيّة وصقلاوية تبعية وفرع ام عرقوب اشيكي وفرع الشويما شويمة السبّاق وشويمة الكبيشا وفروع كحيلة العجوز كحيلة راس الغداوي وكحيلة الناصري وكحيلة الجعوبي وكحيلة المعارف وكحيلة المعدل وكحيلة العصّي وكحيلة الشهير وكحيلة النعام وكحيلة الجوهرة وكحيلة الشريف وكحيلة الاخوس وكحيلة مفلدي وكحيلة حمدان الناصري وكحيلة الطوسية وكحيلة ودنا الخريس وكحيلة معنقية وكحيلة حدرجية وكحيلة الجربا وكحيلة ام ناصر •

.../...

وفروع عبة الشراك وعبة ام جريص وعبة الخضر وعبة هدبا البشير في سورية صنف اخر من الخيل الكريمة يسمى هدلبه وهو خمسة اقسام ايضا جلفي ومحنقية وهدجانية وحمدشية وغربه ولها فروع ففروع الجلفي سعد الطوقان وجلفة الغصوني وجلفة العظيمي وجلفة العجمي وفرع الوحشية محنقية السبعي " (دائرة المعارف) وقد امكن التعرف الى الاسماء التي ذكرها العباسي محرفة لجهله اللغة • اما الطريقي الذي ذكره العباسي فلم نجد له اثرا بين الاصول ولا بين الفروع عند البستاني والارجح ان العباسي اضافه اخذا عن خيل الطراد مثلا وان مالاحظنا ان تقسيم الخيل وان اختلف بالنسبة للمكان او للزمان او للاشخاص فان العدد الاساسي هو الخمسة (راجع في دائرة المعارف الاسلامية مادة "Khamsa" واهمية هذا الرقم عند العرب)

(٧) الوهابيـــون : الوهابية حركة قام بها عبد الوهاب (محمد المولود ١٧٠٣) الاحياء السنة • وهي في وجهها الديني تنتسب الى المذهب الحنبلي • غايتها اعادة الاسلام الى نقاء العهود الاولى في ايام النبي والصحابة • تقضي بالعدول عن مذهب التطور في الاسلام • وهي بالاختصار ردة الى القديم شديدة العنف ثائرة حتى على مبدأ الاجماع في ما يتعلق بمقامات الاولياء مثلا وشفاعتهم • وقد جاء في مخطوطه عن حياة الجزار في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت • ان زعيم الحركة الوهابية كتب الى والي الشام وقد كان الجزار آنذاك والي عكا والشام • (راجع اللمحة عن الجزار في الحاشية "١٣" من الفصل

.../...

(١٨) ان الوهابية تشجب شفاعة الاولياء وتحقر تكريمهم وزيارة القبور والمقامات لهم ضربا من الوثنية . كما انهم يشجبون طرق الفقراء والدراويش ويمنعون الحلفان بغير الله والنوح والنادبة والنميمة والغيبة واغتصاب اموال الشعب وهدايا العلماء ...
(حياة الجزار مخطوطة المكتبة الشرقية ببيروت ص: ١٢٥) .

اما من الجهة السياسية فقد استولى الوهابيون على الطائف سنة ١٨٠٣ وقد سلم العباسي من بطشهم بالمجوبة . وتحدث العباسي مطولا عن الوهابيين حديثا اثبت معظمه التاريخ حتى يكاد يكون ما اورده لامس منقولا حرفيا عن العباسي لولا بعض الخلافات الجزئية التي يغض عنها العباسي بحكم وثوقه منها من خلال ولادة محمد بن عبد الوهاب التي يضعها سنة ١٧٢٠ على التقدير . الا ان ضعف هذا التقدير يتضح عندما يعلن عن دعوة ابن عبد الوهاب سنة ١٧٤٧ اي عندما كان محمد في السابعة والعشرين من عمره وهذا ما يصعب الركون اليه وفقا لما نعرف من اخلاق البدو .

ويعتقد العباسي ان الوهابية ما لم تكن مرنة (اى ما لم يطل كونها وهابية) لن يقدر لها الحياة ولن يتيسر لها الخروج من العزلة . ويرى بالنتيجة ان الضعف البشري سيستعيد الى الاذهان حتما بعض التقاليد والخرافات بحكم الطبع الانساني وبهذا تتلاشى الوهابية بعد ان تكون قد هدرت دماء الملايين من البشر.

.../...

(٨) ولايـــة الشام وامارة الحج : ولاية عكا وامارة الحج المنافسة بينهما :
لوسس ج٢، ١١٥، ١٢١، ١٢٥، ١٢٦)

كانت امارة الحج متداولة بين والي الشام ووالي عكا ووالي حلب ما بين ١٧٩٠—١٨١٠م وقد اوكلت الاستانه الى الجزار اربع مرات ولاية الشام مع احتفاظه بولايتي طرابلس وعكا وسنجق القدس • وكانت الرابعة سنة١٨٠٣ واذ كان قد بلغ من العمر عتيا واحس بعوض عضال يعمل في جسمه الهموم واذا حس فوق ذلك بالخطر الوهابي استعفى عن امارة الحج وهلك الجزار سنة ١٨٠٤ فعين الباب العالي ابرهيم باشا والي حلب لامارة الحج وولاية الشام • فلا تي هذا الامرين من اذلال الوهابيين وتعسفهم فانتقلت ولاية الشام وامارة الحج بالتالي الى عبدالله باشا العظم ورغما عن تمكن عبدالله باشا من بلوغ مكة الا ان حظه من الوهابيين لم يكن خيرا من حظ ابرهيم باشا • وحيث ان الباب العالي كان حريصا على استبقاء الاماكن المقدسة خاضعة له بسبب اعتماده لقب خادم الحرمين حفظا لمركزه في اعين المسلمين اخذ يسوغ ولاية الشام وامارة الحج على من يتقدم لها • فاعلن يوسف باشا وهو مملوك كرجي عن رغبته في قيادة الحج واخضاع الوهابيين فكان له ما شاء • غير ان الانكشارية رفضت موافقته فتوجه بحاشية صغيرة ولم يتمكن من بلوغ مكة • فهلك القسم الاكبر من اعوانه على الطريق • ومما يجدر ذكره هنا ان يوسف باشا كان والي الشام سنة١٨٠٧ عندما زارها العباسي في اواخر آب من تلك السنة •

اما فيما يتعلق بالخراج فانظر فيس ص : ٥١ وفيها تقديرات فولني وبوزنغ وفيس •

.../...

فولاني ٤٢٥٠ ١٢٤٥٥٦ فرنكا بورن ٤٠٠٠ ٤١٤٢ ٥ فرنك وفيس ٤٠٠٠٤٢٥٠٥
٤ فرنك • اما رقم العباسي فهو ٤٠٠٠ ٤٠٠٠ ٥ فرنك •

(٩) عرب عنزو : يذكر لاروس تحت لفظة "Anaza" "انها قبيلة هي اصل الفروع البدوية الكبرى في سوريا واهم هذه الفروع هي الرولا ٤ والدهامشة والعمارات والسبا •

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية (
ان قبيلة عنزة تعود في اصلها الى فئة ربيعة • واسم القبيلة الاصلي " عامر " وتدعيت " عنزو " لان جد القبيلة قتل رجلا بالعنزة (النون مفتوحة) وهي شبيهة بالعكازة اطول من العصا واقصر من الرمح ولها زج في اسفلها • وعنزو هذا هو ابن اسد بن ربيعة • وقبل القرن التاسع عشر لم يكن للعنزو مضارب معروفة • فكانوا قرب المدينة وفي اليمامة حتى اليمن • وهم بعد منتصف القرن التاسع عشر يرعون خيامهم في بادية الشام ويتطرفون شمالا حتى حلب وقد احتلوا هذه المدينة وانهبوها سنة ١٨٦٢ ومنهم من يشتون في البقاع ويتصلون جنوبا بقبائل شمر وشرقا بضفاف الفرات ويتقاتلون شتاء نحو تلال شمر • والفرات هو الحد الفاصل بين العنزو وقبائل شمر الضاربة بين النهرين والقبيلتان كانتا في حالة حرب مستمرة •

لم يشتهر امر هذه القبيلة في القديم او في عهود الاسلام الاولى غير ان اهميتها تزايدت من القرن او اوسط القرن السابع عشر • وكانت الدعنان اولى عشائر هذه القبيلة التي اتجهت شمالا وقد طاردت امامها قبائل شمر العراق واضطرتها لعبور الفرات ثم عن الدعنان الهذال وولد علي واخيرا الرولا في اواخر

القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر • وحيث ان الولاة الاتراك لم يكن لهم يد في ايقاف العنزة عند حد فقد تمكنت قبائلها من الاستيلاء على بادية الشام بكاملها حتى الفرات حيث سيطر العنزة على طرق القوافل وارهقوا التجار ثم عطلوا حركتهم •

يعرف عن العنزة عدم الاستمساك بفرائض الدين والصلاة •
وعندما انتشرت الوهابية اضطر العنزة لاتباع الائمة الوهابيون والمرشح ولو ظاهريا للموجبات الوهابية الدقيقة غير انهم بعد سقوط نير الوهابية عن سوريا اسرعوا بالتحرر من الفرائض التي الجئوا اليها •

(مستخلصة من مقال بيشنوف في دائرة المعارف الاسلامية • وقد اعتمد صاحب المقال المراجع الاتية : بركهارت

Burkhardt, Bermerkungen, Uber die Beduinen und Wahabi (1831)
A. Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates (1879)
E. Sachau Reise in Syrien und Mesopotamien (1883)
M.v. Oppenheim, Vom Mittelmeer zum persischen Golf.

اما الاعتداءات التي سعى بها العباسي في طريقه من دمشق الى حمص سنة ١٨٠٧ فهي على الارجح نتيجة معركة بين شمر والعنزة اذ كانت تجري الحرب دائمة الدوران بينهما آنذاك •

(١٠) الصالحيـــة : ذكرها ياقوت بانها قرية كبرى فيها اسواق وجامع على سفح جبل قاسيون وان معظم اهلها من مهاجري القدس وجوارها الذين فزعوا اليها عند احتلال الفرنج لها (ياقوت "٣"٣٦٣ ومراصد "٢"١٤٤) .

وجاء في ارجوزة الخداوردي المذكور سابقا ، في وصف الصالحية ما يلي :

وقرية التغلبكان الصلحا ... فكم بها قصد نزيل نجحا
(بالصالحية) سميت باصلح ... بل مقصدى اللذات والافراح
تحفها القصور والجواسق ... كانها بين البساتين ق
تظلها الاشجار كالاعلام ... تزورها الارواح للسلام
وكل طير آخذ في غنى ... وكل حزب منهم في معنى

وقد ذكر سوفاجيه (دمشق ٤٦١) ان الصالحية اخذت اسمها من الشيخ ابي صالح مؤسس اول بناء فيها .

.../...

الفصل الحادى والعشرون

(١) خان قصير : يدعو الويس موصل في كتابه بالميرانا ؟ خان القصير " يذكره في اخر مرحلة بين القطيفة ودمشق • (بالميرانا ؛ موصل (نيويورك سنة١٩٢٨ ص٢٥٥)

(٢) القطيفة : ذكر ابن تغرى بردى في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (Popper) المجلد "٦" ص : ٧٢ ان الامير قصير جمع سنة١٤٠٣ عددا وافرا من الاعراب ونزل بهم قرب تدمر بينما مشى تيمور لنك بجيشه من دمشق الى القطيفة •

وذكر تافنو في كتابة " الرحلات " ان القطيفة قرية كبرى فيها خان فسيح عالي البنيان •(Voyages, Thévenot, Amsterdam 1727 المجلد الثاني ص : ٨٥) •

ويذكر الويس موصل في كتابه المذكور ص : ٢٦٤ ان القطيفة قرية تقع الى جنوبي غربي سهل تحدق به المرتفعات •

وقد ذكر اليعقوبي سنة ٨٩١ ان في القطيفة قصرا للخليفة هشام بن عبد الملك (اليعقوبي ١١٢) •

وقال ابو الفضائل نقلا عن ياقوت ان القطيفة قرية تقع الى الجهة الشمالية من عقبات العقاب للقادم الى حمص من الشام في طريق الصحراء • (المراصد "٢" ٤٣٥) •

(٣) خان العروس : ذكر الويس موصل انه دخلها قادما من حمص بعد مرور في حي عين التين، مطحنة العروس الى اليمين وعلى مسافة مئة متر عنها الى اليسار خان العروس المهدم (الويس موصل المذكور ص : ٢٢٤) • وذكر سيتسن انه رأى بالقرب من خان العروس حفرة من المرمر عظيمة ستون قدما (سيتسن "١" ٢٥) •

(٤) معلولا : يظهر ان معلولا كانت في ايام ياقوت (القرن الثالث عشر م• والقرن السابع هـ •) مركز قضاء من اقضية الشام • (ياقوت "٤" ٥٧٨ والمراصد "٣" ١٢٣) •

يذكر ديسو ان معلولا لا تزال تتكلم اللغة الآرامية السحيقة منذ تسعة عشر قرنا (طوبوغرافي ص ٢٨ (راجع ايضا ج •د• باريز : لغة معلولا في الجورنال آزياتيك ١٨٦٨ "١" ص : ٥٢٣٩و٤٤٠و"٢" ص ١٢٤) •

(٥) القبـــك : هي قرية شمالي الشام وافرة المياه الجارية فسيحة السهول الزراعية (ابن جبير ٢٦) •

وهي قرية بديعة غنية النتاج بين حمص ودمشق فيها من غريب البرودة صفا (ياقوت "٤" ٧٣٩ المراصد "٣"١٩٥) •

قرية القبك شمال شرقي بعرد وتحيط بها البساتين البديعة من الشمال والشمال الشرقي ويطنب الويس موصل بساتينها الغزيرة ومظلة اهلها (الويس موصل ص : ٢٢٣) •

اما طاقير الذى زار الشرق فى القرن السابع عشر ويروي عنه انه ادخل القهوة الى فرنسا) فقد ذكر ان قرية القبك على مرتفع يجرى تحته جدول عليه جسر ذو ثلاث قناطر وعلى مسافة وجيزة خان مبني بالحجر المنصوب (طاقير الرحلات "٢"ص : ٨٩)

وقد وجد سيتسن بعض النقوش اليونانية على حجر في الخان مقلوب نقل قسما منها غير انه لم يتمكن من قراءتها • ("١" ٢٣ـ٢٤) •

(٦) قـــــارة : زار ابن جبير هذه القرية سنة ١١٨٥ وهو يذكر انها قرية كبرى الى شمالي دمشق يقطنها النصارى فحسب • ولا مسلمين فيها (ابن جبير ٢٦٠) •

.../...

ذكر اليعقوبي والمقدسي هذه القرية (يعقوبي ١١٢ مقدسي ١٩٠) .

وذكر ياقوت في القرن الثالث عشر عنها انها قرية كبرى على الطريق المعتدة بين حمص ودمشق . وهي في نهاية المرحلة الاولى من حمص وتقع على اخر حدود منطقة حمص .

وانت قول من سبقه بان سكانها هجين النصارى فحسب .
(ياقوت "٤" ١٢ المراصد "٢" ٣٧٧) .

وذكر عنها ابو الفدا" انها على منتصف الطريق بين دمشق وحمص .

وذكر المقريزي في كتابه " لسلوك لمعرفة دول الملوك "(ترجمة Quatremère) المجلد الاول القسم الثاني ص : ٣٤ انه بينما كان السلطان بيبرس عنيا بجيشه في قارة سنة ١٢٦٦ م. اتصل به ان نصارها يعاملون مواطنيهم في عكا فاخر بذهبالقرية وقاد النساء والاطفال عبدا وحول الكنائس جوامع واسكن فيها التركمان .

وزارها ناصر مرتين . فقال ان فيها خانين وكنيسة رومية ولاحظ من الانقاض الوافرة انها كانت بلدة عامرة فيما مضى (ناصر الرحلات "٢" ٨٩) .

.../...

(٧) الخـــــان : كلمة فارسية معناها المكان المبني وتعني الخانات في مصطلحات الشطرنج .

وقد جاء في دائرة المعارف ما يلي : وتكثر الخانات في الشرق في المدن ولاسيما الكبيرة منها وهي عند الشرقيين بمنزلة الوكالات عند الغربيين ينزل فيها الغرباء . ويطلق الخان عند الاعراب والعرب على فندق وهو محل واقع على الطرقات تبيت فيه القوافل وابناء السبيل . وهذه البنايات كثيرة في الاستانة وهي تتكون غالبا على هيئة ساحة مربعة في داخلها ثلاث صفوف من المعاشي بعضها مبني فوق بعض وفيها غرف صغيرة غير مؤثثة ينزل بها المسافرون دون دفع اجرة وقد بنى بعض هذه البنايات افراد الاهالي واكثرها بنى بنفقة السلاطين السلاطين .

(٨) طرابلس : ذكر البلاذري ٨٦٩ ان معاوية لما عين حاكما على الشام ارسل بسفيان بن مجيب الازدي لمحاربة اهل طرابلس . فاستنجد اهلها بملك الروم الذي ارسل سفنه وقتلهم ليلا وعندما دخل سفيان المدينة وجدها خالية فاسكن معاوية اليهود فيها (البلاذري ١٦٧) .

وذكر اليعقوبي سنة ٨٩١ ان معاوية نقل اليها بعض اهل فارس (اليعقوبي ١١٤) .

وذكر المقدسي ان طرابلس مدينة حصينة على الشاطئ . وهي اجمل من صيدا وبيروت كلتيهما (المقدسي ١٦٠) .

وذكر الدمشقي انه بعد ان استعاد السلطان قلاوون طرابلس قالت مدينة جديدة فوقها على بعد خمسة اميال منها • (دمشقي ٢٠٧) •

اما حروب يوسف سيفا مع فخر الدين واستيلاء فخر الدين على طرابلس وجوارها فشهيرة في التاريخ اللبناني (الامير حيدر شهاب وامير حياة فخر الدين) •

وفي الوقت الذي زار فيه علي العباسي دمشق وحمص وتحدث عن الحاق طرابلس بولاية دمشق كان بيرافا والي طرابلس • وقد رفض بيرافا تسليم طرابلس ليوسف باشا والي دمشق • ولم يتمكن يوسف باشا من اخضاع بيرآقا الا بواسطة الامير بشير الذي ارسل لنجدة والي الشام الشيخ بشير جنبلاط فاضطر بيرافا الى التسليم • وقد كافأه سليمان باشا والي عكا لم تمكن بيرآقا من العودة الى ولاية طرابلس (راجع لاحق "٢" ص ١٣٨ نقلا عن مخايل مشاقه ص ٢٤ـ٢٥) •

(٩) ساقيه كفرة : Caffara ? هي ساقية لم اجد لها اثرا الا في كتاب العباسي ويذكر العباسي انها تصب في بحرة • ولا بحرة في العرق المعين او حوله ولا يذكر العباسي انه رأى البحرة بعينه وعلى الارجح ان هناك خطأ في التعبير لاسيما وان لاديسوير ولا الخرائط العسكرية الفرنسية يذكران الساقية او البحرة غير ان سيتسن يذكر عن سيخة مالحة مرة على بعد ساعتين شرقي خان العروس ويستعمل اهل الشام ملح هذه السبخة في دبغ الجلود (سيتسن "١" ٢٦) •

.../...

(١٠) تدمـــر : لا مجال لبحث تاريخ تدمر فهي اشهر من ان تبحث في ما قدّر لهذه الاطروحـه • وما يمكن ان يدخل في بحثنا هو ما جاء في كلام العباسي عن علاقتها بحمص وعن طرقها • وقد بحث علاقاتها وطرقها الرحالة الدقاق الويس موصل في كتابه بالميرنا • وتعرض لبحث الخطوط الرومانية والخطوط العربية والمحطات العسكرية وما جاء في كتب الجغرافيا القديمة عنها من ايام بطليموس محطيا اراءه وتدقيقاته وذلك من الصفحة ٢٣٣ الى الصفحة ٢٦٠ •

اما قول العباسي بانه لا بدّ لقاصد تدمر من العبور بحمص فيبدو انه خطأ وقد افاد الاستاذ جبرائيل جبور وهو عالم مدقق وابن المنطقة بانه لا فائدة من العبور بالحصية فيمكن التوجه من حمص الى تدمر رأسا او من دمشق الى تدمر رأسا اما العبور بالحصية فانحراف لا فائدة منه ولا يفيد الا في اطالة الطريق •

(١١) الحوارييـــن : ذكر ياقوت ان هذه اللفظة مشتقة من كلمة " الحوار " ومعناها التربة البيضاء • وهناك عدة امكنة تدعى بهذا الاسم في جوار حلب وبين حماه والعمق (ياقوت "٢" ٣٥٣ وهي قرية قرب حلب او قلعة قرب حمص او اسم لقرية او قريتين بين تدمر ودمشق وهي المقصودة هنا (ياقوت "٢" ٣٥٥) •

وقد جاء في الفوتيا دفيناتم ٥ اوريس ص : ٣٢ عند تعداد المراكز العسكرية التابعة لقنّاد فينيقية ان اوهارى Euharà اوهارا او اوارا Antonine Itinerary في الخطوط الانطونية Euharà or Eubabara

.../...

١٩٠ : ٩ وان اوابه التي ذكرها هاردوين Harduin في Conciliorum Collectio
(باريس ١٧١٥) المجلد الثاني في العامودين ٤٧٣و٧٢٠ وحوارين السوريين
المعروفة اليوم هي الفاظ لاسم واحد •

وذكر على اسطوانة " ريم " (رولنصون) النقوش الاسفينية "٥"
اللوحة ٧ في المجموعة ٧ ١/١٢٢ وستريك في كتابه آشور بانيبال طبعة سنة ١٩١٦
"٢" ٦٤و٦٦) ان اشوربانيبال كسر العرب الذين كانوا اعوانا لمنافسه ملك
بابل شمشوكين في جوار مدينة حاورينا •

وجا" في تاريخ ميخائيل السوياني طبعة شابو "٤" ٩٣ ان زكا ابن
الارملة الذي اقامه المخلصين الموت عيذبا حتى هلكا في حوارين الصحرا" •

وذكر بطليموس انه عرف بلدة تدعى اواريا Auaria ربما
كانت هي حوارين • (حاشية الويس موصل ٨ ٣٧ اخذا من جغرافية بطليموس
"٥" ١٤ : ١٩)

وقد جا" في مجمع خلكيدونية توقيع اطران اواريا المدعو توما
Harduin, Conc. Coll. (Paris 1715) Vol. 2 Col 473f)
وتاريخ ميخائيل السوياني طبعة شابو "٤" ١٩٩) •

.../...

وذكر يوحنا الافسيسي في التاريخ الكنسي ("٣" ٠ ٤٠ـ٤٢)
ان الاسقف مافنوس بنى سورا حول حوارين وبنى كنيسة فيها فدعا الى حفلة
التكريس بطريرك انطاكية والملك المنذر ٠ جاء الاخير بحاشية من جنده فرجا
الاسقف مافنوس اليهم ان يعودوا من حيثاتوا ٠ وقدم المنذر وحده ٠ عندئذ
التي القبض على المنذر ولما تبين الخبر الى جند المنذر هاجموا القلعة وفتحوها
الا انهم اضطروا للتراجع امام القوة الرومانية ٠ وعند نزول القوى التي اتى بها
مافنوس عاد جند المنذر بقيادة النعمان فحطوا معهم كل ما وقعت عليه ايديهم
من ذهب وفضه ونحاس وحديد ٠

وذكر الاخطل في ديوانه طبعة الصالحاني ص٢٨٦ ان الخليفه
يزيد بن معاوية كان يحب الاقامة في الحوارين وانه دفن هناك سنة٦٨٣م٠ واثبت
هذا القول السعودي " التنبيه " طبعة (De Goeje) ص : ٣٠٦
في تاريخ الطبري (De Goeje)"٢"٤٢٧ ان يزيد مات في اواسط
تشرين الاول سنة٦٨٣م٠ في حوارين من قضاء الشام ٠

(١٢) القريتين : ذكر ياقوت ("٢" ٣٥٥) ان " الحوارين " هي اسم القرية
او قريتين بيت تدمر ودمشق ٠ وذكر العوفي ذلك ذاته ("٤"
٧٧) ٠ ان " القريتين " هي قرية تابعة لحمص على طريق الصحراء وانها تدعى
ايضا باسم " الحوارين ويستغرب اليعقوبي موصل كيفان ياقوت الحموي الذي نقل عن
البلاذري ما جاء عن الحوارين خلط ما بينها وبين القريتين وهما مكانان مختلفان
(موصل بالميرادا ص : ٣٨ الحاشية) ٠

٠٠٠/٠٠٠

(١٣) البريج : ذكر بكنغهام في رحلاته في القرن السابع عشر انه مرّ مع صحب له قرب قلعة صغيرة تدعى البريجه وكانت ابوابها مسورة بصفائح الحديد الغليظة وفي جدرانها منافذ للمدافع • (بكنغهام ، الرحلات ، "٢" ٩٠) •

غير ان هذه القلعة كانت في ايام العباسي خربة ويذكر الويس موصل (بالميرانا طول ٢٢) ان البريج قرية صغيرة قربها خان مهدم وهو من بناء القرون الوسطى بحجارة مقصوة من ايام الرومان • وقرب مدخل الخان ناووس غير ان هناك مسافة بين قلعة البريج والقرية •

(١٤) الحسيه : يذكر بكنغهام (رحلات "٢" ٩٠) انه اقام مخيمه قرب محطة الحسيه فرأى فيها حصنا صغيرا وخانا كبيرا وكانت تعقد قرب الخان سوق كما في القطيفة •

ويذكر الويس موصل انها قمة تقل من الشمال والشرق والجنوب بتلال صخرية (الويس موصل ص ٢٢٠) •

ويذكر سيتسن عنها انها قرية حقيرة فيها كثير من النصارى • (سيتسن "١" ١ ٢٢-٢٢) •

(١٥) قليسون النقاة : هذا الفلين لم يعد شائعا الا عند البدويات قرب حمص وقد يبلغ طوله القدمين او اكثر او اقل بالنسبة لجذع الاسة او السيدة التي تدخنه فهو ينغي ان يلمس الارض وهي جالسة فطول الفلين اذا يتوقف على المسافة بين فم السيدة والارض في خط مستقيم (معلومات شفهية : جبرائيل جبور) •

(١٦) حمـــص : القيـــارية ٠

لا داعي لترديد ما جاء في كثير من الكتب عن حمص٠ الا ان القيصرية لفت النظر بمبانيها ليست المدينة الوحيدة ذات "قيسارية " وهي خان كبير مربع في وسطه فسحه وحول الفسحه بناء من طابقين او اكثر ٠ في هذا المكان تباع الاقمشة الحريرية خاصة ٠ وقد يكون الاسم قيصرية لصق بهذا البناء الاهمية مادة الحرير واهتمام الاباطرة بها ٠ وقد اورد "لسترانج " ما يلي في حاشية الصفحتين ٢٥٥و٢٥٦ من كتابه المذكور سابقا : " ان لفظة قيسارية تدل على سوق التجار وهي بناية على نمط الخان لخزن البضائع وهي مشتقة من اللفظة اليونانية Kaisareia اليونانيـــة بعض السوق القيصرية ٠ وقد استعملت اللفظة فقط في تلك البلدان العربية التي كانت خاضعة للبيزنطيين وهي سوريا ومصر وبراكش اما ابعد الى الشرق في بغداد وفارس فلم تكن هذه اللفظة مستعملة '

ويتفق سيتسن مع العباسي بان سكان حمص نصف سكان حماه الا ان سيتسن يقدر السكان بستة الاف بينما يقدرها العباسي بثلاثين او اربعين الفا (سيتسن "١" ٢٠) ٠

(١٧) نهـــر العاصي : كان اليونان يدعون هذا النهر باسم " اورنتيس بروماوس " المشتق من اللفظة السريانية "اعصيرو" التي تعني " السريع وقد حرف العرب هذه اللفظة وشقوا منها لفظ"العاصي " ولقبوه ايضا بالمقلوب " لجريانه المعاكس لباقي الانهر ٠ اما الصليبيون فقد دعوه بنهر " فرفر" في تأريخهم وذلك لاعجابهم العاصي ذلك النهر المذكور في القرآن (٢مل ٥ : ١٢) (لسترانج ٥٠٩ ٠

٠٠٠/٠٠٠

وفقا لما ذكره ياقوت فان نهر العاصي يدعى العباس عند خروجه من بحيرة قدس وهو يدعى العاصي بين حمص وحماه وقرب انطاكية فانه يدعى بشهر الشريط (ياقوت "١" ٣٣٣ و"٣" ٥٨٨) .

وذكر ناصري خسرو سنة ١٠٤٧م. ان هذا النهر دعي العاصي لانه يترك ديار المسلمين الى ديار الكفار . (ناصري خسرو ص ٢٥٧ لسترنج)

(١٨) الحويدة : يعتقد ديسو ان هذا المكان هو العوج المعروف باسم حددي (Hadadi) على الخريطة العسكرية الفرنسية لجيش الشرق (وقت الانتداب الفرنسي) سنة ١٩٢٠ وهي تميل قليلا الى شمالي منتصف الطريق بين قدموس وحماه (ديسو ؛ طوبوغرافي ص ١٤٧) .

(١٩) الشيخ عرشي : Araschi وهي على الارجح عرشني Arashni في جوار عرقه وطرابلس : (ديسو طوبوغرافي ص : ٥٠٩) .

(٢٠) ضياع التل : ذكرت هذه القرية في الترجمة الانكليزية باسم ددوطي . وهي في الخريطة الملحقة برحلات العباسي باسم " ضياع التل " ولم اتمكن من العثور على بحث عن هذه القرية عند غير العباسي .

ويذكر سيتسن ("١" ١٧) ان هناك تلا اسمه تل بيض قرب الرستن .

(٢١) الريستـــن : يذكر الويس موصل في كتابه بالميرانا الريستن (٢٧٤) نقلا عن اغطوشين بياسترا في كتابه الامكنة المقدسة طبعـــه (طولر) ص٣٨١ ان الريستن هي تحريف اريستون التي هي تحريف اريستوبا وآراتوزا ٠ ويذكر انه زارها (٨ ٢١٩) ٠

وذكر ابن جبير (٢٥٨ ان الخليفة عمر بن الخطاب فوض المدينة ويشبه باهميتها السابقة وانقاضها العظيمة الى ان يذكر ان في القسطنطينية بوكدون ان في الريستن كمية هائلة من الكنوز المخبوءة ويذكر ياقوت عن عظمة الانقاض بانها تنم عن عظمة قديمة (ياقوت "٢"٧٧٨) ٠

ويقول ابو الفداء ان الريستن كانت على درجة من العظمة حتى ان ابيت منها كان بحجم قرية (٢٣١) وزارها سيتسن اربعة اشهر قبل العباسي في السنة عينها وذكر مثله انها مبنية بالحجر الاسود (سيتسن "١" ١٧ــ١٨) ٠

(٢٢) حمص وضواحيها : مر العباسي في حمص مرورا سريعا ٠ اما انطباعاته عن البلدة مع سوئها فهي كثيرة الرجحان لصلحتها وعلى الاخص فان ما رآه في حمص وحماه من مظاهر العمران والنشاط التجاري ادهشه لانه كان يخيل اليه كما ذكر في عرض تعليقه على مشاهداته في حمص وحماه ان هاتين المدينتين لا يحدو كوشهما قريتين كبيرتين ٠ وبما ان العباسي مولع بالاعيان بما لم يأت به غيره من معلومات فقد اشاد بالمدينتين اشادة كانت اقرب الى المبالغة ٠ فالارقام التي يعطيها من جهة السكان يبدو انها مبالغ فيها ٠

٠٠٠/٠٠٠

اذا ما قورنت بما جاء في تقديرات المعاصرين ممن اقاموا في البلاد سنوات بل عشرات من السنين مثل فيس الذي كان قنصل فرنسا والذي كان دائم اليقظة والانتباه لكل ما يمكن ان يصدر فيه بارقة امل للاعتبار والمعاملة • (فيس ٢٢٠) انظر جداول السكان ومقابلاتها في اخر الحواشي •

قدر سيتسن سكانها باثني عشر الفا ("١ "١٥) وهو يعتبرها وسطا بين المدينة والقرية •

(٢٣) لطمسين : ذكرها ياقوت باسمها كورة محصنة في ناحية حمص (ياقوت "٤"٣٥٨)

وذكرها عرضا ديسو واشار الى وادي نقتون : النقوش الرونائية اللاتينية في سوريا ٢٦٦٧ـ٢٢٦٨ والى رأيّ : المستعمرات الفرنسية ص ٣٣٤

وقد رأى سيتسن فيها رابية اصطناعية وبها هي الحصون التي اشار اليها ياقوت (سيتسن "١ " ٩ـ١٢) •

(٢٤) خان شيخون : راجع (نقلا عن ديسو

Voyage, Von Berchem, p.206
note 4

ذكر ديسو (توبوغرافي ٢١٠) ان خان شيخون قرية يعتقد طمسون انها تعد من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ من السكان وهي اليوم مكان المدينة القديمة المعروفة باسم " اشيخاني " (سيتسن "١ "٩) وقد تناول سيتسن القهوة فيها في ١٤ نيسان سنة١٨٠٧ (سيتسن "١ "٩) •

.../...

(٢٥) المعـــرة: والمقصود هنا معرة النعمان • وهي مدينة قديمة كانت عندما زارها
زارها اليعقوبي حول السنة ٨٩٠م• خربة • ثم جددت نشاطها
فيما بعد وقد زارها الاصطخري في اواسط القرن العاشر فكانت على شيء من
الانتعاش (الاصطخري ٦١ ابن حوقل ١١٨ ابو الفداء ٢٣١ نقلا عن لسترنج
٤٩٥هـ ٤٩٧ • وفي اواسط القرن الحادي عشر كانت بلدة آهلة بالسكان •
(ناصري خسرو ٣) وفي اواخر القرن الثالث عشر كانت على درجة متقدمة من
العمران تحيط بها البساتين الخصبة (ابن جبير ٢٥٦) •

وذكر سيتسن عنها في ١٣ نيسان ١٨٠٧ انها بلدة صغيرة تحوي
١٥٠٠ نفس من السكان يحيط بها سور وهي على مرتفع قرب تلعة ولم ير فيها جدارا كما
سمع عنها (سيتسن "١" ٧و٨و٩) •

(٢٦) حلـــب : اقاض المؤ• لقرن العرب في مناحشهم عن حلب وعن الاساطير المحوكة حولها
وهذه الاساطير ان دلت على شيء فانما تدل على المركز الهام الذي احتلته
هذه المدينة من اقدم العصور • فكان لها في كل دوله دور وقد ظلت حتى اواخر
القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ملتقى القوافل القادمة من الشرق من الخليج
الفارسي الى بغداد الى الرقة فحلب فحماه وحمص ودمشق •

غير ان دلائل الانحطاط بدأت تعمل عملها في حلب ابتداء من
اواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر وتتطفل التقارير التجارية وقصص
الرحالين تعلن ذلك • وقد اوجزه العباسي في كتابه • واني اعتقد

•••/•••

ان املاك عن وصف حلب لم يكن سببه كثرة الوصافالسابقين بقدر ما كان ناتجا عن خيبةامل وصوله الى مدينة احلامه حلب التي ادعى رؤيتها قبل ان يصلها (راجع العباس "١" ج"٢"٥٥) ٠ ومن جملة ما ذكره فيس عن مظاهر التقهقر في حلب ان الطرق الموصلة اليها ستقيمة وضيقة الى درجة لا يشعر القادم اليها انه يصل الى مدينة كبرى (فيس ١٤٨) ٠

في المدينة وعلى وجه التفصل الخبير ابناء جلدته الا يؤخذوا بؤخذوا بمظاهر العمار التي تعدو عن بعد للناظر فالبيوت مدمرة مقفرة ٠

اما اسباب الانحطاط فقد ترد الى العوامل السياسية والاقتصادية وبالاخص الاقتصادية ٠ ومع هذا فلا يجوز ان نهمل العامل السايسي او ان نعتبر العاملين مرتبطان متداخلين ٠ (فيس ١٤٧—١٤٩)

في اواخر القرن الثامن عشر تكونت في البلاد العربية امارتان تزعمان امارة البيت السعودي وامارة بيت بن الرشيد مما اجبر قبائل الرولا على الانسحاب الى ضواحي الشام والعراق وحدود تركيا ٠ وامر البدو شهير مع القوافل وطرق التجارة ومن سوء حظ حلبان هذه القبائل البدوية خربت على طرق قوافلها وكثيرا ما كانت تغير على الاوض المزروعة وتنكل بالانسان والحيوان والنبات فلم يسلم من براثنها غير الرمال (راجع كتاب روبار منطقة مدينة الصحراء ص ١٣٨_١٣٩) ٠

وقد استند المؤرخ الفرنسي الى الويس موصل في كتابه " العربية القفراء"

وذلك نتيجة لرحلة الاخير في شتاء ١٩٠٨ـ١٩٠٩ (صيف ١٩٠٩) . وكان فيس يعجب من ترك اهل حلب حدائقهم تقفر ولا يخفي انه ولم يقتنع بجواب الاهلين ان الجفاف وقلة المياه هي سبب الاقفار ويرده الى غزوات البدو وعدم الطمأنينة خارج اسوار المدينة . (فيس ١٤٨) وفي الوقت الذي كانت فيه حلب تتأسى ذلك الشعب كانت الخلافات الداخلية تزيد في حالتها سوءاً فقد كان في ذلك الوقت حزبان متنافسان في سبيل الزعامة . حزب الانكشارية وحزب الاشراف . وقد تمكن الانكشارية سنة ١٧٩٧م. من التغلب على الاشراف فقد اعملوا فيهم قتلا ونحرا ولم يدعهم من ذلك رادع ولم يفد المغلوبين لجوؤهم الى الجوامع . ثم اقتل الانكشارية ابواب المدينة في وجه شريف باشا الذي عين آنذاك لولاية حلب فاضطر الوالي الجديد الى التسليم بجميع شروط الانكشارية . وكانت طرق شريف باشا لا تختلف عن طرق الولاة في ذلك العهد . فاخذ يضطهد الاشراف حتى اعاد اليهم شيئا من النفوذ ثم انحاز الى جانب الانكشارية وترك هؤلاء يذبحون في ليلة واحدة نحو مئتين وخمسين شريفا . (الامير ـ تاريخ سوريا (بيروت ١٩٢١ ص : ١٤٠ـ١٤٢) .

وقد زار فولني حلب ودرس احوالها التجارية والاقتصادية وقد ذكر انه لم يبق لولاية حلب من الثلاثة الاف والثماني قرية التابعة لها سوى اربعمئة قرية . (فولني "٢" ٤٩و٢٣٨و(٢٧٥) .

ويعتمد سوفاجه (الدرر المختارة لابن الشحنة مقدمة طبعه بيروت ١٩٣٣ (الترجمة الفرنسية لسوفاجه) "١" المقدمة ص٧١ ان كتاب ابن الشحنة هو افضل تاريخ لحلب .

.../...

السكـــــان

	العباسي	غيس	هـــوف	سيحـــن
دمشق	٤٠٠٠ ٢٠٠	٤٥٠٠ ١١٢	٤٠٠٠ ١٥٠	
القدس	٤٠٠٠ ٢٧	٤٠٠٠ ٤٥مع ١٢٥قرية		
حمص	٤٠٠٠ ٣٠ ٢	٤٠٠٠ ٢٠وضعه الافسنة٤٨٤٦		٦٠٠٠
حماه	٤٠٠٠ ٨٠	٤٠٠٠ ١٢ ـــ		٤٠٠٠ ١٢
حلب		٤٠٠٠ ٧١	تحت٤٠٠٠ ١٠٠	
حبرون	٤٠٠ اسرة	٤٥٠٠ ٢٧ مع ١٥قرية		
الناصرة	٨٠٠ اسرة			
بيت لحم	٥٠٠ اسرة	٤٠٠٠		
الرملة	٢٠٠٠اسرة؟	٢٠٠ اسرة		
العكرة	٢٠٠٠ اسرة؟			١٥٠٠
يافا		١٠٤٠٠		
عكا		٨٤٢٠		
غزو	٥٠٠٠	٢٠٠٠		

المصـــــادر

ابن بطوطـــه — "تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار" نشرة دفرامري وسانغينالتي Defrémery et Sanguinetti مع ترجمة افرنسية في اربعة مجلدات طبعة باريس سنة ١٨٥٨.

ابن جبير — "رحلة ابن جبير" نشرها دي غويه (De Goeje) في ليدن سنة ١٩٠٧

ابن حوقـــل — "كتاب المسالك والممالك" نشره دي غويه في ليدن سنة ١٨٧٣ ضمن منشوراته المصورة باسم "بيبليوتاكا جيوغرافوروم ارابيكوروم" المجلد الثاني

ابن خرداذبه — "كتاب المسالك والممالك" نشره باربيه دي مايار في المجلة الاسيوية سنة ١٨٦٥ Barbier de Meynard

ابن ابي الفـدا — "تقويم البلدان" نشره رينودي سلان باريس سنة ١٨٤٠ Renaud et De Slane

ابو الفضائـــل صفي الدين — "مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع" وهو في معظم تعريفه معجم البلدان لياقوت الحموي. نشره جويبول في ستة مجلدات ليدن سنة ١٨٥٩ Juynboll

الادريســـي — "كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق" جلد صغير في سلسلة منشوراته (Gildmeister, Palaestina Verein) المجلد الثامن سنة ١٨٨٥

الاصطخري — "كتاب المسالك والممالك" (دي غويه سنة ١٨٧٣) ليدن

البلاذري — "فتوح البلدان" دي غويه (ليدن سنة ١٨٦٦)

الدمشقـــي — "نشره مهرن في بطرسبرغ سنة ١٨٦٦

.../...

مجير الدين — " الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل " بولاق سنة١٨٦٦م وسنة١٢٨٣ هـ .

المسعودي — مروج الذهب ، وطبع ميناركورتاي في تسعة مجلدات باريس Meynard et Courteille سنة ١٨٧٧

المقدسي — " احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم " دخويه ليدن سنة١٩٠٦ الطبعة الثانية .

ياقوت — " معجم البلدان " وستنفلد ستة مجلدات (ليبسغ سنة١٨٦٦ Wüstenfeld

اليعقوبي — جويدول ليدن سنة١٨٦١

لسترنج — " Le Strange, Palestine under the Muslims لندن سنة١٨٩٠

وقد اعتمدت هذا الكتاب في التعرف الى المصادر المذكورة اعلاه قبل الاطلاع عليها . ثم انني اعتمدته في ماورد عن ناصرخسرو وابي الهدى لعدم تمكني من الحصول على اي من هذين الاخيرين .

لامنس — " لامنس " المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٢١

وبواسطته اهتديت الى مخطوطه "سيرة الجزار " في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت ، والمخطوطة الاولى هي الآن في يد الاب خليفة اليسوعي في بيروت وهو بحضرها للطبع قريبا . (ومخطوطة ثانية وعنه أخذت أرقام الصفحات)

الموصلي — " Alois Musil " بالميرا نيويورك سنة١٩٢٨

غوارماني — شمالي نجد . ترجمة اللاهدي كابل — كوبر الى الانكليزي مقدمة دوغلاس كارروثرز (لندن سنة١٩٣٨ Guarmani, Lady Capel-Cure, Carruthers

دوائر المعارف — للبستاني ، البريطانية ، والاميركية ، والاسلامية " الانكليزية " ولاروس القرن العشرين ولاروس الجديد المصور وقاموس السير والتاريخ العام الدينوري واشلا . وقاموس الكتاب المقدس لبويت (بيروت سنة١٨٩٤) .

.../...

مجير الدين — " الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل " بولاق سنة١٨٦٦م

وسنة١٢٨٣ هـ .

المسعودي — مروج الذهب ، ونشر ميناروكورتاي في ستة مجلدات باريس Meynard et Courteille

سنة ١٨٧٧

المقدسي — " احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم " ديخويه ليدن سنة١٩٠٦

الطبعة الثانية .

ياقوت — " معجم البلدان " ويتضمن ستة مجلدات (ليبسغ سنة١٨٦٦ Wüstenfeld

الجغرافيا — جويدول ليدن سنة١٨٦

لسترنج — " Le Strange, Palestine under the Muslims " لندن سنة١٨٩٠

وقد اعتمدت هذا الكتاب في التعرف الى المصادر المذكورة اعلاه قبل الاطلاع عليها . ثم انني اعتمدته في ماورد عن ناصرخسرو وفي البحوث لعدم تمكني من الحصول على اي من هذين الاخيرين .

لامنس — " لاسوى " الطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٢١

(ومخطوطه منير وعنه أخذت ارقام الصفحات)

وبواسطته اهتديت الى مخطوطه "سيرة الجزار " ك في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت ، والمخطوطة الاولى هي الآن في يد الاب خليفة اليسوعي في بيروت وهو بصددها للطبع قريبا .

الموصلي — " Alois Musil " بالميرا نيويورك سنة١٩٢٨

غوارماني — شمالي نجد . ترجمة اللادي كابل — كوبر الى الانكليزي مقدمة دوغلاس كارذرز Guarmani, Lady Capel-Cure, Carruthers

(لندن سنة١٩٣٨

دوائر المعارف — للبستاني ، البريطانية ، والاميركية ، والاسلامية " الانكليزية " ولاروس القرن العشرين ولاروس الجديد المصور وقاموس السير والتاريخ العام الدينوي واشلا . وقاموس الكتاب المقدس لهيوست (بيروت سنة١٨٩٤) .

.../...

غيدلو — Guide Bleu هاشت

هوايت — بيبل اطلس ٤ (شيكاغو سنة ١٩٠٠

فيس — حالة السياسة والتجارة في سوريا (باريس سنة ١٨٦٢) • وعن ارقام صفحات مارسلوس ومارمون

بارتابه وبايستريان — دليل الارض المقدسة •

هـــوغ — Hogg زيارة الاسكندرية والقدس ودمشق (لندن سنة ١٨٣٥)

حيدر — التاريخ " مغيغب " (مطبعة مصر سنة ١٩٠٠) •

مخايل مشاقه — " حوادث الشام" الاب مطرفيه سنة ١٩١٢

زيـــق — الزهدية قديما وحديثا لاسماعيل بك جول (بيروت سنة ١٩٣٤) •

الاستاذ زين زين — محاضرة عن اسطورة القديس جرجس (مخطوطه المؤلف)

غوليو فقش — (Bibliotheca fio-bibliografia della Terra Sancta, Nuova Serie II, 1922)

ديـــسو — (Dussaud, Top.ie de la Syrie Antique et Médiévale, Paris 1927

هيـــد — (Heyd) تاريخ التجارة الشرقية (باريس سنة ١٨٨٥) •

سيتسن — الرحلة = برلين سنة ١٨٥٤

سواجيه — (Sauvaget, Hamas, Paris 1935, RE. Is. 2. Alep, Beyrouth 1933)

روبار منتانيه — Robt Montagne La Civ. du Desert, Paris 1947 مدنية الصحراء

صلاح الدين المنجد — اورجوزة خداويردي٤ مجلة المجمع العلمي العربي الجزء الثاني المجلد السابع والعشرون نيسان سنة ١٩٥٢

الجبـــرتي — (مصر سنة ١٣٢٢ هـ)

رحلـــة
علي بك العباسي الى سوريـــا
من ١٢ تموز الى ١٠ ايلول ١٨٠٧

---

١ ــ خلاصـة الرحلـة :

ان القسم موضوع هذه الرسالة مقتطع من رحلة علي بك العباسي الى آسيا وافريقيا وقد ترجمت القسم المتعلق بسوريا فكان موضوع الحواشي الملحقة .

ترك علي بك قصبة العريش وهي آخر بلدة مصرية على اطراف صحراء سوريا الجنوبية في ١٢ تموز سنة ١٨٠٧ متوجها الى القدس . وقد مر بغـزة ويافـا والرملـة وغيرها من البليدات حتى كان في القدس عند الساعة الثامنة الا ربعا من صباح الخميس في الثالث والعشرين من تموز سنة ١٨٠٧ . وقد زار فيهـا الحرم الشريف ودرسه دراسة مدققة خيل اليه انها الاولى من نوعها . ثم توجه الى حبرون ــ الخليل ــ وزار المغارة الاولياء فيها وفي عودته مر ببيت لحم . ثم عاد الى القدس وقام في ضواحيها ببعض الجولات التي تحدث فيها عن مزارات الاولياء من الطبقات المختلفـة .

ولم ينس العباسي في جولاته الى مزارات الانبياء ان يذكر جميع التحصينات التي رآها ربما عرضا في انتقاله وقيمة المواقع من الوجهة العسكرية وامكانية صمودها في وجه العدو المهاجم ومدى استعداد السكان وقيمة استعدادهم وغير ذلك .

وقد زار العباسي كنيسة القبر الاقدس قبل مغادرته القدس ولم يخف شعوره بالالم مما يلاقيه الرهبان فيها من تعنت الحكام وارهاقهم ومن الخلافات القائمة بين اللاتين والاروام وعلى الجملة فان شعوره في بيت المقدس كان شعور خيبة اجملـه في عبارة لاتينية معناها : كاربلة واصبحت سيدة الامم .

وقد غادر القدس صباح الاربعاء في ٢٩ تموز عند التاسعة صباحا قاصدا يافا . وتوجه من هذه البلدة بحرا الى عكا حيث اقام بوهة قصيرة غادرها بعدها الى الناصرة ثم الى دمشق التي وصلها في ٢٢ آب عند الثانية عشر والنصف .

وقد دهش للحركة التجارية الصناعية في هذه المدينة ولوفير منتجاتهـا وامكاناتها ولوفرة البضائع في مخازنها وخلص الى انها خير مكان في العالـم لتقويم اود الحيوان .

واغتنم فرصة توجه احدى القوافل الى حلب فغادر دمشق مع السفر في ٢٩ آب عند الرابعة بعد الظهر .

وقد مر بحمص وحماه البلدتين اللتين اعجب بنشاطهما التجاري فقدرهما باضعاف اضعاف ما هما عليه فعلا .

وكان في حلب في العاشر من ايلول سنة ١٨٠٧ . وقد شاركت هذه المدينة اورشليم في ما احدثته من خيبة امل عند العباسي الذي دان لها بالرعوية قبل ان يراها ،وقد ادعى انه منها في مناسبات عدة في مراكش ومكة وغيرها .

٢ ـ من هو علي العباسي ؟

اجمعت دوائر المعارف على ان علي العباسي هو اسم مستعار لمغامر اسباني يدعى دومنغو بادیا ای لابلتش ولد سنة ١٧٦٦ ولاقى حتفه في حلب سنة ١٨١٨ . وان هذا المغامر اعتنق الاسلام او تظاهر بالاسلام لغايات سياسية . وليس في الرحلة ما يهدينا الى حقيقة امره كما ان دوائر المعارف على العموم سكتت عن مصادرها عن العباسي . لولا ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية في نسختها الانكليزية من ان الرحالة الالماني سيتسن ذكره في رحلته ،وقد عدت الى المصدر المذكور فتبين لي ان هناك تناقضا في الاسم الاصلي لعلي العباسي فاذا هو باترو نونس وليس دومنغو بادیا . ورغما عن ميلي الى الاخذ بما جاء في رحلة سيتسن لاعتبارات ذكرتها في المقدمة الا ان الجزم لا يتيسر لي بالنظر لفقدان مصدر ثالث يمكن الارتكاز عليه . كما ان صفة العباسي لم تتضح تماما فيما لو كانت صفة علمية ام عملية تجسس ام مجرد مغامرة . وقد حاولت الاستيضاح من المصادر الاسبانية التي قيل لي انها تدرس العباسي بطريقة مطولة غير انني منذ خمسة اشهر الى الآن لم اتلق جوابا .

٣ ـ قيمة الرحلة :

ان الصبغة التي تمتاز بها هذه الرحلة هي في تمكن العباسي من دخول المقادس الاسلامية واحرامها ووصفها وصفا دقيقا ان سبقه اليه السويسري فمن الراجح ان المسيحيين الغربيين لم يسبقوه اليه هذا فضلا عن كون المؤلفات السويسية اتتاء رحلته لم تكن قد نشرت بعد من مخابئها فكان محكوما عليها بالبقاء في الزوايا نحو نصف قرن او يزيد .

راى معظم الذين درسوا العباسي فيه عيلا سياسيا غير ان قيمة ذلك زالت مع زوال الاسباب الداعية فلم يبق لنا الا ان نرى في رحلة العباسي لمحات هنا وهنالك عن الاوضاع الادارية والتجارية والصحية والاجتماعية يصح الركون اليها مصادر تاريخية بعد المقابلة والمقارنة مع اثار من سبقوه او زامنوه او جاؤوا بعده او كانوا في البلاد اثناء قدومه اليها •

ولعل اهم ما يمكن ان يسجل ما دونه العباسي عن حالة الطرقات والسفر وحالة المرأة المسلمة او المسيحية في مختلف الوجهات والشؤون • ونظرة الرجل اليها وحالة العلم البدائية وضعف الثقافة في سوريا ثم بحث بعض العادات من رشق الحجارة على البيوت ليلا وما يرافقها من مختلف الادعاءات او وضع المياه على الطرق للسابلة او حالة الخانات في ذلك العهد او غير ذلك من المظاهر الاجتماعية • كما انه يمكن الركون الى بحث حالة الدفاع في سوريا في ذلك العهد لما اشتهر عن العباسي من صفة التجسس او من صفة عسكرية سابقة لقدومه الى الشرق •

ولم يكن العباسي اول من زار الشرق فهناك سلسلة كان العباسي احد رادتها وقد سبقه نيابور وصحبه لازيعة وفولني • وكان شاتوبريان وسيتسن في الشرق اثناء وجوده فيه • وهناك عدد لا يحصى جاء بعدهم ممن درسوا الشرق دراسات علمية متعددة •

٤ — وسائل البحث •

لم يكن درس العباسي امرا سهلا لفقدان المصادر ولما رافق حياة العباسي من حيطة وحذر • اما مقدمة الرحلة فلم تكن افضل من غيرها في الكشف عن حقيقة العباسي • ومع هذا فلم احصل الا على الترجمة الانكليزية للرحلة اما الاصل الافرنسي فلم يتسن لي العثور عليه مع ما قمت به من اتصالات وتنقيب • كما ان المصادر الاسبانية لم تصل بعد رغما عن الحاحي على الحصول عليها •

وقد اعتذر الناشر الانكليزي عن ذكر اسم العباسي الحقيقي لاسباب ربما كانت وجيهة عند صدور الترجمة سنة ١٨١٦ • ولذا فان اعتمادي على ما جاء في رحلة سيتسن عن العباسي كان كبيرا لانه المصدر الوحيد الذي تمكنت من الوقوع عليه •

وان تكن المصادر عن شخصية العباسي شبه معدومة الا ان هناك فيضا من الرحالين الذين زاروا الامكنة التي زارها العباسي فهناك من مر مرورا وسجل اسماء القرى والامكنة وهناك من ذكرها مع لمحات تاريخية مشبعة بالروايات التقليدية •

منهم من جاء البلاد دارسا ومنهم من كانت له غايات ومآرب سياسية او تجارية • كما ان الاحداث التي ذكرها العباسي فقد تمكنت من العثور على مقارناتها وتوضيحاتها في معظم الاحيان •

وبما ان العباسي ليس الاندلسي الاول يزور الشرق فهناك ابن جبير البلنسي الذى قام برحلته سنة ١١٨٥ وهناك ابن بطوطه البربرى الذى جال في سوريا في القرن الرابع عشر • فكان لا بد من ذكر انطباعات الرحاليين المذكورين لمقابلتها مع رحلة العباسي •

وادعى العباسي ان وضعه للمسجد الاقصى هو الاول له وذلك نظرا لعدم تهيؤ المسلمين لهذه المهمة ثم لكون النصارى لا يسمح لهم بدخوله" (كذا) فكان لا بد من الاطلاع على ما جاء عند مؤرخي العرب ورحاليهم عن اوصاف الحرم الاقصى • فاذا هناك فيض من المعلومات عن الحرم من القرن العاشر حتى الخامس عشر • فاقتضى ذكر ذلك ومتابعة المقارنة بين ما جاء عند رحالي الغرب وما جاء عند العباسي •

وقد اعتمدت في هذا على لسترنج في كتابه Palestine under the Muslims اعتمادا كبيرا وبه اهتديت الى المراجع والمصادر الاساسية التي كان لا بد من تدقيقها • •

اما كتاب L'Etat Politique et Commercial de la Syrie (Guys) فقد اعتمدته في كثير من المواقع لتدقيق ما جاء في الرحلة من قضايا سياسية او تجارية او صناعية —

ثم ان هناك رحالين معاصرين للعباسي من امثال نولني الافرنسي وسيتسن الالماني وهوغ الانكليزى • فكان لا بد من اعتمادهم في ما ورد في الرحلة للمقارنة والتدقيق •

وهناك بعض التصريحات الاجتماعية والسياسية نتجت عن بعض الملاحظات فوجب مقارنتها بما قابلها من الاحداث في تلك الحقبة عند بعض المؤرخين من امثال مشاهدات مخايل مشاقه ومؤلف سيرة الجزار من الوطنيين وغيرهم من امثال غوليمونتس الذى جمع مختلف الوثائق المخطوطة عن رهبان الارض المقدسة فوجب الاطلاع على ما جاء فيها لتوضيح ما ذكره العباسي عن احوال الرهبان في الارض المقدسة •

- ولم يتيسر بحث جميع العلاقات العامة لما ينتج عن ذلك من اطالة الموضوع الى ما لا نهاية له فاضطررت الى الايجاز في كثير من المواقع • ايجازا قد يكون مدعاة للنقص في كثير من الاحوال غير انه ايجاز لا غنى عنه ولولاه لخرج البحث عن نطاق الرسالة •

والخلاصة فان هذه الرسالة ربما افادت في كشف بعض النواحي الاستطلاعية التي قد يكون لها اثر في توضيح للعلاقات الغربية الشرقية في القرن التاسع عشر والتي عليها بنيت حالتنا الحاضرة • فهي عبرة للماضي وعظة للمستقبل •

بيروت في ٢ حزيران ١٩٥٢

حليم كنعان